

فن الذات

دراسة في سيرة ابن خلدون

محمود عبد الغني



المجلس الأعلى للثقافة

فن الذات

دراسة فى السيرة الذاتية لابن خلدون

محمود عبد الغنى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

عبد الغنى ، محمود .

فن الذات ، دراسة فى السيرة الذاتية لابن خلدون / محمود عبد الغنى

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٨، ط١

٢٦٠ ص ؛ ٢٤ سم.

١ - ابن خلدون ، عبد الرحمان بن محمد أمين محمد ١٣٣٢ - ١٤٠٦

٢ - الاجتماعيون

(أ) العنوان ٩٢٣,٦

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٤٥٥٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 437- 648-X

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El- Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084

المحتويات

مقدمـــــة

شكّل اهتمام التحليل المعاصر للأدب بجنس السيرة الذاتية تحولا مهمًا فى النظرية النقدية المعاصرة، اقترن هذا الاهتمام بعملية إحياء السياقات الذاتية للنص الذى يجعل من الذات والـ "أنا" منطقًا للكتابة. وما إن تطرح الأسئلة حول علاقة الـ "أنا" بلغتها وبنصيتها، أو حول تميز الخطاب الأدبى للذات، حتى تقع بعض المصاعب المتوقعة. وهى المصاعب التى لم تُطرح، بأى شكل من الأشكال، فى أثناء مقاربة الأجناس الأدبية الأخرى، وبعض هذه المصاعب تكمن فى قرار جميع أقسام وفصول هذه الأطروحة.

تختلف طبيعة فهم ووصف أسئلة السيرة الذاتية، تنظيرًا وتطبيقًا، باختلاف الطبيعة اللغوية والسردية والتخيلية للنص الذاتى، ما فرض علينا الاعتماد الكلى على التعاون الطبيعى الذى يحدث بين جميع المناهج فى أثناء لحظة التحليل النصى. خصوصًا وأن السيرة الذاتية، كجنس أدبى، مصنوعة من كلمات وأشياء وأفكار ومنطق للسرد قوامه التأريخ للأنا، وإدراك ذلك بطريقة أدبية وفلسفية أيضًا لم يجعلنا نقوم بمهمة سالكة، لا يعوقها عائق، فى الفهم والوصف، بل كان علينا أولاً منازلة المفاهيم والمناهج الخاطئة التى وجدنا فى طريقنا فى أثناء القيام بعملية الاستيعاب الكافى للدراسات العربية والغربية، وللخطاب الأدبى العام الذى أُنتج حول النص الذاتى، كيفما كانت طبيعته وأهدافه وظروف وسياقات إنتاجه.

وإننا ندعى أننا كنا منصفين على نحو بارز، وأحطنا أسلافنا النقاد والمنظرين بالتقدير والاحترام؛ لأننا اعتبرنا هذه الأطروحة فرصة حوار أدبى ومعرفى يقوده السؤال المطروح ضد الجواب المسبق الذى نعتبره وهما من أوهام الاكتمال والاكتفاء

الذاتي. تبحث الأطروحة أيضًا حصة نصية السيرة الذاتية، بما يطرحه ذلك من أسئلة حول أدبيتها التي تختصر جوانب السرد والتخييل والعلاقة بالزمن والذات. فالنص الذاتي ليس فقط نسخة ذاتية (autoblocopie) حسب تعبير (ف. لوجون)، بل هو تحويل أدبي يعتمد على مجموعة من الأبعاد التركيبية والنحوية والدلالية. فنجد أنفسنا، داخل هذا التحويل، في قلب عدة مراجعات نقدية لمقولات الذات واللغة والحقيقة. فبعد قرن من طروحات فرويد (Freud) نكون وجهًا لوجه أمام التشكيك في الطفولة والوعي. وبعد التقدم الكبير في علم اللغة واللسانيات لا يمكننا إلا التعامل بطريقة مزدوجة مع أي نص: طريقة حرفية، وعند ذلك لا تبقى للنص الذاتي حاجة إلى صاحبه، وطريقة بلاغية (مجازية) وعند ذاك لا بد من إثبات الترابط بين هذا النص وصاحبه، بين الملفوظ واللافظ.

أراد العديد من النقاد والقراء مَن كتب سيرته الذاتية ألا ينسى، وأن يقول الصدق، وهو التزام لا يستطيع كاتب النص الذاتي أن يفي به، ليس لأنه لا يريد، بل لأنه لا يستطيع. وهنا يقترب جنس السيرة الذاتية من الأجناس الأدبية الأخرى التي كرستها نظرية الأدب باعتبارها خطابات تقيم جسر الهوى بين الكائن والممكن، بين الواقع والخيال، بين الأشياء وظلالها، بين الصدق والكذب، بين الامتلاء والفراغ. فتكون كل مقاربة للسيرة الذاتية بمثابة زيارة لأروقة كتابة تتشكل فيها الهُويَّة الفردية بموازاة مع الهُويَّة النصية، وتأخذ هذه المقاربة القارئ في رحلة شيقة إلى تاريخ الـ "أنا" التي لاتتعب من التشكل، وسيكون هذا مآل أي مقاربة مهما كانت كلاسيكية، وكأن كاتب سيرته الذاتية يريد أن يثبت أن حياته شيئًا آخر غير الذي عاشه، وذلك بمجرد أن ينقل وقائعها إلى الكتابة، وبإمكان ذلك أن ينهي أوهامنا حول "الحقيقة" و"الواقع" في أثناء معالجة السيرة الذاتية، التي نعتبرها تقترن أكثر من أي نص أدبي، بالتصدعات الآتية: البياضات، النسيان، الخطاب النرجسي، المستويات الحرفية والبلاغية، هيمنة الذاكرة الحالمة ... إلخ.

تنقسم الأطروحة إلى فصول تثبت نصية السيرة الذاتية وتدافع عنها، فى مؤاخاة بين النص ومكوناته الكبرى والصغرى، إذ إن هذه المكونات هى العوامل المضمرة التى بواسطتها تمارس الذات أنشطتها، أولاً كذات عاشت، وثانيًا كذات كتبت، وذلك يستحضر الذات القارئة باعتبارها عنصرًا مضمنًا ومرجعيًا، فهى الذات التى يؤلف من أجلها الكاتب سيرته الذاتية، فتدخل معه، لعبة التخييل والنظر إلى الزمان والمكان والأشياء، والربط بين المعانى والدلالات. وقد نبهت بعض نظريات القارئ والنص إلى الجدلية التى تربط بين هذين المكونين؛ ولأننا نعتبر أن السيرة الذاتية ليست من المسلمات كانت هذه الأطروحة التى سلطت الضوء على وجوه أساسية من هذا النص.

يلمس المتأمل فى عطاءات المنظرين والنقاد الذين ارتبطت أسماؤهم بالكتابات الذاتية عمومًا، والسيرة الذاتية خصوصًا، أن هذا النوع من الكتابة أصبح مختبرًا لكل أسئلة الأدب. فما هذه الأسئلة؟ إن الجواب عن هذا السؤال بسيط فى الحقيقة، فكل شيء فى النص السير ذاتى قابل لأن ينظر إليه بوصفه سؤالاً، بدءًا من المكونات المباشرة مثل : اللغة، وترتيب السرد، والزمن، واستعمال الضمائر النحوية، إلى المكونات غير المباشرة التى تنتجها المكونات الأولى من منظور افتراضى، مثل: الدلالة، وقضايا الذات التى تتطلب، فى جنس السيرة الذاتية، سلسلة من الأساليب التأملية، إضافة إلى مرجعية السيرة الذاتية، أو عدم مرجعيتها، والقضية الأدبية الكبرى التى اعتبرناها فى هذه الأطروحة قضية مفصلية، تولدت عنها قضايا عديدة تجاوزت الحاجز الذى كان يفصل السيرة الذاتية عن نصيتها.

عالجنا على هدى من هذه الأسئلة فى القسم النظرى مسألة تحديد السيرة الذاتية، مفترضين أن معضلة كل جنس أدبى هى معضلة التحديد، فكانت البداية مع (فيليب لوجون) (ph.Lejeune) الذى اعتبرناه أهم من وضع تحديداً نظريًا للسيرة الذاتية، وقد نظرنا إلى هذه القضية بطريقة منهجية تولدت عنها عدة منظورات مكنتها

من الإحاطة بالقضية إحاطة علمية قوامها الوصف والتأويل، قبل أن نتبنى التعامل مع السيرة الذاتية تعاملاً مقعَّدًا داخل إطارٍ نظرى واضحٍ ومفهوم.

يضعنا تحديد السيرة الذاتية فى قلب مقولة الجنس الأدبى، المبحث الأساسى ضمن مباحث نظرية الأدب، فعرضنا هذه المقولة انطلاقًا من اسم الجنس الذى ندرسه، وانطلاقًا أيضًا من خصائصه ومكوناته البنيوية. مع الإقرار بصعوبة الدارس الذى يروم حصر المميزات والسمات البنيوية لجنس أدبى معين؛ فأثبتنا أن السيرة الذاتية، مثلها مثل جميع الأجناس، خرجت من الكتابة إلى النوع. فأصبحت لها وظيفة نصية ومنزلة جنسية، وثوابت نوعية. وهذا يفرض وعيًا أجناسيًا ، وأفق انتظار مميزًا، ومجموعة من المواثيق والقواعد التى توجه فهم المتلقى.

درسنا أيضًا مسألة السرد فى السيرة الذاتية، معتبرين أن مكوِّن السرد (Le récit) مكونٌ يتضمن الخطاب (Le Discourse)، وقد وجدنا أن العديد من السير الذاتية – رغم علاقتها المتميزة بذات مؤلفيها وبمراحل حياتهم – هى أيضًا خطابات، وهذه هى الحال بالنسبة إلى :"التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" لابن خلدون، و"المنقذ من الضلال" للغزالى، و"حى بن يقظان" لابن طفيل، ومدارات حزينة (Tristes tropiques) لكلود ليفى شتراوس، و"الاعترافات" (Les confessions) للقديس (أوغسطيس) ....إلخ، إذ يمكن للسيرة الذاتية، كيفما كان خطابها، أن تكشف عما أسماه (ج. كوسدورف) "G.Gusdorf" "الكون العقلى" أو "الفضاء العقلى" لحضارة معينة، عن طريق تناول امتداد حياة بكاملها فى حكى استعادى.

ولأن الضمائر النحوية من المكونات الحاسمة فى تلقى السيرة الذاتية وفى استهلاكها الأدبى، فقد أفردنا فصلاً خاصًا لمعالجة هذه القضية الحاسمة، التى احتكم إليها العديد من النقاد والدارسين، باعتبارها معطى بنائيًا، للنظر فى الانتماء النوعى للعديد من السير الذاتية. فالضمير له علاقة قوية بهُويَّة النص النوعية. وبناءً على مسألة الضمير هناك من شكك فى الانتماء النوعى لبعض السير الذاتية، من

خلال فهم خاص لقضايا التطابق (L'identité) التى ينص عليها عقد السيرة الذاتية. وحسب هذا الفهم فإن ضمير المتكلم "أنا" هو الذى ضمن الطابع السير ذاتى لنص معين. وهذا يتطلب مراجعةً كليةً وحذراً منهجيّا، فقد أثبتنا وجود محكيات ذاتية بضمير الغائب والمخاطب وبالنيابة، ودرسنا علاقة مسألة الضمير بالتخييل.

وتناولنا فى فصل "من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتى" جسر الهوى الذى يربط بين السيرة الذاتية والتخييل الذاتى (L'autofiction)، وهذه واحدة من أهم حقائق النص الذاتى .

تقدم السيرة الذاتية حالة فردية، عن طريق تأريخ مميز للذات، وعن طريق عقد صلة معينة مع قارئها، فـ "صدقها" و"أصالتها" و"حقيقتها" لا تتأتى أبداً من تشابهها مع العالم الواقعى للقارئ أو تطابقها معه، إن كينونة النص السير ذاتى تتأتى من كونه تخييلاً ذاتيّا مصنوعًا من كلمات، ومن تنظيم الفضاء، والزمن، ومستوى الحقيقة التى تكونه. وهذا هو ما أطلقنا عليه "عهد السيرة الذاتية الجديد"، الذى تشكلت فيه بوادر جنس أدبى جديد، إلى درجة أن مصطلح "التخييل الذاتى" أصبح منافسًا للمصطلح الأم "سيرة ذاتية".

وساهم هذا التطور فى شعرية السيرة الذاتية، التى لم ترتبط كلاسيكيّا بالتقعيد النظرى كما حدث فى الرواية، فى تبلور نوع من الشكوك والتحفظات، فبرز نوع من الأيديولوجيا المضادة لهذا الجنس الأدبى؛ فدرسنا بعض أشكال سوء الفهم التى كانت السيرة الذاتية عرضة لها وخصصنا لذلك فصلا بعنوان "الأيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية"، من نتائجها أنه من الطبيعى أن تحوم الشكوك حول السيرة الذاتية فى غياب أى وعى سليم بنهضة القيمة التعبيرية للفرد وتجدد نشاط الـ "أنا".

ولخصنا تلك الاعتراضات إلى نوعين: نوع فكرى أيديولوجى، وآخر جمالى، وأبرزنا مواقف بعض الكتاب الذين كانوا يتذمرون من قول: "أنا"، واعتبروها أنانية صارخة، وانطوائية مرضية، وهناك من ذهب بعيداً واعتبر السيرة الذاتية تفتقر

الخيال. وقد انتقدنا بشدة هذه الأيديولوجيا الكلاسيكية، معتبرين أن الملفوظ الصادر عن الـ"أنا" ليس بالضرورة ملفوظًا انطوائيًا، أو مفتقراً إلى تخييل.

أسعفتنا هذه الطروحات النظرية فى مقاربة السيرة الذاتية لابن خلدون "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقًا"، وقد اعتمدنا على الطبعة الصادرة حديثًا تحت عنوان "رحلة ابن خلدون"، فصدَّرنا الأقسام والمحاور التطبيقية بفصل مطول تناول السيرة الذاتية قبل ابن خلدون، فجردنا بعض الكتابات عند القدماء الذين كتبوا عن ذاتهم دون أن يصنفوا ما كتبوه ضمن نوع مخصص، حيث ظل مصطلح "السيرة" يقتصر، طيلة عصوره، على بيان حياة الرسول، وتتبعنا تطور هذا المصطلح حتى أصبح يستعمل بمعنى حياة الشخص بصفة عامة، وكان هذا الفصل رحلةً معرفيةً داخل طبقة من النصوص الذاتية، سواء القائمة الذات، أو المبثوثة فى ثنايا الكتب والمتون والتآليف، فوجدنا من الضرورى طرح السؤال: لماذا كتب ابن خلدون سيرته الذاتية فى مناخ معرفى وعقلى يدين تعبيرات الذات إدانة دينية واجتماعية؟ وهو سؤال يتفرع إلى سؤالين: هل "التعريف..." سيرة ذاتية؟ لماذا يلجأ كاتب معين إلى الكتابة عن حياته؟ والإجابة عن السؤالين هى الامتداد الذى قمنا فيه بتحليل المكونات الأدبية الجوهرية فى هذه السيرة الفريدة فى الثقافة العربية.

القسم الأول

قضايا تحديد جنس السيرة الذاتية

الفصل الأول

تحديد بين الممكن والمستحيل

١- هل يمكن تحديد السيرة الذاتية ؟

يمثل هذا السؤال الذى طرحه (فيليب لوجون) فى كتابه "ميثاق السيرة الذاتية"[١]، بعداً من الأبعاد النظرية التى طرحها ويطرحها جنس السيرة الذاتية، وقد كان سؤالاً محيراً بالنسبة لـ (فيليب لوجون) نفسه، الذى يعتبر أهم من وضع أدق تعريف لهذا الجنس الأدبى.

يرى (لوجون)، بموجب هذا التعريف، أن السيرة الذاتية "حكى استعادى نثرى يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[٢]، وهذا التحديد يشبه فى صياغته التعريف المعجمى القائل بأن السيرة الذاتية هى "حياة فرد يحكيها بنفسه"، لولا أن (لوجون) أضاف له بعض المحسنات: "حكى استعادى نثرى"، و"شخص واقعى"، وهذا ما يؤكده فى كتابه "أنا أيضاً"[٣].

وهذا التعريف المعجمى يطابق كليّاً التعريف البسيط الذى وضعه ستاروبنسكى: "هى سيرة شخص يرويها بنفسه"[٤]. غير أن (لوجون) كان يعى نسبية هذا التعريف معتبراً أن "النجاح فى إعطاء صيغة واضحة وكلية للسيرة الذاتية سيكون فى الحقيقة

---

(١) Ph. Lejeune, Le pacte autobiographique, coll. Poétique, Editions du seuil, Paris 1975, p.13 .

(٢) Ibid. p. 14.

(٣) Ph. Lejeune, Moi aussi. Coll. Poétique, Éditions du seuil, paris, 1986, p.14-15..

(٤) J. Starobinsky, la relation critique, l' il vivant II, Paris, Gallimard, 1970, p. 83.

فشلاً"[١]، فهى لا تتحدد إلا فى مستوى شمولى: "إنها صيغة قراءة بمقدار ما هى نمط كتابة، إنها أثر تعاقدى متغير تاريخيّا"[٢]؛ ليستخلص أن دراسته تتوقف على أنماط التعاقد الرائجة، ومن هنا نسبيتها، والسخف الذى يستنتج عن إرادة جعلها دراسة شمولية ومطلقة.

وعاد (لوجون) فى كتابه "أنا أيضًا" ليعتبر تعريفه نقطة انطلاق للقيام "بإعادة بناء تحليلية للعناصر التى تتدخل فى إدراك هذا النوع" [٣]، مشيرًا إلى "الطبيعة الدوغمائية للتعريف". ومنبهًا إلى خطر تحول هذا الأخير إلى سلطة تعرقل التأمل فى النوع والتفكير فيه[٤].

يعتبر الخوض فى مسألة التعريف أولوية نقدية ونظرية مهمّة لعدة أسباب. منها : أولاً – أن كل من يهتم بنوع أدبى ما محكوم عليه بالاصطدام بمشكل التعريف. وثانيًا – لكون "الكثير من الكتابات العربية قد غيبت مسألة وضع حد السيرة الذاتية؛ لأن المرحلة النقدية التى أنتجت فيها تلك الكتابات واللحظة النظرية التى عبرت عنها لم تكن لحظة وعى تسمح بصياغة رؤية نصية ونوعية تؤسس لخطاب نظرى متماسك"[٥] رغم أن جُلّ هذه الدراسات[٦] اعتمدت تعريف الناقد الفرنسى

---

(١) Ibid. p. 45.
(٢) Ibid. p. 45.
(٣) Ibid. p. 45.
(٤) Ibid. p. 45.
(٥) عمر حلى، البوح والكتابة، دراسة فى السيرة الذاتية فى الأدب العربى، مجموعة البحث الأكاديمى فى الأدب الشخصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية –أكادير، ١٩٩٨، ص . ١٣ الطبعة الثالثة.
(٦) نقصد بهذه الأعمال كتاب" فن السيرة الذاتية" لـ(إحسان عباس) – دار الثقافة، بيروت ١٩٥٦– وكتاب شوقى ضيف "الترجمة الشخصية"، دارالمعارف، القاهرة ١٩٧٠ (الطبعة الثانية)، وكتاب إبراهيم عبدالدايم "الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث"، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٧٤ وكتاب لـ(مصطفى نبيل) "سير ذاتية" عربية دار الهلال، القاهرة مارس ١٩٩٢، وكتاب لـ(عبد العزيز شرف) "أدب السيرة الذاتية" الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٢.

(فيليب لوجون) (Ph. Lejeune). كما ورد فى عمله التأسيسى "ميثاق السيرة الذاتية" (le pacte Autobiographique).

ويمكن للباحث، من جهة أخرى، ملاحظة أن "مختلف التعريفات التى أسندت للسيرة الذاتية، إنما كانت لتلبية ضرورات منهجية، تسعف الباحث على تحديد زوايا ومناطق بحثه، أكثر مما تمكنه من صياغة تعريف معيارى يصير قاعدة لتناول السيرة الذاتية"(١).

ويضاف إلى هذه الصعوبات، صعوبة وضع اليد على مصدر أصلى قد يشكل بداية منطقية لنوع السيرة الذاتية؛ فـ (ميخائيل باختين) يرجع أصوله البعيدة إلى العصور القديمة التى لم تنتج رواية بيوغرافية ولا أعمالا سيرية كبرى تستحق هذا الاسم، حسب مصطلحاتنا وتصنيفاتنا النقدية الحديثة، لكنها مع ذلك، "بلورت مجموعة من الأشكال السيرذاتية والسيرية المشهورة، مارست تأثيراً هائلاً ليس فقط على تطور السيرة والسيرة الذاتية الأوربيتين، بل وكذلك على الرواية الأوربية كلها، وهذه الأشكال القديمة تأسست على نوع جديد من الزمن السيرى، وعلى صورة جديدة خاصة للإنسان فى مجرى حياته (٢) ".

ويؤكد باختين، عندما يبحث عن الأصول الأولى للسيرة الذاتية، بقوله: "نلاحظ أن اليونان الكلاسيكية عرفت نوعين رئيسيين من أنواع السيرة الذاتية. نسمى الأول نوعاً تعاقدياً هو النوع الأفلاطونى؛ لأنه وجد تعبيره الأوضح والبدائى فى مؤلفات (أفلاطون) مثل "الدفاع عن سقراط" (L'apologie de Socrate) و"فيدون" (Phédon)، وهذا النوع من الوعى السير ذاتى بالإنسان مرتبط بالأشكال المحددة للتشوه الميتافيزيقى، يجد سنده فى الكرونوتوب الآت: "حياة الباحث عن المعرفة الحقيقية"(٣).

---

(١) عبدالقادر الشاوى، الكتابة والوجود، السيرة الذاتية فى المغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ٢٠٠٠ ص. ١٥.

(٢) Mikhaîl Bakhtine, Esthétique et théorie du roman, Ed. Gallimard Paris 1978, p. 278.

(٣) Ibid. p. 279.

أما النوع السير ذاتي اليوناني الثاني فهو "السيرة والسيرة الذاتية البلاغية"، وهذا النوع يجد أساسه في "الأنكوميون" (l'enkomion) [1]، قد لاحظ (باختين) أن شكل "الأنكوميون" قد حدد أول سيرة ذاتية قديمة :"مرافعة إزوقراط".

٢- هل هي جنس أدبي ؟

يطرح (جورج ماي) في الصفحات الأخيرة من كتابه "السيرة الذاتية"[2] (Autobiographie)، سؤالاً دالاً: هل السيرة الذاتية على وشك أن تصبح جنسًا أدبيًا[3] ؟ ، وإذا ما تم النظر إلى السؤال من الزاوية المنهجية؛ فإننا سنقوم بتأويله على الصيغ الآتية: ما السيرة الذاتية ؟ ما الخصائص التي يمكن أن تميزها كجنس أدبي قائم الذات؟ ما الحدود التي تختلف فيها عن باقي الأجناس الأدبية القريبة منها؟[4]

وقد خاض (جورج ماي) تجربة وضع تعريف للسيرة الذاتية انطلاقًا من متن مكون من مائة نص سير ذاتي[5]، واعتبر في الأخير أنه يعسر الظفر بحد جامع مانع لهذا الجنس، ومأتى هذه الصعوبة أن هذا الجنس حديث، بل لعله أحدث الأجناس على الإطلاق، فهو من الحداثة بحيث لا يمكن أن نعتبره جنسًا أدبيًا بحق، ذلك أن الجنس

---

(١) Ibid. p. 279.

(٢) Georges May, L'autobiographie, P.U.F. Paris. 1984.

(٣) Ibid. P. 206

(٤) عبدالقادر الشاوي الكتابة والوجود، السيرة الذاتية في المغرب، (ص٣٢.) يشار أنه في نهاية كتابه "السيرة الذاتية" تحدث (جورج ماي) عما أسماه بـ"استعارة" السيرة الذاتية من الأجناس الأدبية الأخرى كالمذكرات والاعترافات و رواية الطفولة. و اعتبر أن مصطلح "الاستعارة" مزعج في هذا السياق؛ لأنه ينطوي على فكرة تسديد ممكن لهذا الدين، إذ إن السيرة الذاتية الكبرى قد بلغت من العظمة حدًا أصبحت معه الأجناس الأخرى تستلهم منها.

(٥) Ibid. p. 21

حين يكون على حظ من العراقة، فإن الأمر ينتهى بقارئه إلى ألا يشغل باله بالبحث فى الأجناس التى قدمتها وأسهمت فى ظهوره ونموه، وبالتالى فإن مثل هذا التعريف تصبح الحاجة إليه أقل إلحاحًا[١]؛ لذلك أحجم عن وضع تعريف له، على الرغم من تأكيده فى الصفحات الأولى من كتابه، أنه قبل أن يعود إلى أفكار جديدة فى ماهية السيرة الذاتية، فإنه سيقترح هذا التعريف البسيط: "السيرة الذاتية هى سيرة كتبها من كان موضوعًا لها[٢]"، ونرى أن هذا التعريف يتطابق وتعريف (جان ستاروبنسكى): "السيرة الذاتية هى سيرة شخص يكتبها بنفسه"[٣]، رغم كونه هو الآخر يقر بكون مسألة تعريف السيرة الذاتية مسألة غير مثمرة تمامًا، وأن حصر شروط عامة لها لا يمنح سوى إطار فضفاض[٤]، ويلاحظ (جورج ماى)، إمعانًا فى تبيان استحالة إيجاد تعريف جامع مانع، أن السبب الحقيقى فى انشغال الدارسين بمسألة التعريف كلما تعلق الأمر بالسيرة الذاتية أكثر من انشغالهم بها فى شأن السيرة مثلاً، يكمن فى كون السيرة الذاتية باعتبارها مفهومًا حديث العهد، إذ لم يمض على وجودها قرنان كاملان، عكس "السيرة" التى اشتُق منها مفهوم "السيرة الذاتية"، ويؤكد أن للفترة التى اشتق فيها مفهوم "السيرة الذاتية" أثرًا فى إسباغ طابع من الخشونة ومن التحذلق الساذج عليها، حرمها من الاختصار الذى حظيت به ألفاظ "فوتوغرافيا" و"سينماتوغرافيا" و"ستينوغرافيا[٥].

لم ينشغل (جورج ماى) كثيراً، فى عمله التأسيسى المشار إليه، بمسألة التعريف، ولم يقع فى أى حرج نظرى إزاء الفشل فى وضع تعريف للسيرة الذاتية، إذ إنه منذ

---

(١) Ibid. p. 206-207.

(٢) Ibid. p. 16.

(٣) Jean Starobinsky, la relation critique ,l' il vivant II, op. cit. p.83.

(٤) Jean Starobinsky, Le styl de l'autobiographie, Poétique, N*13 -Paris, 1970 p. 257.

(٥) Gearges May, L'autobiographie, P.U.F, Paris. 1984. p. 16.

البداية كان يؤكد أن "المنهج السوى المتمثل فى الانطلاق من تعريفات إنما يتصل بمجال العلوم الصحيحة، وعلى وجه الخصوص بمجال الرياضيات، والأدب غير ذلك. ثم هل من المؤكد أن الإجماع حاصل فى تعريف الهجاء أو الملهاة أو حتى الشعر على سبيل المثال؟ إن فى الأمر لمجالاً للشك، ومع ذلك فإن هذا لا يحول دون الحديث فى هذه الأغراض، ولا حتى دون إجادة الحديث فيها أحياناً(١).

٣- وصف وتأويل:

ومثلما بدأ (فيليب لوجون) كتابه "ميثاق السيرة الذاتية " بالسؤال حول إمكانية تحديد السيرة الذاتية، فإن (دانييل أوستر) (Daniel Oster)، باعتباره ناقداً ارتبط اسمه بهذا الجنس الأدبى، يبدأ دراسته المهمة " السيرة الذاتية " بالسؤال الآتى: "هل يمكننا تحديد السيرة الذاتية؟ وقد جاء السؤال ضمن فقرة من الدراسة وضع لها عنوان: "ميثاق السيرة الذاتية صعوبة التعريف"(٢)، و فى ذلك لا نستطيع بذل أدنى جهد لنستخلص أن الأمر يتعلق مباشرة بـ(فيليب لوجون)، نظراً إلى كون التعريف الذى وضعه يعد المفصل الأساسى الذى تتحدث عنه مجموعة من الإضافات والمؤاخذات والانتقادات التى وجهها (لوجون) إلى نفسه فى كتابه "أنا أيضاً"(٣)، الذى يمكن اعتباره نقداً ذاتياً دعت إليه أساساً المراجعات الجوهرية التى وجهت إلى مسألة الميثاق.

لم يقترح أو يتبنَّ "أوستر" أى تعريف، وعياً منه أن مثل هذا المجهود سوف يذهب سدى، ولكنه اكتفى بوصف وتأويل عناصر مصطلح "أتوبيوغرافيا" (Autobiographie) بناء على عناصره الثلاثة التى اجتمعت فيما بينها وكونت مصطلحاً

(١) Ibid. p. 15.

(٢) Oster Daniel, Autobiographie, Encyclopédie Universalise, 1995. p. 4

(٣) Moi Aussi, op. cit.

من أهم وأخطر المصطلحات فى النظرية الحديثة من حيث التحديد النظرى، وبذلك أكد "أوستر" أن "(الذات) (Auto) هى أنا فى كل الحالات، و(الحياة)(Bio) هى حياتى كيفما كانت، و(الكتابة) (Graphie) هى أنا دائمًا، إنها يدى"(١).

٤- قُبح وشناعة:

ونعت (جورج كوسدروف) "السيرة الذاتية" بالقبح والشناعة، ورأى أن هذا المفهوم يفتقد والروح، ومجرد من التموجات التاريخية ومن السحر الشعرى، فدعا نقاد الأدب إلى نقده، فهذه "الكلمة القبيحة" فى نظر كوسدروف، لا تستحق مجهوداً تأويليًا أكبر من العناصر التى تتكون منها، فالذات (Auto) تعنى الهُويَّة، وتشير إلى الأنا الواعية بذاتها والمرتكزة على مبدأ الوجود المستقل، والحياة (Bio) تؤكد الاستمرارية الحيوية لهذه الهُويَّة وعرضها التاريخى(٢)، وتموجاتها حول الموضوع الجوهرى، وبين الذات والحياة يجرى الحوار بين الواحد والمتعدد فى قلب الوجود اليومى، حيث يتشكل الرهان الفردى، وأخيراً الكتابة (Graphie) التى تدرج الوسيلة التقنية الخاصة بكتابات الذات، فالحياة الشخصية البسيطة فى عيشها، والتى هى حياة ذات ما، تستفيد من ولادة جديدة عبر وساطة الكتابة، التى تكتفى بدور الوصف فقط، أو بكونها نسخةِ ثانية عن حقيقة معطاة، إنها ليست فقط للتوثيق، إنها عامل وعى الذات (Auto) بهويتها، ووعى الحياة (Bio) بتلاحقها التاريخى، فالحياة (Bio) تشير إلى الاتساع الكلى لحقل التجربة التى تتحدد بتوظيف الذات (L'Auto) من طرف الفردية (l'individualite) وسط شساعة

---

(١) Oster Daniel, op. cit. P.1.

= Auto - الذات. = Bio الحياة. = Graphie الكتابة (من حيث كونها رسمًا).

– أنظر، مجدى وهبة معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، ١٩٧٤ بيروت، ص. ٣٦

(٢) Georges gusdorf, Lignes de vie 2. Autobio-graphie, ed, Odile Jacob, Paris. "E" 1991, p. 9-10.

الفضاءات والأزمنة، وفى تقاطع الحياة والذات (البيوس والأوطوس) تتدخل الكتابة (Graphie) وتلعب دوراً حاسماً[١].

٥- نظرية أكثر اكتمالاً:

على الرغم من هذا المد والجزر فى تعريف جنس السيرة الذاتية والإحاطة بخصائصها النصية، يبقى (فيليب لوجون) أهم منظر لهذا الجنس الأدبى، فبفضل جهوده العلمية أصبح اليوم الحديث عن السيرة الذاتية حديثاً مقعداً داخل إطار نظرى واضح ومفهوم، أو على الأقل فى سياق ميثاق معترف به[٢]، فإن (لوجون) إضافة إلى عمق وتماسك نظريته ووضوح منهجه ومفاهيمه، تميز بغزارة نادرة فى إنتاج تأملات وتطبيقات خصت السيرة الذاتية أو بعض الأجناس القريبة منها، علاوة على الروح العلمية التى طبعت إنتاجه النظرى، والمتمثلة أساساً فى المراجعة والمساءلة الدائمتين للأفكار، والشىء الذى أثبته فى مقال له يحمل عنوان "السيرة الذاتية مرة أخرى" (autobiographie bis)[٣]، حيث يقول إن العالم الحقيقى يسعى إلى دعم أخطائه من خلال نقدها بشجاعة، من يخطئ ثم يصحح نفسه، ويخطئ وهو يصحح نفسه فيصحح نفسه مجدداً[٤].

---

(١) Ibid. p. 11.

(٢) Jean-Claude Dupas, Dire je en Angleterre au XVII siècle, Excentrations et «je» contradictions, in, Individualisme et autobiographie en occident. Editions de l'université de Bruxelles, 1983, p.115.

(٣) نشر (لوجون) المقال فى مجلة .Poétique عدد ٥٦ . نوفمبر ١٩٨٣، ص ٤١٧ - ٤٣٤ ثم أصدره فى كتابه المهم "أنا أيضاً" Moi aussi (سوى، ١٩٨٦).

(٤) Poétique, N* 56 . p. 417.

- Moi aussi, op. cit. p. 13 .

جاءت نظرية (لوجون) حول السيرة الذاتية فى النصف الثانى من القرن العشرين، فى سياق أرادت فيه الحركة النقدية أن تجرد الخطاب حول الأدب من حقائقه النفسية التى اعتبرتها خاطئة، فالبنيوية مثلاً عرفت بتحيزها للنص، فالمهم بالنسبة إلى (البنيوية) ما قاله المؤلف وليس ما أراد قوله، ومنذ الوهلة الأولى يبدو هذا المنهج الذى يؤكد تشدده فى شعار "موت المؤلف"، بعيداً عن احتمال تحيزه أو انتباهه إلى ظاهرة أجناسية مثل السيرة الذاتية، حيث المؤلف حاضر فى كل مكان، خارج وداخل الكتاب[١].

ضمن هذا المناخ تنفس (لوجون) هواءه الخاص، فالتفت إلى السيرة الذاتية ودرسها كما تدرس جميع الأجناس الأدبية، ووضع لها حداً، وحلل مكوناتها، فى إطار من المراجعة والنقد الذاتى، إن تطلب الأمر ذلك، ففى سنة (١٩٧١) وضع للسيرة الذاتية تعريفه المأثور فى كتابه "السيرة الذاتية فى فرنسا" (l'autobiographie en France) ، ثم نقحه بعد ذلك فى "ميثاق السيرة الذاتية" (Le pacte autobiographique) سنة (١٩٧٥) وأقر منذ البداية أن التعريف الذى وضعه للسيرة الذاتية لا يتعلق إلا بفترة محدودة تبدأ من سنة (١٧٧٠)، وما كتب خلالها من سير ذاتية فى الآداب الغربية، واختار من جهة أخرى النظر إلى السيرة الذاتية باعتبارها نصاً أدبياً معرضاً عن المنحيين التاريخى والنفسى فى دراستها[٢]، وأن يدرس لوجون السيرة الذاتية ويضع لها تعريفاً لم تكن مهمة سهلة، هو سليل معرفة وهوية ثقافية أوربية تكن البغض للتعبير الذاتى، والذين شرعوا فى نشر الإشاعات عن السيرة الذاتية، فى فرنسا تحديداً، كانوا يتبرمون من منافسة هذا الجنس الأدبى لما يعتبرونها أجناساً أدبية نبيلة كالرواية والشعر والمسرحية والمقالة[٣]، مثلما تنافس النقود المزيفة النقود الحقيقية، وعلى الرغم

(١) Damien Zanone, L'autobiographie, ed. Marketing. S. A, 1996, p. 8

(٢) شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى: السيرة الذاتية فى كتاب الأيام لـ (طه حسين)، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢ ص. ١٠.

(٣) Jacques Lecarme et Eliane Lecarme - Tabone, L'autobiographie, Ed. Armand, Colin, Paris. 1997, p. 9.

من ذلك كان منطق الأشياء يذهب فى اتجاه انتشار وشيوع ما يمكن تسميته بـ" أيديولوجيا السيرة الذاتية" (وهنا نتحدث عن النصوص المكتوبة بضمير المتكلم المرجعى (référentielle) ، فبدأت المقالات الذاتية تعوض الأبحاث الموضوعية، واليوميات الخاصة تعوض الأبحاث العلمية، والاعترافات تقوم مقام الروايات البروميثيوسية الكبرى (Prométheéns) [١].

ومع تجدد نشاط الـ"أنا" (le moi)، والـ"أنا" كضمير نحوى، اعتقد المناهضون للتعبير الذاتى أن الأمور تذهب من الفردانية إلى النرجسية، من الذاتانية (subjecti visme) إلى الهذيان السردى، من الحميمية إلى الاجترارية الذاتية (l'autisme) ، وحسب تعبير (موريس باريس) (Maurice Barres) فإن الإنتاج الأدبى أصبح أمام نوع من "عبادة الذات" [٢](Le culte du moi)، فمس ضمير المتكلم، الذى كان مصاباً باللعنة طيلة فترة، ميادين التلفزة، السياسة، التحليل النفسى، الأنثروبولوجيا والتاريخ، فأصبحنا أمام مجتمع يستند إلى "الإرادة فى المعرفة" (la volonté de savoir) حسب التعبير الحديث لـ (ميشيل فوكو) (Foucault Michel)، هذه الإرادة تجد جذورها فى المسيحية التى لعبت، من جهة أخرى، دوراً كبيراً فى ظهور السيرة الذاتية. فالعادة المسيحية، كما يقول (فوكو)، تقتضى أن يعترف المرء بما ارتكب من ذنب ثم يقول له القس كيف يفكر فى ذنبه، وبعد ذلك يمنحه المغفرة[٣].

كان (لوجون) أقوى وأدق منظر متعاطف مع جنس السيرة الذاتية وسط مناخ من الأيديولوجيا المضادة لهذا الجنس الأدبى، كما أن تعريفه يكاد يكون أقرب تعريف إلى الحقيقة النصية لهذا الجنس، وبالعودة إلى تعريفه نجد أن العناصر التى تكونه تحتاج

---

(١) نسبة إلى (بروميثيوس)، إله النار الذى يرمز إلى الحضارة البشرية الأولى، وهو يرمز فى استعماله الأدبى إلى الإنسان المحب للعمل والمؤمن بالإنسان.

(٢) J. Lecrame et E.L. Tabone, L'autobiographie, op. cit. p. 9.

(٣) M. Foucaults, Histoire de la sexualité, I, ed. Gallimard، 1976, p. 26 .

إلى تأمل وتفكيك حتى نتبين دقته، ومن هذه العناصر، أو الشروط، هناك مفهوم "التطابق" الذى يعتبر مفهومًا مركزيًا فى نظرية (لوجون)، لقد سبقت الإشارة إلى أن (فيليب لوجون) عرَّف السيرة الذاتية كالتالى:" حكى استعادى نثرى يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[1]، ولا يمكن لدارس السيرة الذاتية اليوم إلا أن يلاحظ أن هذا التعريف الأكثر تماسكًا من بين كل التعريفات التى وضعها نقاد آخرون، وقد اعتبر (لوجون) هذا التعريف أداة أساسية من أجل التمييز بين السيرة الذاتية عما سواها من الأنواع الذاتية القريبة منها، وخصوصًا أنواع الأدب الشخصى، كالمذكرات والسيرة ورواية السيرة الذاتية وقصيدة السيرة الذاتية واليوميات والأوتوبورتريه، فتوصل إلى صياغة مفهوم التطابق (Identité) باعتباره مفهومًا مركزيًا عند (لوجون) فى هذا التمييز: "فلكى تكون هناك سيرة ذاتية (وأدب ذاتى بصفة عامة) يجب أن يكون هناك تطابق بين المؤلف والسارد والشخصية" [2].

ويؤكد (لوجون) أن تعريفه للسيرة الذاتية يعرض إلى **أربعة أصناف مختلفة**:

١- شكل اللغة:

(أ) حكى.

(ب) نثرى.

٢- الموضوع المطروق: حياة فردية، وتاريخ شخصية معينة.

٣- وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذى يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) والسارد.

---

(١) Ph. Lejeune, Le pacte autobiographique, op.cit p. 14 .

(٢) Ibid. p. 15.

٤- وضعية السارد:

(أ) تطابق السارد والشخصية الرئيسية.

(ب) منظور استعادى للحكى.

والسيرة الذاتية كل عمل يجمع فى الوقت نفسه الشروط المشار إليها فى كل صنف من هذه الأصناف، ولا تجمع الأنواع المشابهة للسيرة الذاتية كل هذه الشروط. وهذه لائحة للشروط غير المحققة حسب الأنواع:

- المذكرات: (٢)
- السيرة: (٤ أ)
- الرواية الشخصية: (٣)
- قصيدة السيرة الذاتية: (١ب)
- اليوميات الخاصة: (٤ب)
- الرسم الذاتى (الأرتوبورتريه) أو المقالة (١ أو ٤ ب).

وحسب هذه الخطاطة الدقيقة التى وضعها (فيليب لوجون) لتمييز السيرة الذاتية عن أنواع أخرى تنتمى إلى الأدب الذاتى، يتضح ما يلى: تفتقر المذكرات إلى الصنف الخاص بالموضوع، حيث لا يكون مدارها حياة المتكلم الفرد وتاريخ شخص ما، وتفتقر السيرة إلى صنف تطابق السارد والشخصية الرئيسية، أما الرواية الشخصية فلا يتحقق فيها شرط تطابق المؤلف، الذى يحيل اسمه إلى شخصية واقعية والسارد، أما قصيدة السيرة الذاتية فليست نثراً، كما أن شرط المنظور الاستعادى للحكى لا يتحقق فى اليوميات الخاصة (journals intimes)، وفيما يخص شكل اللغة، فإن الرسم الذاتى (L'autoportait) ليس حكيًا، فى حين المقالة، مثلها مثل اليوميات الخاصة، لا تحتوى

على شرط المنظور الاستعادى للحكى[1]، ورغم أن (لوجون) صارم فى مسألة استجابة نصوص السيرة الذاتية إلى هذه المعايير الأربعة، وتأكيده على عدم وجود درجات فى تحقق هذه المعايير[2]، وأن السيرة الذاتية عنده ليست "لعبة أحجية "[3]، فإما أن تكون؛ وذلك باستجابتها لهذه الشروط، أو لا تكون؛ وذلك بخرقها لها، رغم هذه الصرامة المنهجية فهو يذهب إلى أن من بين هذه الشروط السابقة جميعها شرطين لا مناص منهما، أولهما تطابق المؤلف والسارد(٢)، وثانيهما تطابق السارد والشخصية الرئيسية(٣أ)؛ فبالتطابق تكون السيرة الذاتية، وبدونه لا تكون إطلاقًا، فيقود كل شىء إلى نتيجة سلبية [4].

وإبقاء (لوجون) على هذين الشرطين اللذين "يتعلق بهما كل شىء" فى السيرة الذاتية، راجع لكونهما شرطين يعارضان السيرة الذاتية (وباقى أشكال الأدب الذاتى فى الوقت نفسه) مع السيرة ومع الرواية الشخصية، وتساهله مع الجزء الأكبر من بعض تلك الشروط راجع بالأساس إلى كون المنظور الاستعادى للحكى (٣ب) "لا يقصى أجزاء من الأوتوبورتريه، أو يومية خاصة بالعمل المنجز أو بالحاضر الذى زامن تحريره (...). كما لا يجب أن يكون الموضوع محدداً أساساً فى الحياة الفردية وتكوّن الشخصية، غير أنه يمكن أن يشتمل، إلى جانب ذلك، على التعاقب والتاريخ الاجتماعى أو السياسى، فالأمر يتعلق هنا بمسألة تناسبية أو بالأحرى بمسألة تراتبية: إذ تقام بالطبع عدة تبادلات مع باقى أنواع الأدب الذاتى (مذكرات، يوميات، مقالة) [5].

---

(١) Ibid. p. 25.

(٢) Ibid. p. 25.

(٣) Ibid. p. 26.

(٤) Ibid. p. 15.

(٥) Ibid. p. 15.

٦- سلطة التطابق:

لقد أعطى (فيليب لوجون) سلطة كبرى لمفهوم التطابق باعتباره محدد وجود أو عدم وجود سيرة ذاتية، وهو أيضًا شكل من الأشكال المألوفة فيما أطلق عليه "رواية السيرة الذاتية"، حيث يكون السارد الشخصية الرئيسية التى تدور حولها الأحداث، غير أن مسألة التطابق لا يمكن أن نتأكد منها إلا بإشارة من المؤلف، وفى أحيان كثيرة "نجد أن تشابهًا بين الشخصية الرئيسية فى العمل الأدبى والمؤلف، لكن هذا التشابه لا يصل إلى حد التطابق"(١)، وهو ما يتحقق فى: "رواية السيرة الذاتية"؛ لأن المشابهة درجات، أما السيرة الذاتية " فليس فيها درجات، إنها كل شىء أو لا شىء"(٢)، والسيرة الذاتية إذا تحولت إلى "لعبة أحجية"، أى يكون التطابق فيها غير كامل، فإن الميثاق الذى تحدث عنه (لوجون) يغيب، وبذلك يصبح من المستحيل الحديث عن سيرة ذاتية، غير أن قانون التطابق فى نظرية (لوجون)، تخبو شعلته عندما نكون أمام سيرة ذاتية تُعلى من شأن مستويات التخييل(٣)، أو أمام سيرة ذاتية قد يسرد فيها صاحبها أو لا يسرد(٤).

ويتعثر تحقق شرط التطابق تحققًا كاملاً عندما يشرع كاتب السيرة الذاتية، عكس المألوف، فى وصف نفس لا يعرفها فعلاً، فيكون ممارسًا عملية اكتشاف لنفس كانت، نفس اجتمع فيها الماضى كله فى" أنا الحاضر"(٥) ، وذلك يعود إلى " متغيرَيْنَ فى السيرة الذاتية يمكن أن يمنعاها من تقديم صورة ثابتة لحياة الكاتب، فقد تتغير

---

(١) تهانى عبدالفتاح شاكر، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ٢٠٠٢، ص. ٢١.

(٢) Ph. Lejeune Le pacte autobiographique, Op. cit. p. 25.

(٣) وهو إشكال سنعالجه فى فصل مستقل من هذا البحث.

(٤) (ج. هيوسلفرمان)، نصيات بين الهيرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة، حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافى العربى - الدار البيضاء بيروت . ٢٠٠٢، ص. ١٥٦ .

(٥) ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ص. ٩٧.

قيمة الأحداث حين ينظر إليها استرجاعًا، وقد تكون النفس التى تصف الأحداث قد تبدلت منذ تجربة الأحداث أول مرة (...)، وبسبب ذلك تمثل السيرة الذاتية لمقومات أساسية فى السرد توحدها مع التاريخ والتخييل"[1].

ومن الناحية النظرية يكون التطابق إمكانية تطبيقية عامة، لكن هذه الإمكانية تتضاءل "إذا سلمنا بأن "أنا" الحاضر يمكن أن تختلف عن تجلياتها السابقة، وبأن للتجارب المبكرة معنى مختلفًا عن الذى كان لها حين حصلت"[2]، والنتيجة أننا سنقبل، ضمنيًا، بانقسام فى أنفسنا إلى نفس تفعل وأخرى تتأمل وتصدر الأحكام وتركب، وإن المآزق التى تنجم عن هذا الانقسام ممثلة ، غالبًا، فى أدب التخييل الذى يتضاءل فيه، كثيراً، تحقق شرط التطابق، على رغم تأكيد المؤلف على المؤشرات التى تعضد هذا التطابق.

(١) نفسه، ص. ٩٧.

(٢) نفسه، ص. ١٠٠.

الفصل الثانى

السيرة الذاتية ومقولة الجنس الأدبى

١- أقدم قضايا الشعرية :

يعد سؤال الجنس الأدبى مبحثًا أساسيًا وسؤالاً كبيرًا ضمن المباحث والأسئلة التى تطرحها نظرية الأدب عامة، بل إن الإجابة عن سؤال الجنس الأدبى تشكل مدخلاً حقيقيًا للحديث عما يسميه (بول فان تيغام) (Paul Van Tighem) علم الأجناس[١]. إننا إزاء "مشكل من أقدم مشاكل الشعرية منذ العصور القديمة إلى أيامنا، لم تكف يومًا مقولة تحديد الأجناس، ومعرفة عددها وعلاقاتها المتبادلة عن اختلاق النقاش (...)، وقبل كل شىء يجب إبعاد كل إشكال اصطناعى والتوقف عن تصنيف الأجناس انطلاقًا من أسماء الأجناس، فهناك تسميات تتمتع بشعبية كبيرة: التراجيديا، الكوميديا، السونيتة، الرثاء... إلخ وهناك أيضًا أجناس لم يطلق عليها أى اسم، كما أن هناك أجناسًا تم إدراجها خطأً تحت اسم موحد على الرغم من اختلاف خصائصها، فدراسة الأجناس يجب أن تتم انطلاقًا من الخصائص البنيوية وليس انطلاقًا من أسمائها"[٢].

غير أنه لا بد من الإقرار بصعوبة مهمة دارس يروم حصر المميزات والسمات البنيوية لجنس أدبى معين، فالجنس الأدبى "سيكون إما معيارًا وإما جوهرًا مثاليًا وإما قالبًا ذا كفاية وصفية، وإما مجرد مصطلح للتصنيف لا يطابق أى إنتاجية نصية خاصة"[٣].

إنه أيضًا بنية تتجسد متغيراتها فى الأعمال الأدبية[٤].. ومن مميزات الجنس الأدبى أيضًا، كونه يحتوى على أنساق مهيمنة تمارس تأثيرها على بقية العناصر

---

(١) René Wellek et Austin Warren, La théorie littéraire. Coll. Poétique. Ed. Seuil, 1971. p. 329.

(٢) Oswald Dsucrot et Tzvetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. ed. Seuil.1972 .p. 7.

(٣) Jean- Marie Schaeffer, Du texte au genre, in Théories des genres, ed. Seuil 1986.p. p. 179÷180.

(٤) Susan Rubin Suleiman, Le roman à thèse ou l'autorité fictive. P.U.F, 1983. p.p. 14-15.

وتضمن تلاحم بنيته، كما تؤكد على ذلك نظرية المنهج الشكلي، ولعل ذلك ما يضمن أفقًا لتحديده وتصنيف ملامحه.

تتأتى إشكالية هذا المبحث من كون أغلب نظريات الأجناس ليست حقًّا نظريات أدبية، بل نظريات في المعرفة، أي أن رهانها يتجاوز نظرية الأدب بحصر المعنى وتنفتح على نقاشات ذات طابع وجودي(١).

٢- الوظيفة النصية والمنزلة الجنسية:

لكي تكون لنص معين وظيفته الخاصة لا بد أن ينتمي إلى طبقة معينة من النصوص، انتماء الجزئي إلى الكلي، وليخرج من الكتابة إلى النوع.

وجامع النص هذا (L'architextualité) يضم "مجموع الطبقات العامة، أو الشاملة التي ينتمي إليها كل نص"(٢). ويوجد طبعًا إلى جانب هذا الانتماء الأجناسي، أنماط من الخطاب وأنواع أخرى من التلفظات(٣). وتحديد انتماء نص معين إلى هذا النوع أو ذاك يكون له معنى واحد، حتى يكون تحديد الانتماء واضحًا، وعكس ذلك، وداخل هذا المكون الأجناسي، لا بد من تأكيد أن كل نص يغير ويحول النوع الذي ينتمي إليه، فالمكون الأجناسي لنص معين لم يكن أبدًا تكرارًا بسيطًا لنموذج الجنس الذي يتشكل من طبقة من النصوص التي يندرج ضمن سلالتها(٤).

---

(١) Du texte au genre, notes sur la problématique générique. op. cit. p.179.

(٢) Gerard Genette, Introduction à l'architexte, Coll. Poétique, ed. Seuil, Paris, 1979, p. 87.

(٣) Du texte au genre, op, cit. p.196

(٤) Ibid. p. 197.

بل إن كل نص في التكون لا يشكل النموذج الأجناسي بالنسبة إليه سوى "أداة" من بين أخرى "يشتغل" عليها، وهنا تكمن الوظيفة النصية لكل نص داخل جنس معين.

ولن تكون للنص، باعتباره تعبيراً، وظيفة نصية إلا إذا أسندت إليه "منزلة جنسية"[١]، وتلقاه القارئ كفعل لغوي وحامل لخطاب[٢]، وفي هذا الإطار النظري نجد أن للسيرة الذاتية منزلة جنسية مسندة إليها، وتقوم بوظيفة معينة داخل طبقات الأجناس الأدبية، وهذه الوظيفة لا يتم الحديث عنها فرضاً وتقديراً، "بل بوصفها جنساً أدبيّاً يجمع بين عدة نصوص أدبية وغير أدبية"[٣]، تتوفر على سمات مشتركة مجردة، وعلى قوانين تجمع بين هذه السمات، وهنا لا بد من التأكيد على وجود عوائق تعترض طريق كل تصنيف أجناسي، فالباحث إذا حاول وضع نمذجة واحدة فإنها ستكون تعميمية وتخطيطية بحيث لن تقدم لنا الشيء الكثير عن الأجناس وعن خصائصها واشتغالها[٤] .

فالسؤال الرامي إلى معرفة ما الجنس الأدبي (أو ما العلاقات التي تربط بين الأجناس الأدبية) شبيه بالضرورة بسؤال: ما الأدب؟ [٥]، إن أقصى "ما يشغل النظريات الأجناسية يكمن في محاولتها تحديد مفهوم الجنس الأدبي والنظر إلى النظرية الأجناسية على أنها تتعلق بالتصنيف أساساً(...)؛ لذلك نجد أن تأملات عدد من الشعريات تقدم نفسها على أساس أنها نظريات تصنيفية "[٦] .

---

(١) Wolf Dieter Stempel, Aspects génériques de la réception, In: Théorie des genres op. cit. p.176.

(٢) Ibid. p. 176 .

(٣) Elizabeth Brousse, «l'autobiographie au cinéma». Poétique, N*56, 1983. p. 462.

(٤) Michael Glowski, les genres littéraire, in: théorie littéraire, Problèmes et Perspectives, ed. seuil. 1989. p. 82 .

(٥) Jean-Marie Schaiffer, Qu'est ce qu' un genre littéraire? ed. seuil, Paris. 1989. p. 8 .

(٦) Ibid. p.11.

٣- من الجنس إلى النص:

يقوم مفهوم النص في المعرفة الأدبية الحديثة على تجاوز مفهوم الجنس الأدبي[(١)]، وعلى الرغم من هذا التجاوز فإن النصوص لا تستطيع الحياة دون الانتساب لجنس أدبي معين، فالجنس يقلص من دور المصادفة، ويقدم لنا، بقدر كبير، قواعد تلقيه في آن معاً[(٢)]، غير أن الممارسة الأدبية الحديثة تسعى إلى تكريس منطق هذا التجاور، مع الإشارة إلى وجود من يؤكد أن المستقبل سيشهد عودة قوية لأدب الأجناس[(٣)]، وداخل هذه التنبؤات ظل تيار النص، أو تيار أدب النص، قوياً وله حضور قوي، الشيء الذي لا يعكس بالضرورة أيديولوجيا موت الجنس الأدبي، بل بالعكس دليل تشعب آخر في نظرية الأدب، ومؤشر على أن النص يبقى أحياناً مستعصياً على الانتساب النوعي، وينعكس ذلك على التسمية التي تصبح متعثرة أو متعددة[(٤)]. لكن من حسنات التسمية النوعية، أنها حين تقدم لنا انطباعاً مسبقاً عن خصائص المؤلف، وتملي، بقدر كبير، مراسيم القراءة التي ينبغي اتباعها، وحين تكون غائبة، يصبح القارئ في حيرة حتى تكشف له سمة من السمات عن النوع الذي ينتسب إليه المؤلف"[(٥)].

---

(١) Tzvetan Todorov, la notion de littérature et autres essais. ed. seuil .coll. points. 1982, p.p. 26 -31.

(٢) Théorie des genres: Aspects génériques de la réception, in Wolf Dieter Stempel ed.seuil.1986. p.p.161.178.

(٣) René Wellek et Austin Warren, La théorie littéraire. Coll. Poétique. ed. seuil, 1986, p. p.161. 178.

(٤) عبدالفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية. ترجمة، عبدالكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠١، ص. ١٢٧.

(٥) نفسه،ص، ١٢٨ ويقر كيليطو بتقريرية التسمية النوعية المفروضة، بل إنها يمكن أن تكون توهيماً، فيدعو إلى مساءلة المؤلفات المسماة تسمية "غير صالحة "ليس فقط" لأننا ننتهي باكتشاف قرابة ما بين هذه المؤلفات والنوع الذي نحن بصدده، بل نكتشف كذلك، في المؤلفات المسماة تسمية صالحة خصائص نوعية لم تكن قبل ذلك لتخطر على بالنا "(ص، ١٢٨) وقد تساءل كيليطو في دراسته حول نصوص (السيوطي) المتوفى عام ٩١١ هـ (١٥٠٥م) التي سماها مؤلفها "مقامات"، عن صحة هذه التسمية التي بدت له بدون أساس.

لكن المبالغة فى الانشغال بالأجناس يمكن أن تصبح مضيعة للوقت إن لم تكن غلطًا تاريخيًا[١]، وتيار الكتابة الحديثة فى النقد العربى يذهب إلى أن "انشغالنا اليوم بمشكلة الأجناس الأدبية فى الأدب العربى القديم قد يبدو انشغالاً بمشكلة مختلفة أو مفتعلة ونوعًا من الترف الفكرى الزائد"[٢]، فهذا الانشغال بالتفكير نيابة عن الأسلاف، خصوصًا فى ما أنتجوه من خطابات قديمة، لسنا ملزمين به اليوم، "فممارسة من هذا القبيل تفتقر السند الأبستمولوجى، والمسوغ الذرائعى، والمبرر النظرى"[٣].

على الرغم من جميع الاختراقات التى يتعرض لها الجنس الأدبى من قبل نظرية النص والكتابة، فإنه يبقى بمثابة المقتضى المؤسسى **(institutionnel)** المكره للكاتب[٤]. ويرى (ميخائيل باختين) أن "الشعرية ينبغى أن تنطلق من الجنس"[٥]؛ وبذلك يدعو إلى تقدير القيمة العظمى لمقولة الجنس الأدبى باعتباره عاملاً حاسمًا فى تقرير وجود الأدب واللغة [٦]، وقد انتقد بشدة مؤرخى الأدب الذين انصرفوا لمعالجة التيارات والمدارس الأدبية التى اعتبرها شخوصًا من الدرجة الثانية بينما الأجناس شخوص رئيسية[٧]، قياسًا على بنية الرواية، ونظرية الأجناس لا تعمل على التمييز بين النصوص المفردة فقط ولكن بين أنماط النصوص، إضافة إلى أن التعيين الأجناسى للنصوص يحدد، أيضًا خصائص النص ومقتضياته نحو القارئ ؛ وبذلك يصبح تقسيم

---

(١) T.Todorov, La notion de littérature et autres essais. op. cit. p. 27.

(٢) محمد الماكرى، السرد العرفانى، محاولة للتجنيس، ضمن كتاب "مشكلة الجنس الأدبى فى الأدب العربى القديم"، منشورات كلية الآداب منوبة – تونس ١٩٩٤ص ١٥٠

(٣) نفسه، ص. ١٥٠.

(٤) René wellek et Austin Warren, La théorie littéraire. op.cit .p.318.

(٥) Mikhaîl Bakhtine, le principe dialogigue, ed. seuil,1981. p.123.

(٦) Michail Bakhtine, Esthétique de la création verbale, ed. Gallimard.1981.p. 256.

(٧) Ibid. p.125.

الأجناس نقطة استدلال أساسية وراسخة فى التصورات الشائعة للأدب[١]، فمن مهامها تصنيف الأنماط، وتصنيف النصوص بناء على خصائصها الجوهرية، وفى النظريات الأدبية القديمة كان لنظرية الأجناس الأدبية مهام معيارية، "فالجنس لم يكن مقولة وصفية فحسب، ولكنه مقياس لتحديد ما ينبغى أو، على الأقل، ما يستحب فى نمط معين من الخطاب، وبعبارة أخرى، إن للتصنيفات مهمة رسم الحدود الدقيقة والصارمة - على نحو ما هو مفترض- بين أنماط الخطاب، من هنا يصبح لها ارتباط مباشر، إلى حد ما، بالجمالية المهيمنة فى العصر"[٢]، ومن جهة أخرى تعود إكراهات الجنس بالأساس إلى الطاقة المعيارية الكامنة فيها، وذلك من شأنه أن يحول نظرية الأجناس إلى "شفرة تقنينية" حسب عبارة (م. غلوينسكى)، فهو يرى أن هذه النزعة المعيارية ناجمة عن خصائص نسق الجنس الأدبى الذى يختلف عن النسق النحوى[٣]، فى كونه لا يحدد مقدمًا جميع الملفوظات ذات الصفة الأدبية ولا يقضى سلفًا بصحتها، "إنه يمثل مجموعة من التوجيهات الضابطة لبعض الممارسات الخاصة بتكوين النص الأدبى وتلقيه"[٤]، ومما لا شك فيه أنه مثلما نستطيع أن "نتكلم نحويًا دون أن يكون لنا وعى بقواعد النحو، أى دون صياغة تصويرية، فإننا نستطيع أيضا إخضاع خطابنا لقواعد جنس معين دون أى قصد مسبق"[٥]، لكن يبقى الوعى بالجنس الأدبى عاملاً مهمًا فى الاشتغال التاريخى للأجناس[٦].

---

(١) م. غلوينسكى، الأجناس الأدبية، ترجمة، د. محمد مشيال، مجلة "الصورة " العدد الرابع ٢٠٠٢، ص٤.

(٢) نفسه، ص. ٤.

(٣) يقارن (غلوينسكى) الأجناس الأدبية بالنحو باعتباره "مجموع العوامل المحددة لأى تواصل لغوى"، فالنحو هنا هو "مجموعة المبادئ والمؤتمرات والعادات الضابطة لميدان ما من ميادين الخطاب... وعلى هذا النحو تمثل الأجناس الأدبية نوعًا من "نحو الأدب". (نفسه ، ص. ٠٧)

(٤) نفسه، ص. ٧.

(٥) نفسه، ص. ٧.

(٦) نفسه، ص. ٧.

٤- الجنس والثوابت النوعية:

سنعتمد هنا تأملات (م. غلوينسكى) النظرية فى مقولة الجنس الأدبى نظرًا إلى كفايتها ووعيها الشامل بهذه المقولة الشائكة، "وعندما نتساءل عما يكون مجال العناصر الضرورية فى الجنس الأدبى، فإننا نغفل كل ما يتصل بتطوره التاريخى وبانتمائه إلى حضارة ما أو ثقافة وطنية متحققة (..)، إننا هنا إزاء الثوابت النوعية(١)، أعنى ما لا يخضع للتحول فى أثناء التطور التاريخى للجنس، إن الثوابت النوعية لا تتجلى حالا إذا ما تم تقدير الجنس داخل فترة زمنية طويلة وأمد بعيد"(٢)، ولا بد من الإشارة إلى أن الجنس يمتلك حقلاً هائلاً من الإمكانات المتنوعة والمتغيرة أو المتعارضة، وذلك يعنى أنه لا يتحدد بثوابته وحدها(٣)، وهذه الإمكانات تحتفظ دائمًا بضرب من العلاقة مع الثوابت دون أن تخضع للمراجعة، ومراجعة الثابت تعنى فى واقع الأمر اختفاء الجنس أو حلول جنس آخر محله، ويؤكد (غلوينسكى) أن مساحة هذه الإمكانات تتوقف على عدة عوامل، منها على نحو أساسى، طبيعة الجنس وموقعه فى سلم الأجناس، ويعنى مجموع العوامل المحددة لهُويَّته، ولكى يتطور جنس معين لا يكفى التوسيع الدائم لحقل إمكاناته، بل تغيير هذه الإمكانات أيضًا، وتخضع هذه الإمكانات إلى قانون النسبية، فما يمكن أن يغدو مكونًا ضروريًا للجنس فى ثقافة أدبية معينة، يمكن أن يؤخذ باعتباره مجرد مكون بسيط وغير حاسم فى ثقافة أخرى، إلى جانب أن عنصرًا ما قد يصبح غير ممكن فى حقبة معينة من تاريخ الجنس، أو يبدو أنه موروث أو عتيق(٤).

---

(١) أى تلك الثوابت التى ينهار الجنس وينتفى بدونها، وهى مكونات ضرورية إذا اختفت اختفى الجنس أو تحول إلى شيء آخر ذى خصائص مميزة أخرى.

(٢) نفسه، ص. ٨.

(٣) نفسه، ص. ٨.

(٤) نفسه، ص. ٩.

يعطى (غلوينسكى) كمثال على ذلك البناء المقطع للحكاية المميز لرواية القرن الثامن عشر، الذى لم يعد ممكنًا فى الرواية الواقعية للقرن التاسع عشر.

إن اشتغال الأجناس، إذن، ناتج عن تضافر العوامل الثابتة والمتغيرة، فإحداهما ضرورية لتحديد هُويَّة الجنس، والأخرى ممكنة فقط. وهذه تبرز الخاصية النسقية للجنس الأدبى. والتفريق بين هذا المستوى أو ذاك يقترن، بالطبع، بالتفريق ما بين الآنى (synchronique) والزمانى (diachronique).

٥ - الوعى الأجناسى:

كل أثر أدبى ينتمى إلى جنس معين، وبذلك فهذا الأثر يفترض أفق انتظار معينًا، أى مجموعة من المواثيق والقواعد توجه فهم المتلقى وتمكنه من تلق تقويمى[١]، وهذا النوع من التلقى يفترض وعيًا أجناسيًا، وجميع المشاركين الضمنيين فى عملية التواصل الأدبى يتوفرون على هذا الوعى، فى شكل أو فى آخر[٢]، والوعى بالجنس الأدبى يختلف من ثقافة إلى أخرى، فلكل ثقافة أجناسها الأدبية [٣]، وتضم الثقافة العربية أجناسًا أدبية غير موجودة فى ثقافات العالم الأخرى، ووجودها فرض وعيًا نظريًا وأدبيًا بها؛ فالتاريخ الثقافى يخص بعض الألفاظ والمفاهيم بميزة جليلة يجعلها تدل على أجناس أدبية، وتلك حال مفهوم "المقامة" التى اختارها "الهمدانى" فى أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى لتدل على مؤلفات نثرية وشعرية[٤]، والمعرفة بالجنس تجعل منه "فعلاً كلاميًا ممأسسًا"[٥]، وعملية مأسسة الجنس الأدبى تتم فى المدرسة والجامعة، وفى المجال النقدى؛ وبذلك تتولد لدى الكاتب مجموعة من النماذج فى الكتابة، وعند القراء تكون المأسسة مجموعة من آفاق الانتظار.

---

(١) Hans Robert jauss, Literature médiévale et théorie des genres. in, théorie des genres. collectif. ed. seuil. Points 19. p. 42.

(٢) Michel Glowinski, Les genres littéraires, in théorie littéraire. Collectif. ed. P.U.F. 1989. p. 82.

(٣) La théorie littéraire. op. cit. p. 309.

(٤) المقامات، السرد والأنساق الثقافية. م. س. ص.

(٥) Mikhaïl Bakhtine , Essais critiques, ed. seuil. coll. Points. 1981. p. 266.

و يعمل هذا الوعى من الطرفين على تحويل أول من مجال "الأدب" إلى مجال اللا أدب، فاللا أدب يحيل على ما قبل تاريخ لا نعرفه، وبذلك فالمأسسة، من هذه الناحية، تعد تحويلاً للجنس من حالة وجود ضمنى عفوى "طبيعى" إلى حالة يصبح فيها موضوعًا للإدراك، موضوعًا معرفيًا نقديًا يجتمع حوله المؤلف والمتلقى ومؤسسة الأدب عمومًا[1].

٦- الجنس باعتباره عرفًا:

تبرز الظاهرة التى تترتب عن الثوابت والمتغيرات النوعية، وعن الوعى الأجناسى، فى العرف الأدبى الذى تسعى مختلف تجلياته أن تكون مقبولة على مستويات عديدة، منها مستوى التلقى، إذ تتحول إلى "وسائل تعبير مقررة اجتماعيًا، ومن هذا المنظور يصبح الجنس عرفًا؛ أى مجموعة من العقود المميزة المبرمة بين المشاركين فى التواصل الأدبى"[2]، والجنس باعتباره عرفًا تكرسه عوامل الخطاب الأدبى، إنه موجه إلى متلقٍّ، ومؤسس لوعى يشترك فيه جميع المشاركين المفترضين فى التواصل الأدبى. وليس من الضرورى أن يشترك المرسل والمتلقى فى وعى واحد، فالتباين بين وعيهما شىء وارد فى الأنشطة المعرفية، فليس من الضرورى أن تتطابق كفاية القارئ مع كفاية المؤلف، خصوصًا إذا كان الجمهور الأدبى متنوع الثقافة، لكن عملية تمييز جنس عن آخر تستند إلى تقاليد أدبية ومعرفية معينة، وهى ما يُعرف بالعرف، الذى يمكن أن يصطدم بما أطلق عليه "غلوينسكى" "الوعى الخاطئ بالجنس"[3].

---

(١) (فرج بن رمضان)، "الأدب العربى القديم ونظرية الأجناس". دار محمد على الحامى – تونس، ٢٠٠١ص، ٤٤.

(٢) الأجناس الأدبية، ص. ٩.

(٣) نفسه، ص. ١٠.

وما ينبغى التأكيد عليه بهذا الصدد، هو أن الجنس ما إن تتحدد هُويَّته فى فضاء الأدب والمعرفة، حتى يصبح عرفًا مقررًا اجتماعيًا ومثبتًا فى التقليد، وذلك ما ينتج، طبعًا، مكانة للجنس بين باقى الأجناس.

الفصل الثالث

السيرة الذاتية نوعًا أدبيًّا

١- حدود النوع:

هل تندرج السيرة الذاتية ضمن قانون الأنواع الأدبية؟ وبتعبير أكثر وضوحاً هل تعد السيرة الذاتية نوعاً أدبياً؟ إن ما يثير هذا السؤال، ظهور نصوص السيرة الذاتية في جهات غريبة، جهات تقع، على نحو بارز، خارج الميدان الأدبي: في علم النفس، وفي الفلسفة، وفي اللاهوت، وفي السياسة، (كما في سير ديغول وأسامة بن منقذ وابن خلدون)، ومع ذلك فإن السيرة الذاتية كتابة، وعلى نحو خاص، كتابة المرء لحياته الخاصة. إذن فعملية إنتاج السيرة الذاتية تحدث عند حدود الأدب وحدود علم النفس والفلسفة، والدين، والسياسة، والموسيقى، والأنثروبولوجيا، والأدب... إلخ، وبتطابق هذه الحدود يتجلى الفضاء الذي تميزه السيرة الذاتية [١].

السيرة الذاتية جنس أدبي قائم الذات، لأن قواعد هذا النوع الذي تصنف ضمنه مجموعة من النصوص، هي قواعد كتابة حياة المرء الخاصة، وسؤال هل بوسع السيرة الذاتية أن تعتبر نوعاً أدبياً[٢]؟ له دلالة خصائص الجنس الأدبي، بل إنه يخفي وراءه أسئلة أخرى من صميم البحث عن الصيغ التي ينفرد بها هذا الجنس، ولا يمكن أن تتكرر في أجناس أدبية أخرى إلا من قبيل كون النوع أو الجنس الأدبي، (والنص أيضاً) ليس دائماً خالصاً، بل يستعير عناصر خارجية عنه[٣]، وهذا السؤال يخفي أيضاً التشكيك في الامتداد التاريخي لجنس السيرة الذاتية، وهذا التشكيك يقود بطريقة طبيعية إلى تجريد هذا الجنس من ذاكرته، وجعله يفتقر إلى أية سُنة عريقة، الأمر الذي يفترض عدم وجود تعريف دقيق يلم بخصائص النوع البنائية والثيمية،

---

(١) (ج. هيو سلفرمان) ، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية. ترجمة، حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء - بيروت ٢٠٠٢ - ص. ١٤٤.

(٢) وهو السؤال الذي طرحه نقاد آخرون مثل (جورج ماي) في الصفحات الأخيرة من كتابه السيرة الذاتية : هل السيرة الذاتية على وشك أن تصبح جنساً أدبياً؟

(٣) Le fait comparatiste, in: Précis de littérature comparée, sous la direction de Piérre Brunel-yves chevrel. ed. P.U.F.1992, p. 29.

وهناك من ذهب من الدارسين إلى عدم اعتباره جنسًا أدبيًا بحق، ذلك أن الجنس الأدبي، حين يكون على حظ من العراقة، فإن الأمر ينتهي بقارئه إلى البحث في الأجناس الأخرى التي خرج من معطفها وأسهمت في ظهوره ونموه[1]، عندئذ يبدأ في التمتع بمنزلة هامشية مقارنة مع الأنواع الأدبية المهمة ويرى (ج. هيوسلفرمان) أنه إذا كانت السيرة الذاتية نوعًا أدبيًا، فإنها تكون إلى جانب الأدب، مادام قدر كبير من السير الذاتية لم يكتبه أفراد من المؤسسة الأدبية، وإنما مؤلفون من خارجها، ويستخلص أن السير الذاتية هي نمط غير أدبي من أنماط النصية: ففضاء النوع الأدبي للسيرة الذاتية، حسب خلاصة الباحث، يتموضع بالضبط عند السطح البيني القائم بين الأدب وغير الأدب، إنه اختلاف يمكن أن يقارب فقط عند حدود الأدب وغير الأدب؛ لذلك فإن السيرة الذاتية تشكل فعالية نوع أدبي يكون مكانه هو فقط ذلك المكان الملائم الذي يفرده مؤلفه له[2].

٢- بحثًا عن شعرية جديدة:

ويزيد من هامشية السيرة الذاتية أنها "لا تمثل ممارسة ثابتة في مسار التأليف عند صاحبها، كما أنها ليست حلقة من حلقات التجربة السردية لديه، بل نصًا عرج المؤلف على كتابته بهدف تقديم خلاصة عن تجربته الحياتية ضمن إستراتيجية "بوح ختامي"، جاعلاً التجربة النصية في خدمة هذا الهدف، ومكتفيًا بالدفاع عن المحتويات

---

(١) يقف (جورج ماى) على رأس الدارسين الذين ينفون عن جنس السيرة الذاتية مسألة العراقة ويعتبره أحدث الأجناس الأدبية على الإطلاق، فينفي كونها جنسًا أدبيًا، رغم أنه يعترف بكون السيرة الذاتية قد بلغت من التطور ما بلغته الرواية، والشواهد في ذلك ارتفاع عدد السير الذاتية الصادرة، وتزايد اهتمام النقاد بها، رغم ذلك فهو يترك دون جواب مسألة تعريف السيرة الذاتية في كتابه:

–Georges-May, L' autobiographie, op. cit. p. p. 206-207.

(٢) نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، م. س، ص. ص. ١٤٤– ١٤٥.

العامة لتاريخ الذات، دون انشغال ملحوظ في النص بقضايا الكتابة في حد ذاتها، أو بالتعبير عن حساسية من حساسياتها"[١]، من هنا بقى الخطاب السير ذاتى يحتل مكانة هامشية فى الإنتاج الأدبى أو الفكرى للكاتب، بل إن بعض الباحثين الذين فضلوا إطلاق مصطلح "الناسخ" على مؤلف السيرة الذاتية[٢]، سواء كان كاتبًا فجاء خطابه السير ذاتى بمثابة تأريخ للذات وبوح ختامى، أو ليس كاتبًا مادام العديد من "محكيات الحياة" من وضع أناس ليسوا كتابًا[٣]، لكن ذلك لا يتعارض مع كون من اختار أن يروى قصة حياته على درجة من الوعى بالتضاريس النصية والكتابية لما سيقدم عليه، و يترتب عن اتخاذ إستراتيجية جمالية لهذا البوح الختامى، الذى لا تؤثر فيه إستراتيجية الذاكرة، انتماؤه إلى النوع التعاقدى، وقد يأتى الخطاب السير ذاتى صنيعًا لكاتب مهووس بالإنتاج الأدبى، واع بمخاطره وأهميته الجمالية، بل إنه قد يراهن على سيرته الذاتية في إعطاء خطابه حضورًا ومشروعية أدبية خاصة[٤]، وهذا النوع من الكتاب يقوون مسار النص السير ذاتى بسلطة الكتابة، و بذلك يصبح هذا النص التعاقدى ممارسة نصية قائمة الذات، مفتوحًا على توترات الكتابة وانفجارات اللغة والشكل، مما يجعلها قوية الانتماء إلى فضاء الأدب أو إلى الفضاء الأجناسى للأدب، ويزيد من قوة هذا الانتماء أن السيرة الذاتية تسمح بالتعبير الحر عن الذات، وما الكتابة إن لم تكن انتماء إلى فضاء الحرية، وإلى الاختيارات الحرة فى أثناء كتابة النص؟ ومثل هذه السيرة الذاتية لا علاقة لها بتلك التى أطلق عليها (فيليب لوجون) اسم **(Autobiographie transcrite)**[٥]، أى السير الذاتية التى يسجلها أصحابها صوتيًا

---

(١) عمر حلى، البوح والكتابة، دراسة فى السيرة الذاتية فى الأدب العربى، م. س، ص. ١٣٩.

(٢) Jean Starobinsky, Le style de l'autobiographie, op. cit. p. 258.

(٣) Claude, Les Recits de vie à deux Voix: un prêt-à-porter autobiographique, in, Dérives des signes, Paris, Publidix, 1988, p. 239.

(٤) كنموذج نأخذ محمد شكرى الذى ارتبط اسمه وحضوره الأدبيين بالسيرة الذاتية، له: الخبز الحافى، زمن الأخطاء، وجوه، وقد كان مرشحا لإضافة سير ذاتية أخرى تتمم الناقص فى سيرته لو أمهله الموت قليلا.

(٥) Ph. Lejeune, je est un autre, p. 230.

ثم يكلفون مؤلفين آخرين بإعادة كتابتها، وإمعانًا فى وضع طبقات للسيرة الذاتية نشير إلى دراسة "نيلى وولف" (Nelly wolf) [1]، الذى ميز بين ثلاث محكيات ذاتية: المحكيات غير الأدبية، المحكيات الأدبية لمن عاشوا حياة عادية، المحكيات الأدبية التى تروى حياة الكتاب والمؤلفين، وهذه الترددات داخل السيرة الذاتية دفعت بعض الباحثين إلى اعتبارها نوعًا "مستحيلاً" أو "نقيضًا للنوع"، و السبب الرئيسى فى ذلك يكمن فى أن السيرة الذاتية تبحث باستمرار عن شعرية جديدة [2].

٣- النوع ومهيمناته:

يمكن القول إن ما لاقته السيرة الذاتية من تشكيك وتقليل أهمية لم يلقه نوع أدبى آخر، فهناك من الباحثين من استكثر عليها حتى وجود مؤلف لها، فهذا "ر. ر. ويثناو" (R.R.Withenow) يقول: "(...) أرفض الحديث عن كاتب للسيرة الذاتية"[3]، وهذا بالضبط ما جعل السيرة الذاتية تعتبر دائمًا نمطًا لجنس أدبى يتعارض مع باقى الأجناس الأخرى، وهذا التعارض ليس عامل نبذ، بل عامل تميز وقوة وتغيير يدفع مباشرة إلى الحديث عما أسماه الشكلانى "رومان ياكبسون" (Roman Jakobson) بـ"القيمة المهيمنة" للنوع، أى عبارة عن خصائص نصية فى مقابل خصائص أو عناصر ثانوية داخل النوع نفسه، ويقود الحديث عن القيم المهيمنة داخل السيرة

---

(١) Nelly wolf, «sur trois manières de raconter sa vie», Revue des sciences, hum ai nes, Lille III, N*192, 1983-4, p.p. 109 -115.

(٢) Yves Coirault, «Autobiographie et mémoires (XVIIe - XVIIIe siècles),ou existence et naissance de l'autobiographie», Revue dhistoire littéraire de la France, N* 6, Novembre - Décembre 1975, p. 953.

(٣) R.R. Wihenow, Autobiographie et Biographie, Table Ronde» dirigée par, Charles Grivel. In: Autobiographie et biographie, Colloque de HeidelBerg, Paris Nizet, 1989, p. 221.

الذاتية إلى تبين مجموعة من العناصر النصية، مثل مظهر الزمن الذى يتخذ فى السيرة الذاتية طابعًا استعاديًا، وما يثيره هذا الطابع من قضايا تقف فى مقدمتها الحساسية التى يعالج بها، أو يؤول بها السارد حياة مضت بحساسية ووعى ينتميان إلى الحاضر، وهذه إحدى التباسات السيرة الذاتية التى لا يمكن أن تطبع جنسًا أدبيًا آخر.

ومن القضايا الاخرى المهيمنة فى السيرة الذاتية، التى هيمنت أيضًا على نظرية (فيليب لوجون) سواء فى مرحلة "ميثاق السيرة الذاتية" (Le pacte autobiographie) (١٩٧٥)، أو فى مرحلة كتاب "الأنا هو الآخر" (je et un autre) (١٩٨٠)، نجد مشكل التطابق، أى تلك الوحدة المطلقة بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية، سواء فى حالة السرد بضمير المتكلم أو بضمير الغائب. وما يتصل بذلك من قضايا علاقة الذات باللغة، وعلاقة مستوى الملفوظ الواقعى بالملفوظ التخييلى.

٤- الحرفية والاستعارية:

من القضايا والإشكاليات الخطيرة المرتبطة بالسيرة الذاتية نجد المستويات الحرفية فى علاقتها بالمستويات الاستعارية، والاستعارة بحسب المنطق الأرسطى، "هى استبدال موقف حرفى، وبهذا المعنى، فإن السيرة الذاتية هى الاستعارية نفسها، أى استبدال الحياة نفسها بكتابة عن حياة امرئ معين"[(١)]، إذن، فالسيرة الذاتية تحويل لحياة، وتأويل لها، وحتى حضور ضمير الـ"أنا" فى النص السير ذاتى، الذى يعطى جميع مظاهر التوافق والتطابق مع مؤلف النص، لم يعد يقر بانتقاء التخييل والاستعارة [(٢)].

(١) (ج. هيوسلفرمان)، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفككية، م. س. ص. ١٥٢.

(٢) نفسه، ص. ١٤٥.

تعد الحياة، أو الملفوظ الواقعي، قيمة مهيمنة داخل السيرة الذاتية، بينما سردها بوصفها فضاء خطابيّا هو البؤرة أو المغزى، وهنا نكون أمام الاستعارة، وحسب تعبير "بول دى مان"(Paul de Man) فـ "السيرة الذاتية هى نقل، ومعبر، وانتقال من ميدان التجربة الفردية إلى ميدان الكتابة، كما أنها ليست مجرد استبدال، أو تحويل، أو مغزى، أو بؤرة، أو نقل إلى جذر لساني، أو كلمة، أو عنصر فى جملة، بل إنها فى الحقيقة الاستعارة نفسها، فالنص بأسره يشكل استعارة، وهذا يعنى أنها ليست أمثولة لحياة معينة"(١).

وبالمقابل "فإن السيرة الذاتية على الرغم من أنها مفعمة بالاستعارية، إلا أنها تبقى ذات جانب حرفى أيضًا، فالسيرة الذاتية التى تفتقر إلى الجانب الحرفى ليست سيرة ذاتية، إذ لا بد أن تصف وقائع حياة الفرد كما حدثت تقريبًا، ومن دون كتابة حياة الفرد وتجربته كتابة حرفية، سيكون النص رواية ولا يكون سيرة ذاتية"(٢)؛ لذلك فالسيرة الذاتية ليست أمثولة ولا رواية، ليست مطابقة تامة للواقع، وليست تخييلاً محضًا، وحرفيتها تتمثل فى "وفائها لما هو قائم، ولما ينبغى أن يكون عليه موضوع الوصف، فالسير الذاتية لا تصف الماضى والحاضر فقط، بل المستقبل القريب أيضًا"(٣).

ولسنا هنا بصدد الفرز والتفرقة بين مكمن الواقع، ومكمن التخييل والاستعارة فى السيرة الذاتية، ليس ذلك لأن هذا الفصل صعب، بل لكونه مستحيلاً، استحالة قياس درجة المرجعى الحرفى والخيالى الاستيهامى.

(١) نفسه، ص. ١٥٢.

(٢) نفسه، ص. ١٥٣.

(٣) نفسه، ص. ١٥٣.

٥- التحويل والاستبدال:

تفتقر السيرة الذاتية إلى التوسط المطلوب فى ترجمة حياة معينة، وتفتقر إلى السمات الافتراضية المناسبة للرواية، والدمج التام بين الاستعارية والحرفية سمة من سمات السيرة الذاتية النموذجية، والقول إن النص السيرى ينبغى أن يكون إما استعاريًا أو حرفيًا، لا كليهما معًا، قول باطل، فى حين أن مقومات نوع السيرة الذاتية يعد نصًا استعاريًا وحرفيًا، الحياة حين تم استبدالها وتحويلها، والحياة نفسها كما وجدت وعيشت، من جهة أخرى، فالسيرة الذاتية هى ذلك المكان الذى تلتقى فيه استعارة الحياة بحرفيتها، إذن، فعملية "الكتابة السيرية عملية إضفاء النصية" حسب تعبير (ج. هيوسلفرمان)، ومسألة التطابق فى نهاية المطاف، من نواح معينة، هى استبدال المؤلف بالسارد الذى يتم استبداله بالشخصية الرئيسية، فكل واحد يجد امتداده فى الآخر عبر توالد نص استعارى وحرفى لا مثيل له فى الأنواع الأخرى، فشخصية عبد الرحمان بن خلدون مثلا، إذا ما قرأناه قراءة معاصرة، بقدر ما هو شخصية فى نصه السير ذاتى "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا"، هو إنسان عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى، وسيرته بديل عن شخصيته التى عاشت كل تلك التجارب فى الفكر والسياسة والقضاء والترحال.

ومن شأن تحليل هذا النص أن يفرق بين الجانب الحرفى والجانب الاستعارى التخييلى، وهما مستويان لا يتوافقان، وهذا ما يضع مسألة التطابق موضع تساؤل وتشكيك، فهل شخصية المؤلف تتطابق بشكل مطلق مع الشخصية فى النص السير ذاتى؟ ذلك أن الاستعارة لا تقوم بمهمة توفير هذا التطابق الدقيق والكامل، إن مهمتها، التحويل والاستبدال للحياة وتأويلها، وبذلك تعد نسخة أخرى، وهنا بالضبط تكمن نصية السيرة الذاتية، مادامت لا تفى الاستبدال التام للحياة.

٦- الذات والتخييل:

هناك أضواء جديدة، خصوصًا أضواء ما بعد الحداثة فى النقد،"تضع موضع تساؤل كل تفسير للحقيقة أو الذات يدعى أنه مرجعية ثابتة إلى الواقع - كل أفعال السيرة الذاتية روايات خيالية - ولكن الفكرة القائلة بوجود ذات موحدة أو مستقرة تبقى شغلاً شاغلاً للكثير من كتابات السيرة الذاتية"[١]، ذلك أن الذات فى السيرة الذاتية تنظر إلى أفعالها ووجودها بعيون الآخرين، فى عملية تكوين الهُويَّة، المتكونة بدورها فى أثناء الكتابة، "وهذا الاغتراب عن صورة الذات المفروضة تاريخيًا هو الدافع إلى الكتابة، إنه رد فعل ذات بديلة فى فعل السيرة الذاتية"[٢]، إن كاتب السيرة الذاتية يستطيع أن يكون فى الآن نفسه كاتب حياته وقارءها.

ومثلما يحدث فى الأجناس الأدبية الأخرى، فالكاتب لا يسيطر سيطرة تامة على مادة الموضوع المتشكلة أساسًا من حياته منذ الولادة وحتى لحظة الكتابة، فيكون ضمير المتكلم (إذا ما كتبت به السيرة الذاتية) تمويها لضمير الغائب، ونكون وكأننا نسمع "فيرجينيا وولف" تصف خطاب السيرة الذاتية: "بودى أن أعرف من تكون هذه الذات"، وبذلك تكون هذه الذات فاقدة كل محور لها، وغائبة أحيانًا عن النص، لتحل معها ذات أخرى، نتاج قراءة وتأويل لذات عاشت تاريخيًا. وهكذا فإن "متطلبات جنس السيرة الذاتية نفسها توضع موضع تساؤل بفعل حدود الجنس"[٣]، ومن هذه الحدود تنشأ علاقة حيوية يخلقها نصيًا ذلك الرابط بين الكاتب والنص والذات، التى هى شاغل كاتب سيرة حياته فى أثناء بحثه عن ذات تسبح بحرية، وقد وصفت "أنايس نين" ذلك قائلة: "لا أشعر أبدًا بالحيطان الأربعة حول ماهية الذات ... لا أشعر إلا

---

(١) (داينا منيستى)، " كتابة السيرة الذاتية النسائية فى مصر (عبور الفضاء بين الخاص والعام)"، مجلة "أبواب" بيروت - لبنان، عدد ٦، - خريف ١٩٩٥- ص. ١٣٨ .

(٢) نفسه، ص. ١٣٩.

(٣) نفسه، ص. ١٣٩.

بفضاء ... ما يهمنى ليس النواة/الذات، بل إمكانات هذه النواة للتعدد والتوسع بلا نهاية، انتشار النواة، طراوتها ومرونتها".

وبعكس ما يقال، فإن نقل إحساس الذات وصوتها بكل حميمية، ليس أمراً متعذراً من خلال استخدام الاستعارات، وإشاعة لغة الذات بين تعدد اللغات والأصوات فى النص، وذلك يطرح بقوة فى ما اصطلح عليه "رواية السيرة الذاتية"، أو "السيرة الذاتية الروائية"، التى يتقاطع فيها الخيال بالذاكرة، وينسجان معاً عالم النص، حيث سمات المؤلف تشبه سمات تجربة البطل أو الشخصية الرئيسية، فيمكن القول إن المؤلف يتذكر تخيليّاً وينقل خبراته إلى كتابة نصه، وهذا ما يقال عن العديد من السير الذاتية على الرغم من طابعها التعاقدى الظاهر. وبتعبير أوضح "إن تذكر الماضى وتخيل المستقبل - فى نصوص سيرية محددة - يدمجان فى النصية السيرية ما يتذكر وما يتخيل فى وصف شخصى مكتوب"(١).

ويحدث التذكر والتخيل عندما يحاول كُتَّاب السيرة الذاتية كتابة الصور الأولية لحياتهم، فلا يجدون فى الذاكرة سوى الدهاليز المظلمة، وعندما يتذكرون تقف عند حد تذكرهم "عملية إنتاج السيرة الذاتية التى تنصص الذكريات، وعند حد تخيلهم تقف عملية إنتاج السيرة الذاتية التى تنصص تصوراتهم عن أنفسهم"(٢)؛ وبذلك تحضر "الذات" ولكنها ليست ذات الكاتب التى تكتب السيرة الذاتية، إنما الذات الحاضرة سيريّاً بوصفها نصّاً مكتوباً سيرياً، "فالذكرى شخصية لأنها لا تنتمى إلى أى شخص آخر، ويمكن الاستحواذ عليها فى قراءة معينة، بيد أن قراءة كهذه مرغمة على أن تتبع الذات المنصصة، أو مرغمة، فى الأغلب، على أن تعيد كتابتها (أى تعيد تأويلها)، ومن هنا، مرة أخرى، تتخذ النصية السيرية مكانها عند نقطة التقاطع بين التذكر والتخيل، أو عند السطح البينى القائم بينهما(٣)"، وأغلب السير الذاتية التى تتكرر فيها

---

(١) (ج. هيوسلفرمان)، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، م. س. ص. ١٥٤.
(٢) نفسه، ص. ١٥٥.
(٣) نفسه، ص. ١٥٦.

"السطوح البينية" مثل: التخييل/اللا تخييل، والاستعارية/الحرفية، تقدم فقراتها إدراكًا حسيًا لمجموعة من الأحداث، أو الأفكار أو الأمكنة، أو الأشخاص المعينين، وهذا المزيج يؤدى إلى كتابة وقراءة سيرة ذاتية تقدم خبرات المؤلف كما أسستها الذاكرة والتصوير التخييلى لواقع حياته وآثامه، وقد يسرد المؤلف فى النص السيرى وقد لا يسرد؛ فالسيرة الذاتية المكان الذى "تفقد فيه الذات والموضوع منزلتيهما المستقلتين"(١)، ولعل هذا الجنس الأدبى نموذجى، من بين كل الأجناس الأدبية الأخرى فى تأمل "كيف أصبحت حياة ما كانته، وكيف أصبحت نفس ما هى عليه، فالكاتب يكتشف، عندما يراجع الماضى، أن بعض الأحداث كانت لها عواقب لم تكن متوقعة فى حينها، وأن أحداثًا أخرى لا تعطى معناها إلا حين تتأمل عند فعل الكتابة"(٢).

٧- السيرة الذاتية وأثر المرجع:

يؤدى هذا البناء القائم الذات، وهذا الأداء الأدبى وظيفة أجناسية محددة، يبعد السيرة الذاتية عن اعتبارها مجرد عنصر فى بنية أدبية رحلية أو روائية(٣)، واعتبارها فجوة أو فراغًا تطل منه حياة المؤلف أو بعض مراحل هذه الحياة، ومثل هذا الموقف

---

(١) نفسه، ص. ١٥٦.

(٢) (ولاس مارتن)، "نظريات السرد الحديثة"، ترجمة، حياة جاسم محمد،م. س. ص. ٩٧.

(٣) فى كتابه الرحلة فى الأدب العربى، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢، يعتبر شعيب حليفى سيرة ابن خلدون الذاتية "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" نصًا رحليًا تتخذ فيه السيرة الذاتية موقعًا مركزيًا.

ولا يعتبر "آلان روب – غريبى" كتابه « Le miroir qui revient » سيرة ذاتية، بل رواية فيها مجموعة من الفراغات والفجوات يطل منها رأس"آلان روب – غريبى".

انظر:

شعيب حليفى، الرحلة فى الأدب العربى، التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، م. س. ص. ٥٠.

«Alain Robe-Grillet » ,"Je n'ai jamais parlé d'autre chose que de moi «in» L'auteur et le Manuscrit,"sous la direction de Michel contat, ed. P.U.F. 1991, p. p. 37-50.

انتشر بقوة فى العقود الأخيرة التى شهدت سباقًا ساخنًا نحو إثبات أثر المرجع (effet de referant) أو الأثر السير ذاتى فى كتب التخييل، بل وحتى فى روايات القرن الثامن عشر والتاسع عشر التى كانت تكتب تحت تأثير سلطة الموضوعية والحياد والكتابة البيضاء (écriture blanche)، وهناك من انحاز بطريقته إلى السيرة الذاتية، مثل المحكمة التى أصدرت حكمًا قضائيًا فى حق "جيروم ليندن" (Jérôme Lindon) ودار النشر "مينوى"(Minuit)، بتهمة نشر نص"الهارب" (Le Déserteur)، تحت تجنيس "رواية" فى حين أن الكتاب يحكى مجموعة من التجارب السير ذاتية للمؤلف، عن ذلك الجندى الذى هرب من صفوف الجيش الفرنسى فى الجزائر، وقد أثار هذا التدخل "الأدبى" للمحكمة نقاشًا حادًا بين بعض الروائيين من تيار الرواية الجديدة، فكتب "آلان روب – غريى" و "كلود سيمون" مقالاً فى مجلة "الآداب الفرنسية" يؤكد أن فيه أن الرواية دائمًا سيرة ذاتية، فهل هذه المقولة تترك متسعًا للقول إن كل سيرة ذاتية رواية تخييلية؟

الفصل الرابع

نظام السرد فى السيرة الذاتية

١- أسلوب البناء الجمالى:

لن يأخذ منا مفهوم "الشخص الواقعى" كل الانتباه، فتحديد (فيليب لوجون) لجنس السيرة الذاتية[١]، يحتوى أيضًا على عدة مفاهيم تلعب دورًا مركزيًا فى فهم هذا الجنس الأدبى، من بين هذه المفاهيم هناك مفهوم "السرد" مادام لوجون يذكر فى تحديده للسيرة الذاتية "الحكى الاستعادى"، الذى لا يمكن بأى حال اعتباره مفهومًا حياديًا، رغم أن مجموعة من الدراسات التى تناولت "السيرة الذاتية" تغاضت عنه، ربما بسبب اهتمامها الكلى بمفاهيم أخرى مركزية، مثل الشخص الواقعى، لعبة الضمائر، مسألة التحديد نفسها، حدود الواقعى والمتخيل، الأجناس القريبة من السيرة الذاتية...إلخ.

يشير مفهوم السرد فى الاستعمال العادى إلى "كلية سردية"، شفوية أو مكتوبة، تحكى لنا بتفصيل حياة شخص معين، كما أن الحكى الاستعادى يشير إلى تلك العلاقة مع حياة ما يفترض أنها اكتملت واقعيًا[٢]، إلا أن الدرس الأدبى يفتقر إلى الدقة عندما يضع شروطًا يفترض أنها حقيقية فى مقابل روايات تخييلية بالضرورة، وحسب عبارة لـ (أندرى جيد) (André Gide) فإن كل "السرود" تخييلية مثلها مثل "الرواية"، والتمييز بين الواقعى والتخييلى لا يتم إلا على المستويين المنفرد (Monodique) والحوارى[٣].

يقدم "نص السيرة الذاتية سردًا لحياة معينة، ونصية السيرة الذاتية تؤسس ما يعرف عن تلك الحياة، والطريقة التى تعرف بها"[٤]، أى الطريقة التى تسرد بها تلك الحياة بناء على عناصر وسمات وعلامات، فتصبح (تلك الحياة) على هذا النحو موضع تساؤل.

---

(١) Ph. Lejeune, Le pacte autobiographique, op. cit. p. 14.

(٢) Jacques Lecarme, Eliane Lecrame- Tabone, L' autobiographie, op. cit. p. 26.

(٣) Ibid., p. 26.

(٤) (ج. هيوسلفرمان)، نصيات، بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، م. س، ص. ١٣٩.

ويؤكد (ج. هيوسلفرمان) أن الذات فى السيرة الذاتية تكتب بوصفها نصّاً، فكتابة الذات "فعالية تحاول الذات من خلالها أن تصف نفسها، وهذا الوصف هو نصيتها، ووصف كهذا يقترب من القص (السرد)، على الرغم من أنه سيتضح أن الذات لا تصف نفسها تماماً، ولا تقص (تسرد) نفسها تماماً[1].

ويعتبر نظام السرد عنصراً مهمّاً فى كل نص سير ذاتى؛ لأنه، بصفة عامة، نظام حياة الفرد نفسه منذ الولادة حتى اللحظة التى يكتب فيها سيرته الذاتية، أو حسب تعبير (سلفرمان)، حتى عملية إنتاج السيرة الذاتية التى تعد كتابة للذات بوصفها نصّاً[2]، على الرغم من أن نظام السرد هذا، أو الطريقة التى رتب بها، لم يتم احترامه، ففى جُلِّ السير الذاتية القديمة لم يكتب المؤلف إلا جزءاً من حياته.

وهذا لا يعنى انعدام الكتابة حسب الترتيب الزمنى، "فمعظم السير الذاتية التقليدية كتبت حسب الترتيب الزمنى بدليل أن مختلف المشاهد الواردة فيها تتتابع فى النص حسب ترتيبها الزمنى فى الواقع"[3].

وتوجد داخل هذا الترتيب الزمنى الصارم مجموعة من البياضات، فبعض الأحداث والوقائع غائبة، وعلى الرغم من حضورها فى ذاكرة المؤلف لحظة الكتابة، فإنه يقوم بإقصائها إرادياً، مما يؤثر على سيولة السرد ومدى مطابقته للتعاقب الزمنى الواقعى، وفى هذا الإطار يؤكد "جورج ماى" أن اعتماد نظام العرض الزمنى سمة من سمات النماذج القديمة الأولى لجنس السيرة الذاتية، مثلما أصبح دافع السعى إلى تقويض الترتيب الزمنى سمة بارزة لدى الكثير من كتّاب السيرة الذاتية فى عصرنا[4].

---

(١) نفسه، ص. ١٤٠.

(٢) نفسه، ص. ١٤٠.

(٣) Georges May , l'Autobiographie, op.cit. p. 74.

(٤) Ibid. p. p. 69-70.

ولذلك تظل رغبة خرق الترتيب الزمنى بينة عند بعض القدماء، فـ"ستاندال" (Stendhal) فى كتابه "حياة هنرى برولار" (Vie de Henry brulard) يؤكد هذه الرغبة: "إن التيار يجرفنى، إنى أتيه، ولن يفقه أحد قولى إن لم أراع الترتيب الزمني". ويضيف: " إن الصعوبات الكبرى التى تعترض كتابة هذه المذكرات هى أننى لا أملك ولا أدون إلا ذكرياتى المتصلة بمرحلة من حياتى أجهد فى الإمساك بتلابيبها"(١).

ويمكن لنظام السرد فى السيرة الذاتية أن يكون أسلوبًا للبناء الجمالى(٢). ويرى "جورج ماى" أن "ميشيل ليريس" (Michel Leiris) اتبع فى سيرته الذاتية "البيان المصاحب" (Priere d'inserer') ترتيبًا غريبًا "يتمثل فى أنه يعمد إلى تأليف هذا القسم من سيرته الذاتية أو ذاك بحسب ما تثيره بعض الكلمات فى ذهنه من أصداء بفعل تجاوبها الصوتى"(٣)، وجوهر هذه الميول أنه يحسن بنا أن نتخلى عن الترتيب الزمنى لكونه ترتيبًا مضلاً(٤).

يظهر هذا الموقف أيضًا عند كتّاب السيرة الذاتية الذين أعرضوا عن الترتيب الزمنى الذى يعد تحريفًا للواقع، فالسرد السير ذاتى إذا ما التصق التصاقًا كليًا بالواقع يتفكك تفككًا يؤدى بالواقع إلى الغموض، فى حين أن الواقع لم يكن غامضًا(٥). وما إن نشرع فى نقل الواقع إلى الكتابة حتى يخضع لعمليات تحويل قصوى، وفى السيرة الذاتية يصبح من اللازم أن تتمتع الوقائع بالاستقلالية، التى ستطبع أيضًا البياضات التى تفصل بين المشاهد، والتى بدورها تكون حقيقة حياة ما(٦)، ويمكن

(١) Ibid. p. p. 70-71.

(٢) Michel Leiris, L'Age d'homme, Gallimard, Paris, 1946, p. 138.

(٣) l' autobiographie, op. cit. p. 71.

(٤) Ibid. p.72.

(٥) Ibid. p. 74.

(٦) Naom Akoum, L'autobiographie dans la littérature arabe contemporaine, Genèse et forme, Thèse de doctorat université Michel de Montaigue -BordeauxIII, 1996, p. 29.

القول إن أحد الدوافع الرئيسية التى تدفع كاتبًا ما إلى كتابة سيرته الذاتية، وضع نوع من النظام لحياته التى لم يقتنع بالنظام الواقعى الذى تحكم فيها[١]، فتكون السيرة الذاتية، باعتبارها كتابة أدبية وتخييلية أولاً، حاملة لنظام زمنى بديل، لمشروع حياة أخرى، ومهما اجتهدت فى محاكاة زمن الحياة الواقعية فهى تبقى منزاحة عنه، فنكون أمام سرد مغاير بقوانين أدبية وزمانية مغايرة[٢].

٢- الخطاب مكان السرد:

تحدد إحدى الدراسات اللسانية الكلاسيكية "الحكى التاريخى باعتباره نوعًا من التلفظ الذى يقصى كل شكل لسانى "سير ذاتى"، وتبعد السرد بضمير المتكلم عن طريق الفعل الماضى؛ "لأنه الشكل السير ذاتى بامتياز"[٣].

يقود هذا المنطق التحليلى اللسانى، الذى من توقيع "بنفينيست" (E.Benveniste)، إلى رفض طابع الحكى (le Rrcit) فى السيرة الذاتية، ويضفى عليها طابع الخطاب (Discours)، لكن خطابًا سرديًا مثل هذا يبقى مكونًا من مكونات الكلية السردية، التى نطلق عليها "حكى" بمعناه الواسع، ولا يبدو من الممكن خلط "الخطاب السير ذاتى" (discours autobiographique)، كما يفهمه "بنفينيست"، بالنوع العام للخطاب الذى يفترض عرضًا غير سردى للأفكار والعواطف والمعلومات والأوصاف[٤].

بالتأكيد، يمكن للسيرة الذاتية وللخطاب السردى أن يتضمنا بمهارة خطابًا دينيًا أو فلسفيًا أو سياسيًا[٥]، وذلك ما نجده فى "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا

---

(١) Ibid., p. 29.

(٢) Ph. Le jeume, l' Autobiographie, écriture de soit ، sincérité, Ed. natlan, Paris, 1996 p. 11.

(٣) Emile Benvéniste, Problèmes de linguistique générale, ed.Gallimard,1966, p. 239, p. 244.

(٤) Jacques Le carme et Eliane lecarme-Tabone , l' autobiographie, op. cit. p. 26.

(٥) Ibid. p. 26.

وشـرقًا" لابن خلدون، و"المنقذ من الضـلال" للغـزالى، و"حى بن يقظان" لابن طفـيل، و"الاعـتـرافـات" (Les confessions) للقـديس أوغـسـطين، و"خطـاب فى المنهـج" (Discours de la méthode) لديكارت، و"مـدارات حـزينة" (tropiques Tristes) لكلود ليفى شتراوس.

ونجد فى كل المقالات المسردنة (Narrativisés) التى تقدم وجهة نظر شخصية وبلاغة سير ذاتية (rhétorique autobiographique) أنها تقنع القارئ وتضعف طاقته على المقاومة، لكن فى كل مرة تضيع السيرة الذاتية فى الطريق الذى يؤدى إلى الحقيقة، كيفما كانت هذه الحقيقة، والحكى يلعب فى الخطاب الذى يتضمنه دور المؤشر(embrayeur)، حسب الاستعارة اللسانية[1].

٣- الذات فى ثنايا الفكر:

وللتذكير ببعض المعطيات المألوفة فى تاريخ الأدب، نعود لنؤكد أنه يمكن للدراسات الفكرية أن تتضمن سيرة حياة كاتبها، ومعلومات عديدة تتعلق بأصله أو منشأ ما أسماه (جورج كوسدروف) (Goerges Gusdorf) بـ "الكون العقلى" أو "الفضاء العقلى" لحضارة بأسرها[2]، ينطبق هذا التوجه على مجموعة من نصوص الفلاسفة المسلمين التى كانت تعتبر أنها تأملية صرفة، مثل نصوص "مسكويه" و"ابن سينا"[3]، فكتاب "تهذيب الأخلاق" لمسكويه يحتوى أيضًا على بعض المعلومات الصريحة التى لم تستغل حتى الآن من قبل كتّاب السيرة الذاتية[4].

---

(١) Ibid. p. p. 26. 27.

(٢) Georges Gusdorf, Les sciences humaines et la pensée occidental, Tome II، Les origines des sciences humaines, payot 1967.

(٣) (محمد أركون)، "نزعة الأنسنة فى الفكر العربى، جيل مسكويه والتوحيدى"، ترجمة: هاشم صالح – دار الساقى – بيروت، ١٩٩٧، ص. ١٠٨.

(٤) نفسه، ص. ١٠٨.

وبالمقابل يمكن للسيرة الذاتية أن تخبئ فى طياتها وثناياها نواة دراسية أو فكرية كما هو الأمر عند" ابن خلدون" أو "الغزالى" أو" جان بول سارتر"، ونقطة الاستدلال فى ذلك أنه حين يتم الإخلال بنظام السرد و بالترتيب الزمنى، وحين يتم تعويض المحور الدياكرونى (diaccronie) بالسانكرونى (synchronie)، فإن السيرة الذاتية تخلى المكان للصورة الذاتية (l' autoportait)(١).

هل ينبغى أن نجادل حول الطابع الاستعادى للحكى؟ إن السارد لا يستطيع القيام بشىء آخر سوى التطرق لماضيه، فهو حين يشرع فى سرد سيرته تكون اللعبة قد اكتملت "والملاذ الأخير، حين يكون كل شىء قد انتهى، هو السرد، فهناك من يحلم بسيرة ذاتية مستقبلية، وآخرون كتبوا خيالات مليئة بالاعترافات وتبين فيما بعد أنها سير ذاتية فيها حدوسات، وهناك من خطط فى حكيه لموته أو نجاته، لكن ذلك لا يمنع من كون السير إلى الوراء يبقى محدوداً فى السرعة الوحيدة التى يستعملها قائد السيرة الذاتية، والماضى، فيما يخص التاريخ، هو البعد الزمنى الوحيد للنوع"(٢). لكن يبقى أن "التذكر هو الفعل الوحيد الذى تقوم به السيرة الذاتية، وعلى الرغم من ذلك فإننا لا نتعرف على هذا الفعل إلا عن طريق عمل الكتابة التى تصبح تذكراً نشيطاً لتذكر حالم"(٣).

٤- لماذا الإخلال بالترتيب الزمنى؟

لكن إذا لم يتم تناول امتداد "حياة بكاملها" فى ذلك الحكى الاستعادى، وإذا لم يتطرق مؤلف سيرته الذاتية لبعض المراحل داخل النص، أين يمكن أن نحدد

(١) J. lecarme et E. L.tabone,l' autobiographie, op. cit. p. 27.

(٢) Ibid. p. 27.

(٣) Ibid. p. 27.

العتبة التى انطلاقًا منها لم تعد هناك سيرة ذاتية، بل مجرد مذكرات حول مرحلة محددة من الحياة؟

سنقوم بتحليل الأسباب التى تدفع المؤلف إلى الإخلال بالترتيب الزمنى فى السيرة الذاتية، للتدليل على أن نصوص هذا النوع لم تحترم أبدًا ذلك الترتيب[١]، ولم تقدم نظامًا زمنيًا وسرديًا يشاكل نظام الزمن والسرد كما عاشته الذات الكاتبة، مادامت عملية إنتاج السيرة الذاتية، حسب (ج. هيوسلفرمان)، كتابة للذات بوصفها نصًا"[٢].

من أقوى الأسباب هناك عدم كفاية الذاكرة الراجع إلى ضعفها ونزواتها، إن استرجاع ذكريات الطفولة ليس أمرًا بسيطًا، فكاتب السيرة الذاتية يجد صعوبات كبيرة فى التأريخ لذكرياته، فيوشك أن يخلط بين المراحل، كما أن النسيان يخترق الذاكرة، ومن شأن ذلك أن يضعف الترتيب الزمنى، "ولا بد من إضافة إلى هذه العناصر نزعات الذاكرة التى تدفع المؤلف إلى البحث عن البساطة، دون أن يشغله هم بناء نصه/ سيرته الذاتية حسب الترتيب الزمنى[٣]، ويبقى "المهم بالنسبة إليه التذكر"حسب تعبير (هنرى أدامز) (Henri Adams) [٤].

وإذا كانت ذكريات سن الرشد تستند إلى الحدث نفسه، فإن ذكريات الطفولة مجرد استيهامات، و(سيغموند فرويد) (S.Freud) [٥] يرى أن ذكريات الطفولة الأولى غير موجودة، وعندما قام بتحليل ذكرى مهمة جدًا عند الرسام العبقرى (ليونارد دى فينشى) (Léonard de vinci) أكد أن هذه الذكرى مجرد "استيهام" (Fantasme) من

(١) Georges May, l' autobiographie, op. cit. p. 77.

(٢) نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، م. س . ص. ١٤٠.

(٣) Georges May, L'autobiographie, op. cit. p. 77.

(٤) ذكره جورج ماى، ص. ٧٨.

(٥) l' autobiographie en France, op. cit. p. 246.

صنع (دى فينشى) الراشد وألصقه بطفولته، وفى هذا الإطار يذكر (جورج ماى) ما سجله (هنرى أدامز) فى نهاية سرده لوقائع سفره من بوسطن إلى واشنطن عندما كان فى الثانية عشر "هذا السفر كما تذكره، أما السفر الحقيقى فإنه بدون شك مختلف، غير أن السفر الحقيقى ليس له فائدة فى "تربيته" فما يهم هو التذكر(١)".

وعلى الرغم من أن مجموعة من المؤلفين يستعينون بالوثائق المساعدة للذاكرة، مثل الرسائل والمذكرات، فإن الترتيب الزمنى فى حكيهم لا يحترم دائمًا، كما أن هذه الوثائق لا تضمن فى ذاتها صدق الذكريات، بل على العكس من ذلك فهى توشك أن تهدم الذكريات الحقيقية لتضع مكانها ذكريات أخرى، ويبقى كاتب سيرته وحده من يصدقها، حيث تقنعه أكثر من الذكرى فى حد ذاتها"(٢).

يسمح جنس السيرة الذاتية، نسبيًا، ببعض التحريفات الناتجة عن ضعف الذاكرة، "فالعديد من التحريفات التى يدخلها كاتب السيرة الذاتية فى حكيه ليست إذن متعمدة، ولكنها ناتجة عن خصائص جنس السيرة الذاتية نفسه، فكاتب السيرة الذاتية عاجز عن أن يعيد بقلمه خلق واقع عفا عليه الزمن ولو كان أصدق الناس، بل حتى ولو امتلك أقوى ذاكرة فى الدنيا"(٣)، غير أنه يمكن "أن يدرج ضربًا آخر من ضروب التحريف لا يشكل شرطًا نوعيًا للسيرة الذاتية، مادام لا يظهر إلا فى بعض النصوص، ويتعلق الأمر بالسخرية أو الدعابة، وقد يلجأ إليهما كاتب السيرة الذاتية لتناول بعض الأعمال أو الأقوال أو الأفكار التى كانت له فى سالف أيامه"، وقد تنبه إلى ذلك الباحث "جان ستاروبنسكى" (Jean Starobinsky) الذى ارتبط اسمه بجنس السيرة الذاتية فى دراسته لـ "اعترافات" (جان جاك روسو) إلى "لهجتين مختلفتين"،

---

(١) Georges May, l' autobiographie, op. cit. p.77.

(٢) Naàm Akoum, L'Autobiographie dans la littérature arabe contemporaine,Genèse et forme, op. cit. p. 30.

(٣) Ibid. p. 82.

"اللهجة الشطارية" (Le ton Picaresque) التى تتمثل عند (روسو) فى الحديث عن ماضيه بتهكم وتعال وإشفاق ومرح، و «لهجة التفجع» (Le ton elegiatique) التى تبدو فيها صورة الماضى أفضل من صورة الحاضر"(١)، وغالبًا ما يسعف فى ذلك "استعمال اسم مستعار أو ضمير الغائب اللذان يضمنان هذه المسافة"(٢).

وقد ادعت "مارى بونابرت" فى سيرتها الذاتية أنها ستكتب كل ما تفكر فيه، ستكتب كل شىء بصدق ووفاء، إلا أنها اقتنعت فى النهاية باشتحالة ذلك وسمت سيرتها الذاتية" كتاب نسيان" (Livre d'oubli) (٣).

٥ - بين التخييل والسيرة الذاتية :

ومن دواعى هذه البياضات والانزياحات، أو ما أسماه (جورج ماى) التحريفات، أن جُلَّ نصوص هذا النوع الأدبى الذى ندرسه "تقع فى منتصف الطريق بين التخييل والسيرة الذاتية"(٤)، التى أثبتت، من الناحية الأدبية، أنها "تعمل فى الصمت، وعلى تفجير كلمات تخترق هذا الصمت، إنها تكشف عن شخص مازال يختبئ وراء الآخرين ووراء نفسه، فهى تنطق نفسها، وتنطق الآخرين لكى تثبت أنه ليس فى الإمكان كتابة كل شىء، وأن هناك دائمًا مناطق لما لا يُقال ولما لا يوصف، وأن فى النهاية، و بفضل

---

(١) Ibid. p. 82.

(٢) Naàm Akoum, l' autobiographie dans la littérature arabe contemporaine, Genèse et forme, op. cit. p. 31.

(٣) Sophie de Mijolia-Mellor, Survivre à son passé, in l'autobiographie VI rencontres psychanalytiques d'Aix-en-provence, ed. les belles lettres, 1987. p. 118.

(٤) Jean-francois chiantaretto, "pour une approche psychanalytique de l'autob iogaphie", revue "psychanalyse à l'université, P.U.F, tome 15, N60 octobre, 1990, p. 85.

هذا الصمت وهذه الكلمات، يأخذ وجودها ونصها شكلاً معينًا، فالصمت، إذن، يجد نفسه فى كل مستويات المشروع السير ذاتى، بصيغ متعددة"(١).

ويمكن القول إن مناطق ما لا يقال الشاسعة فى نصوص السيرة الذاتية، هى التى جعلت "أغلبية المختصين فى العلوم الإنسانية اليوم (محليين، نفسانيين، مؤرخين، باحثين، اجتماعيين) تراودهم الريبة بشكل جماعى تجاه الكتابة السيرذاتية، فهم يفضلون السيرة الذاتية الشفوية التى يثيرونها، لكونها ليست مفتعلة، وأكثر انفتاحًا أمام تدخلاتهم، وأيضًا لأن النص الذى يبنى خطابًا حول الحياة الخاصة عن طريق الكتابة مشبوه قبليًا"(٢).

وهذه الريبة شىء طبيعى ما دامت "السيرة الذاتية عبارة عن تجربة فى البحث عن الحقيقة، ومن يقوم بهذه التجربة يكون نفسه موضوعًا لهذا الرهان"(٣)، فيصبح هذا البحث ممارسة تتدخل فيها الذات، وتؤثر على حقيقتها، فتناقض هُويَّة السيرة الذاتية، التى تشترك فيها مع السيرة فى المقولة التى بموجبها تصبح "نصًا مرجعيًا، مثلها فى ذلك مثل الخطابات التاريخية والعلمية، التى تطمح إلى تقديم معطيات حول "حقيقة خارج نصية"(٤).

ولذلك ساد الاعتقاد بأن على السيرة الذاتية ألا تقدم "أثر الواقع"، بل صورة الواقع، وذلك راجع إلى ما اصطلح عليه (لوجون) "الميثاق المرجعى" **(Le pacte référentiel)**.

---

(١) Béatrice didier, les blancs de l'autobiographie, ed, seuil, p. 137.

(٢) Ph. Lejeune, Pour l' autobiographie, Paris, ed, Seuil, 1998, p. p. 23. 24.

(٣) Georges Gusdorf, Auto-bio-graphie, , ed, Odile jacob Paris, 1991, p. 394.

(٤) Ph. Lejeune , le pacte autobiogaraphique, op. cit. p. 36 .

٦ - الخيال الاسترجاعى:

ويمكن تلخيص الإشكال السير ذاتى فى الطابع المرجعى، ما دامت "السيرة الذاتية تقدم نفسها باعتبارها نصًا مطابقًا للواقع"[(١)]، لكن ذلك لا يجب أن يلغى كون السيرة الذاتية هى أيضًا "خيال استرجاعى" حسب تعبير "جورج كوسدروف"، حيث يسود "إلغاء مختلف الانحرافات والنشازات التى لا يمكن تجنبها على درب الحياة"[(٢)].

لكن عن أى حقيقة نتحدث ؟ هل عن حقيقة الماضى فى ذاته[(٣)] (Passé-en-soi)؟ أم عن حقيقة السارد الذى يمارس تخييلاً استرجاعيًا؟ أم عن حقيقة "المؤلف، الذى تبعده اللغة عن هذه الحقيقة أصلاً؟"[(٤)].

من هنا نلاحظ أن الإشكال الذى تقع فيه السيرة الذاتية يولد من العلاقة الملغزة بين الكائن ووجوده، ومن الكيفية التى عبرت بها الكتابة عنهما، فالكتابة السير ذاتية، إذن هى "تجربة فى قول الحقيقة" حسب تعبير "كوسدروف"، وهنا نتحدث عن "مسار الحقيقة الذى يوظف مفاهيم "الحقيقة" و"الذات" و"الحدث" كما حددها الفيلسوف "آلان باديو" (Alain Badiou)[(٥)]، والحقيقة نسبية، بمعنى أنها "تنتمى إلى صنف الإقرار الذى يؤكد وقوع الحدث حسب تعبير (باديو)[(٦)]، هكذا تحاول السيرة الذاتية أن تستدل

(١) Martine Houssay, Problématique identitaire et vertié singulière, Etude des trois autobiographies arabes, thèse de doctorat, université Michel de Montaigne- Bordeaux III, directeur de thèse , Abdellah Bounfour, 2001, p. 7.

(٢) G. Gusdorf , les Ecritures du moi, Ed Odile Jacobe Paris, 1991, p. 347.

(٣) Ph. Lejeune , L'autobiographie en France, op, cit. p. 229.

(٤) Martine Houssay , op. cit. p. 8.

(٥) Ibid. p. 8.

(٦) Ibid. p. 8.

على أثر الذات عن طريق الإجابة عن هذا السؤال المفاجئ : "من أكون في الحقيقة؟"، المنبثق عن "استراحة من الحياة الخاصة في الذهن والواقع"(١)، والرغبة في الكتابة عن مسار حياة معينة تفرض التفكير بطريقة مغايرة في الأحداث التي طبعتها، كما تجبر على إعادة التفكير في الوجود في الماضي، وعلى خلق لغة جديدة، وكتابة ذاتية، ووضع "رسم مادي (...) للتكملة الوقائعية"، حسب (باديو) دائمًا(٢).

فتدخل الذات في تاريخها ووجودها، باعتبارها سيرورة من البحث عن الحقيقة، مادام أنه "على امتداد الكتابة (...) يعلن محرر النص عن ذاته، خالقًا معنى لحياته بمقدار معين"(٣).

وإذا ما سلمنا، مع (فيليب لوجون)، أن كل سيرة ذاتية تعد توسيعًا لعبارة "لقد أصبحت أنا نفسي"، نستخلص أن السيرة الذاتية تمثل إشكالية الوجود والمصير، التي تطرح دائمًا بصيغ مختلفة، فنحن نطلق اسم "صيغة سير ذاتية" على كل ملفوظ يستشكل العلاقة بين الذات وحقيقة وجودها(٤)، وهذا الاستشكال، ينطلق من "خلية أصلية"، فكل "سرد ذاتي ينطلق في العموم من خلية أصلية بسيطة جدًا، أو من خطاطة تلخص المشروع"(٥).

---

(١) Georges Gusdorf, les Ecritures du moi, op. cit. p. 138.

(٢) Martine Houssay, op. cit. p. 9.

(٣) Georges Gusdorf, Auto-bio-graphie, op. cit. p.142.

(٤) Martine Houssay, op. cit. p. 9.

(٥) Ph. Lejeune, Le pacte autobiographique, op. cit. p. 241.

يؤكد (جيرار جنيت) أن نصًا مثل "الأوديسة" L'odyssée، أو "البحث عن الزمن الضائع" "à la recherche du temps perdu" هما توسيع كبير لجملة أصلية قد تكون هي "أو ليس تدخل إيثاكا" أو "أصبح مارسيل كاتبا" (انظر -

-(Gérard Genette, Figures III, ed. du seuil, 1972, p. 75 .

ويعود أصل هذه الخلية الأصلية إلى أن لكل حياة معنى، وبالتالى فالسيرة الذاتية تعمل على ترجمة هذه الحقيقة، وعلى انتشال ما يرمز إلى الحقيقة الإنسانية من "غبار الأحداث المعماة "[١]، حسب عبارة (لوجون)، وذلك ما يعنيه بالضبط مصطلح "الترجمة" الذى يطلق فى اللغة العربية على نوع "السيرة" (La biographie) والنموذج المثالى على ذلك سيرة النبى محمد (ص)[٢].

---

(١) Ph. Lejeune, Le pacte autobiographique, op. cit. p. 239.

(٢) المشهورة بـ السيرة النبوية، لمؤلفها ابن هشام (عالم من القرن التاسع).

الفصل الخامس

السيرة الذاتية والضمير النحوى

١- مكون حاسم:

من بين المكونات الحاسمة فى تلقى جنس السيرة الذاتية وفى استهلاكها الأدبى نجد مسألة الضمير، فقد احتكم العديد من النقاد والدارسين إلى هذا المعطى البنائى للنظر فى الانتماء النوعى للعديد من السير الذاتية، الشىء الذى يطرح، مجدداً، مسألة الضمير وعلاقته بهوية النص النوعية، فهناك نقاد شككوا فى الانتماء النوعى للعديد من السير الذاتية العربية بناءً على مسألة الضمير(١)، وذلك من خلال فهم خاص لقضايا التطابق التى ينص عليها عقد السيرة الذاتية، وما يثيره من حتمية تطابق المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية فيها، فالسيرة الذاتية يجب أن تتوسل بضمير المتكلم "أنا" حتى يتحقق لها شرط الانتماء للنوع، أما ضمير الغائب فلا يزيد هذا الانتماء إلا التباساً، وهذا طرح نظرى، يتطلب مراجعة شاملة وحذراً منهجيّاً؛ لأنه يولد العديد من الطروحات والمواقف، من خلالها يصبح السرد بضمير المتكلم مرتبطاً بالسيرة الذاتية وباللا تخييل، والسرد بضمير الغائب معبراً عن التخييل، فالنص يصبح وثيقة تاريخية بمجرد أن ينقل السارد حياته المعيشية بواسطة ضمير المتكلم، ومن ثم يرتبط هذا النص مباشرة بالشكل السير ذاتى.

تشير الباحثة (كات هامبرغر) (Kaïte Hamburger)، فى إطار بحثها حول السرد بضمير المتكلم، إلى أن هذا الضمير يتخذ شكلاً سير ذاتيّا يسرد أحداثاً معاشة فى ارتباط مع سارد يقول: "أنا"(٢)، وذلك إعلان عن نمط من البحث النظرى الذى يربط

(١) من بين هؤلاء النقاد نجد (يحيى إبراهيم عبدالدائم) فى كتابه "الترجمة الذاتية فى الأدب العربى" حيث يرى أن نص الأيام لـ (طه حسين) قد " أخل بشرط الترجمة الذاتية الفنية، حتى عمد إلى ضمير الغائب فى سرد سيرة حياته؛ لأنه أضفى بذلك شخصيته التاريخية، وقلل من عنصر الذاتية فى سيرة حياته، وكان يتخفى وراء "صيغة الغائب" ص. ٤٢١ وهناك أيضاً الباحث التونسى (شكرى المبخوت) الذى اعتبر أن ضمير الغائب قد جعل من انتماء نص "الأيام" لنوع السيرة الذاتية انتماء ملتبساً؛ لأن هذا الضمير له "خصائص ووظائف وآثار فى بناء الكتاب تجعل التطابق بين المؤلف والراوى والشخصية غير بديهى"، سيرة الغائب، سيرة الآتى، السيرة الذاتية فى كتاب الأيام لـ (طه حسين) ص. ٣٤.

(٢) Kaïte Hamburger, Logique des genres littéraires, traduit de l'allemand par Pierre cadiot, ed. seuil, coll. Poétique, Paris , 1986. p. 79.

ربطًا واضحًا بين ضمير المتكلم والشكل السير ذاتي، مكرسًا بذلك التعارض القائم بين ضمير المتكلم وضمير الغائب في النصوص السردية، بدأ هذا التعارض يخف في مجموعة من البحوث الأخرى، فـ "ماسيمو فوزيو" (Massimo Fusillo) مثلاً يطرح كيف أن النقد الأدبي قد بالغ في مسألة التعارض هذه، ويعتبر هذا الباحث أن التعبير بـ"ضمير المتكلم" غير دقيق، ويرجع ذلك إلى سببين:

(أ) وجود محكيات سيرية ذاتية بـ"ضمير الغائب"[1].

(ب) إمكانية تدخل السارد بضمير المتكلم في النظام المسمى بـ "ضمير الغائب" .

وهكذا، بينت المراجعة النظرية سذاجة المماثلة بين الضمير ومسألة تجنيس النصوص، وأبعدت من حقل التفكير النقدي في مجال السيرة الذاتية، خصوصًا ذلك التقنين النظري الخاضع للتعريف المغلق الذي تقوضه المسافات التي لا تتوقف النصوص الإبداعية عن إقامتها وتأسيسها، فالسيرة الذاتية الحديثة والمعاصرة مدينة بالكثير لنموذج السيرة، ودون شك للرواية أيضًا، في مظاهرهما الأكثر تقليدية وفي أبحاثهما الأكثر جدية، فالكثير من الألعاب التي يسمح بها لكتاب السيرة الذاتية المعاصرين عبارة عن صدى خجول لأبحاث الروائيين المعاصرين حول الصوت السردي والتبئير إلا أنه يعد خجلاً مبررًا: ففي التخييل لا نهاب أي شيء، نستطيع أن نكسر ونعيد تركيب الهوية، ونسمح لأنفسنا بجميع وجهات النظر، وباستعمال جميع الوسائل، أما السيرة الذاتية فتجد نفسها في مواجهة حدود وإكراهات وضع واقعي، فلا تستطيع التخلي عن وحدة أناتها، ولا الخروج من حدودها، وليس أمامها غير التظاهر بالقيام بذلك[2].

---

(١) Massimo Fusillo, Naissance du roman, coll, poétique, ed. seuil, Paris,1991, 97 p.166.

- وانظر أيضًا:
- عمر حلي، البوح والكتابة، دراسة في السيرة الذاتية في الأدب العربي، مجموعة البحث الأكاديمي في الأدب الشخصي، ط . ١- ١٩٩٨، ص. ص. ١١٣- ١١٤.

(٢) ph. Lejeune, Je est un autre ،Paris, ed. seuil. Coll. Poétique, 1980, p. p. 39 - 40.

إذن، لا بد أن يأخذ الباحث فى مجال السيرة الذاتية مسألة الذهاب والإياب هاته بين الأجناس الأدبية، وما يلى ذلك من خرق تأسس داخل النوع الواحد ويضمن استمراريته وتجدده، بعيداً عن تقديس تلك المهيمنات التى تحكم الأجناس الأدبية، فالعناصر المهيمنة داخل جنس أدبى معين فى حقبة معينة يمكن أن تتوارى لصالح قيم نصية أخرى تصبح مهيمنة، فضمير المتكلم كان عنصراً مهيمناً فى مرحلة من مراحل تاريخ السيرة الذاتية، ثم أفسح المجال بعد ذلك لهيمنة قيم أخرى كانت تحتل موقعاً ثانوياً فيما سبق[1]، ويرجع ذلك بالأساس إلى قانون التغير والتحول الذى يحكم هوية نوع أدبى ما، وفى هذا الإطار تؤكد الباحثة (إليزابيث بروس) (E.Bruss) أن "السيرة الذاتية لم توجد دائمًا باعتبارها نمطاً لحركة أدبية يتعارض مع باقى الأنماط الأخرى"[2].

إن السيرة الذاتية، داخل نسيج التواصل الأدبى، نوع أدبى مرشح للعديد من التغيرات التى يجب مراعاتها، وهذه التغيرات ستنسحب على طبيعة المميزات النصية وعلى القيمة الأدبية للنوع، فهناك من يفضل الحديث، مثلاً، عن أناس كتبوا سيرهم الذاتية ويرفض الحديث عن كاتب للسيرة الذاتية[3].

فالمبالغة إذن فى الحديث عن الضمير ومدى حسمه فى تحديد هُويّة النص النوعية هى من مبالغات النقد الأدبى، "وفيما يتعلق بالتعارض بين المحكى بضمير المتكلم والمحكى بضمير الغائب (...)، فالتعبير الشائع بـ "ضمير المتكلم " غير دقيق؛ لأن هناك، من جهة، محكيات سيرية ذاتية بضمير الغائب (...)؛ ولأن السارد يمكنه من جهة ثانية، فى النظام المسمى بـ "ضمير الغائب"، أن يتدخل بضمير المتكلم. وتفضل

---

(١) عمر حلى. مرجع سابق ص ١١٥.

(٢) E. Bruss , l' autobiographie considérée comme acte littéraire, Poétique, N*17, Paris, seuil, 1994, p. 19.

(٣) R.R. Withenow, Autobiographie et biographie, op. cit. p. 221.

السرديات أن تقيم تعارضاً بين السارد الحاضر فى القصة التى يرويها، والسارد الذى يغيب فيها[1] "، ويطلق (جيرار جينيت) على النمط الأول من السرد "مثلى القصة" (Homodiégétique)، وعلى النمط الثانى "غيرى القصة" (Hétérodiégétique) [2] .

ومن الأسئلة الأخرى التى تطرحها السيرة الذاتية فى ضوء تفكيك الضمير كعنصر تركيبى، هناك مسألة التصدع بين ضمير المتكلم الذى يسرد، والأنا المسرودة، تفرض الوضعية الزمانية على السارد أن يقدم وجهة نظر فى الماضى بحساسية تنتمى إلى الحاضر، وذلك ما جعل (كلود أبسطادو) (Claude Abastado) ينعت الأنا بالضمير الغائب المستتر[3].

وأثار (فيليب لوجون) قضية أخرى متعلقة بالضمير من زاوية المتلقى، "فضمير المتكلم، كما يستعمل فى السيرة الذاتية، يترك أحياناً هوية المخاطب غامضة، فيختلط الحوار الداخلى والتواصل الأدبى[4]"، وفى هذه الحالة يحدث أن يتماثل القارئ مع السارد، ومن منظور مفهوم "التطابق" فإن حالة من التطابقات يمكن أن تحدث، أى أن القارئ سيتماثل مع المؤلف والشخصية الرئيسية من خلال تماثله مع الضمير أو السارد.

---

(١) Massimo Fusillo, Naissance du roman, ed. Seuil, Coll. Poétique, Paris, 1991, p. 166.

(٢) G. Genette, Discours du récit in, Figures III, Paris, ed. Seuil. Coll. Poétique 1972 p. 251.

– وفى النمط ذى السارد الحاضر بصفته شخصية فى القصة التى يرويها والذى يطلق عليه (جيرار جنيت) "مثلى القصة " Homodiégétique، يميز فى داخله بين صنفين، صنف يكون فيه السارد بطل حكايته، يطلق عليه (جينيت) " ذاتى القصة " Autodiégétique, صنف يؤدى فيه السارد دوراً ثانوياً.

(٣) Claude Abastado, les récits de vies à deux voix, un prêt à porter Autobiogrophique op. Cit. p. 243 .

(٤) Je est un autre, op. cit. p. 36.

٢- مراحل النظر فى الضمير النحوى:

غير أن هذه الحالة من التماثل التى تغلف هوية القارئ بالغموض تحدث فى السيرة الذاتية المكتوبة بضمير المخاطب، حيث يكون الحضور المشترك لـ "أنا" (وهو حضور ضمنى)، ولـ"أنت "، ولـ"هو" (المختبئ وراء "أنت")، وهى ضمائر موجهة كلها للفرد نفسه[١].

وتعتبر مرحلة كتاب "الأنا هو الأخر" (je est un autre)[٢](١٩٨٠) هى المرحلة التى اهتم فيها (لوجون) بضمير الغائب، وهى المرحلة المكملة لمرحلة كتاب "ميثاق السيرة الذاتية " التى سبق أن طرح فيها عدة أفكار تمهيدية تخص مسألة الضمير، من مثل أن من بين الظواهر التى يتركها التخيل غامضة هناك حقيقة إمكانية وجود تطابق بين السارد والشخصية الرئيسية فى حالة الحكى "بضمير الغائب"، وذلك عن طريق "المعادلة المزدوجة: (١) المؤلف = السارد، (٢) المؤلف = الشخصية، لنستنتج أن السارد = الشخصية، وإن كان السارد يبقى ضمنيًا، وهذه الطريقة مشابهة حرفيًا للمعنى الأول للفظة السيرة الذاتية: سيرة مكتوبة من طرف المعنى، غير أنها مكتوبة فى شكل سيرة بسيطة"[٣].

وفى هذا السياق يدعو (لوجون) إلى ضرورة إعادة النظر فى التحديدات والتمييز بين معيارين: معيار الضمير النحوى، ومعيار تطابق الأفراد الذين تحيل عليهم مظاهر هذا الضمير، ويبين أن "هذا التمييز مهمل نظرًا لتعددية معانى لفظة "ضمير"، فهو

Ibid. p. 37.(١)

(٢) وهى المرحلة الثانية والمكملة "ميثاق السيرة الذاتية " Le Pacte autobiographique سنة (١٩٧٥) .

Ph. Lejeune , le pacte autobiographique, p.16. (٣)

مقنع فى الممارسة عن طريق الالتقاء الذى يحصل أحيانًا بين ضمير نحوى معين ونمط معين لعلاقة التطابق أو نمط من الحكى، غير أن ذلك لا يتم إلا فى أغلب الأحيان فقط، وتفرض الحالات الخاصة الأكيدة، إعادة النظر فى التحديدات"(١).

لكن كتاب "الأنا هو الآخر" تجاوز مرحلة التفكير التمهيدى فى قضية تطابق السارد والشخصية الرئيسية فى حالة الحكى بضمير الغائب، فـ(لوجون) يدعو إلى ضرورة التمييز بين ثلاثة مظاهر لهذا التطابق.

٣- مظاهر إحالات الضمير النحوى:

يحيل فيه المظهر الأول ضمير الغائب إلى مؤلف النص عبر ثلاثة طرق:

(أ) **استعمال كناية** تشير بوضوح إلى أن ضمير الغائب سيؤدى وظائف ضمير المتكلم، فيتم استعمال عبارات مثل: "إن كاتب هذه السطور" (صيغة تستخدم فى المقدمات)، أو "إن الذى يتحدث إليكم" (عبارة تستعمل فى الخطب)... إلخ.

(ب) **استعمال ضمير الغائب** من دون إحالة صريحة فيتم افتراض التطابق بين الشخصية موضوع الحديث والمؤلف، ويفهم من ذلك أن الأمر يتعلق بتلفظ مجازى.

(ج) **استعمال اسم العلم** استعمالا لا لبس فيه، فيسمح بالتطابق بين المؤلف والشخصية، لكنه يضاعف الطابع المجازى للتلفظ، وهناك وجوه كثيرة لحضور اسم العلم فى السيرة الذاتية، فهناك من يستعمل الاسم الشخصى وحده، أو الاسم الشخصى والعائلى، أو الاسم العائلى وحده، أو هذا الأخير مرفقًا بلقب، أو اللقب الأدبى محل الاسم الحقيقى، وهناك من يستعمل اسمًا خياليًا مثل تلك الأسماء التى

(١) Ibid. p.16.

نطلقها على أنفسنا بحميمية، فـ "أندرى جيد" مثلا فى مذكراته (١٨٨٩ - ١٩٣٩) يتحدث عن نفسه باسم "فابريس" Fabrice، فى هذه الحالة نكون عند حدود الخيال، أو "الخيال الخيالى" (Fiction fictive) كما يقول (فيليب لوجون)(١).

ولإزالة أى غموض يتعلق بالتطابق فى حالة السيرة الذاتية المكتوبة بضمير الغائب، يؤكد (جان ستاروبنسكى)(٢)، ضرورة وجود معلومة خارجية تشير إلى أن السارد شخصية رئيسية، وإلا فإن الغموض سيسود، ومع ذلك يجب أن نقر بأن فى حالة المعلومات القادمة من الخارج يكون الاهتمام مسلطًا على الحدث أكثر مما على " أنا" البطل أو الشخصية الرئيسية(٣).

لا يعد استعمال ضمير الغائب فى نص سير ذاتى بالضرورة طريقة غير مباشرة للحديث عن الذات، فهذا الضمير، كما يشير إلى ذلك (لوجون)(٤)، يسمح بإزالة اللبس، الناتج عن استعمال ضمير المتكلم بين موضوع التلفظ، فالسيرة الذاتية تهدف بهذا الأسلوب إلى إقامة مسافة بين الشخصية المسرودة والسارد، فضمير الغائب يسمح، فى هذه الحالة للكاتب بالتموضع خارج ذاته، ويرى نفسه كما لو أنها شخص آخر، إنه منهج لسرد الذات من الخارج.

وهناك استعمالات جد متباينة لضمير الغائب، فقد استعمل لإفادة كبرياء متضخمة، مثلما فى حالة المذكرات التاريخية، أو بنوع من التواضع كما هو الشأن بالنسبة للسيرة الذاتية الدينية القديمة التى كان يسمى فيها صاحب السيرة الذاتية

---

(١) Ph. Lejeune, Je est un autre , op. cit. p. p. 40-41.

(٢) Jean Starobinskiy, le styl de l' autobiographie, dans Poétique, tome III, p. p. 259- -260.

(٣) Naam koum, l' autobiographie dans la littérature Arabe contemporaine, Genèse et forme, op. cit. p. 25.

(٤) Ph. lejeune, Je est un autre, op. cit. p. 34.

نفسه "خادم الله"، وفى كلتا الحالتين ينظر السارد إلى الشخصية التى كان يمثلها إما من مسافة النظرة التاريخية أو من مسافة النظرة الإلهية، أى نظرة الخلود، ويقحم فى حكيه تعاليًا يتطابق معه فى نهاية المطاف"(١).

وهناك حالات لا يستعمل فيها ضمير الغائب فى المحكى برمته، حيث نجد سيراً ذاتية يعين جزء من النص فيها الشخصية الرئيسية بضمير الغائب، بينما يجد السارد وهذه الشخصية نفسيهما متحدين فى ضمير المتكلم فى بقية النص(٢).

٤- كتابة الذات بضمير المخاطب:

لكن، من البديهى أنه من الممكن جداً كتابة سيرة ذاتية بطريقة أخرى غير ضمير المتكلم، فما الذى يمنع مؤلفًا ما من كتابة حياته معلنًا نفسه ضمير مخاطب؟ وقد طبق ذلك فى العديد من النصوص التخييلية، غير أن (لوجون)(٣)، يؤكد أنه لايعرف سيرة ذاتية كتبت برمتها بضمير المخاطب " أنت"، وهذا النهج يظهر بطريقة عابرة فى خطابات يوجهها السارد إلى الشخصية التى تحيل عليه، إما من أجل مواساته أو من أجل التخلى عنه(٤).

---

(١) Ph. Lejeune, le pacte autobiographique, op. cit. p. 16.

يعطى (فيليب لوجون) كمثال عن ضمير الغائب الذى يفيد الكبرياء المتضخمة تعليقات القيصر وبعض نصوص الجنرال دوغول.

(٢) Ph. Lejeune, le pacte autobiographique, op. cit. p. 16.

فى هذه الحالة يستدل (لوجون) بسيرة كلودروى الذاتية " نحن، محاولة فى السيرة الذاتية " (١٩٧٢) حيث يستخدم المؤلف هذه الطريقة ليتخذ مسافة محتشمة من بعض مراحل حياته الغرامية.

(٣) Ph. Lejeune, le pacte autobiographie, op. cit. p. 17.

ويعطى كمثال على ذلك (ميشيل بوتور) فى التغيير، (جورج بيريك) فى رجل نائم.

(٤) يتحدث (لوجون) فى هذه الحالة على (جان جاك روسو) فى الاعترافات " جان جاك المسكين، لم تكن تتمنى فى هذه اللحظة القاسية أنه فى يوم من الأيام..."، وهناك أيضاً "كلودروى" فى "أنا ضمير المتكل"، حيث يتحدث إلى كلود الطفل: "ثق بى صغيرى، لا يجب عليك...".

ويلعب ضمير الغائب "هو" داخل نص سير ذاتي مكتوب بضمير المتكلم، الدور نفسه الذي يلعبه ضمير المخاطب "أنت" داخل نص من النوع نفسه، حيث إنه يطرح مسألة التطابق نفسها بين الشخصيات التي تطرحها سيرة ذاتية مكتوبة بضمير المتكلم، كما أن هذه الـ "أنت" تطرح الطابع المزدوج للمتلقى، إذ فى الآن نفسه يحيل على الشخصية التى يتحدث عنها النص أى موضوع التلفظ نفسه، وعلى القارئ الذى يمكن أن يكون السارد نفسه(١).

ومن جهة أخرى فإن ضمير المتكلم المستعمل طيلة السرد لا يمكن أن يفهم ويدرك دون ضمير المخاطب، الذى هو القارئ الذى يبقى فى غالب الأحيان ضمنيّا، فى حين أن ضمير الغائب يسمح داخل السرد ببناء خطابات بضمير المتكلم من طرف السارد، وإذا كان ضمير المتكلم يحدد الشخص الذى يقول "الحقيقة" عن مسار حياته، وضمير المخاطب يعبر ليس عن الشخص كما هو، بل عن الاستهامات التى يمارسها على الكائن الذى هو ذاته، فإن ضمير الغائب يمارس وظيفة التعبير عن الصورة التى كونها عن نفسه، وليس كما يراه الآخرون(٢).

٥- السيرة الذاتية بالنيابة:

يمكن القول إن صور وأنماط السيرة الذاتية التى ينتجها تعدد استعمال الضمائر الثلاثة تعبر عن المسافة الموجودة بين الحقيقة المعاشة والماضى المستعاد الذى يبنى من جديد انطلاقًا من الموضوع ذاته.

---

(١) Naam Akoum, l' autobiographie dans la littérature arabe contemporaine, Genèse et forme, op. cit. p. 26.

(٢) N. Akoum,l' autobiographie dans la littérature arabe contemporaine, Genèse et forme, op. cit. p. p. 26-27.

غير أن الحديث عن أنماط الضمائر المختلفة التى يكتب بها جنس السيرة الذاتية لا يكتفى بضمير المتكلم "أنا"، والمخاطب "أنت"، والغائب "هو" كما سبق أن بينا فى الصفحات السابقة، بل هناك سرد سير ذاتى تم الاعتماد فيه على شخصية أخرى بمثابة وسيط أو متدخل (interposée) تنوب عن الكاتب فى سرد وقائع حياته، وقد أطلق الناقد الفرنسى الذى ارتبط اسمه بالسيرة الذاتية، (جورج ماى)، على هذا النوع "السيرة الذاتية بالنيابة" (L' autobiographie par personne interposée) [1]، ومثل (فيليب لوجون) دعا إلى عدم الخلط "بين قضايا الضمير النحوية وقضايا التطابق"[2]، وهناك مؤلفات شهيرة تبرز اللبس القائم بين الشخص بمعناه النحوى وبمعناه النفسانى أو الأنطولوجى، ويستشهد (جورج ماى) بالسيرة الذاتية لـ (أليس ب.توكلاس) (Alice. B. Toklas) التى صدرت سنة (١٩٣٣) باسم كاتبتها الحقيقية "جير تريد ستاين (Gertrude Stein) تروى المسماة (أليس توكلاس) فى آخر هذا الكتاب "أن رفيقة دربها وصديقتها" جيرتريد ستاين" حين تبينت عجزها عن كتابة سيرتها الذاتية الخاصة التمست ذات يوم من الآنسة (توكلاس) أن تسمح لها بكتابة سيرتها الذاتية، وقد كتبت هذه السيرة الذاتية بتلقائية، كما كتب "ديفو" (Defoe) سيرة (روبنسن كروزوى)[3]، وهناك أيضًا كتاب "فيكتور هيغو بقلم شاهد على حياته" (Victor Hugo raconté par un témoin de sa vie) هو عمل أدبى بلا مؤلف، اللغز الذى سيحل فيما بعد، ويشير (جورج ماى) إلى أن "هيغو" كان فى معظم الأحيان مصدر القص وإن لم يسهم فى التحرير مباشرة، مفسحًا المجال لزوجته (أدال) (Adèle) لتكتب سيرته أو تدون أهم وقائعها.

---

(١) Georges May, L'autobiographie, op. cit. p. 66.

(٢) Ph. Lejeune, le pacte autobiographique, op.cit. p.16.

(٣) Georges may« l'autobiographie op. cit. p .68.

ويحتوى الكتاب على فصول عديدة تتحدث عن زمن لم تكن فيه (أدال) قد دخلت حياة (فيكتور) بعد، فكيف لها والحالة هذه أن تكون شاهدة على الأحداث المروية فى الكتاب؟

إن كتاب (فيكتور هيغو) بقلم شاهد على حياته "تتقاطع فيه ثلاثة أنواع من الأدب الذاتى: السيرة، الشهادة والسيرة الذاتية، كما أن ضمير المتكلم والغائب يوجدان فى حالة اشتباك[١].

ومن جهة أخرى فإن الشهادات المقدمة فى الكتاب تضعه فى خانة "السيرة" (biographie)، ويجعل ضمير المتكلم المؤلف يتدخل بصفته ساردًا، ولم يستعمله هذا الأخير إلا من أجل توجيه السرد والإشارة إلى مصادر معلوماته[٢]، ويظهرالتناوب بين ضمير المتكلم وضمير الغائب واضحًا حسب مصدر المعلومة المعطاة، فإذا كانت (أدال) المصدر، فإنها تستعمل ضمير المتكلم بشكل طبيعى، وإذا لم تكن المصدر فإنها تلجأ إلى أسلوب السيرة[٣].

ويرى (فيليب لوجون)[٤]، أن استعمال ضمير الغائب فى "فيكتور هيغو بقلم شاهد على حياته" يأتى تقليدًا من طرف السيدة (هيغو) لبعض النصوص السير ذاتية كان قد كتبها (هيغو) نفسه، خصوصًا الاستهلالات، حيث ضمير الغائب "هو" يعبر بواسطته المؤلف عن رغبته فى تقديم نفسه كما لو أنه شخص آخر، ولاحظ عبدالفتاح كيليطو[٥].

---

(١) Naam Akoum, l' autobiographie dans la littérature arabe contemporaire, Genésé et forme, op. cit. p. 27.

(٢) Ibid. p. 27.

(٣) Ibid. p. 28.

(٤) Ph. Lejeune, je est un autre, op. cit. p. 97.

(٥) عبدالفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دراسات فى السرد لعربى، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، (١٩٨٨)، ص. ٨٠.

عن سيرة ابن خلدون الذاتية "التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً[1]"، أنها مكتوبة بضمير المتكلم، ولكن الارتسام الذى يظل قائماً هو أنها مكتوبة بضمير الغائب، فابن خلدون يصف نفسه كما قد يصفها شخص آخر، شخص يخبر عن ابن خلدون[2]، ونحن نعلم علم اليقين أن اختيار صيغة الغائب أو المتكلم فى أثناء الكتابة الأدبية هو من الأهمية بمكان، "فما ينقل إلينا بصيغة الغائب غير ما يمكن أن يقال لنا بصيغة المتكلم، وبخاصة إن وضعنا كقراء يتغير تماماً بالنسبة إلى ما يقال لنا"[3].

٦- تداخل الضمائر الثلاثة :

لم نعد، مع تطور الدرس الأدبى، نربط الرواية بصيغة الغائب باعتبارها أبسط صيغها الأساسية، وما يلى ذلك كاعتبار استعمال الروائى للضمائر الأخرى نوعاً من "المجاز"، كما أنه ليس شيئاً دقيقاً التعامل مع النص الأدبى على أساس الضمير الواحد، فهناك بالضرورة تدخل للضمائر الثلاثة، ضميران حقيقيان: الكاتب الذى يروى، ويقابله الضمير "أنا"، والقارئ الذى تروى له القصة، ويقابله الضمير "أنت". وأخيراً شخص وهمى، أو حقيقى، هو البطل الذى نروى قصته أو سيرته، ويقابله الضمير "هو"[4]، ونظراً للطابع التخييلى للسيرة الذاتية فإن هذه الضمائر الثلاثة تتدخل حتماً، ولو يكون هذا التدخل بطريقة مضمرة كما أشرنا، ومن هنا نجد أن

---

(١) (عبد الرحمان بن خلدون) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجى، القاهرة، (١٩٥١).

(٢) يستعمل (ابن خلدون) أحياناً ضمير الغائب للحديث عن نفسه ، "ونرجع إلى ما كنا فيه من أخبار المؤلف"، (التعريف ص. ٥٥).

(٣) (ميشال بوتور) بحوث فى الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات – بيروت– لبنان، (١٩٧١) ص. ٦٣.

(٤) المرجع السابق، ص. ٦٣.

الخطاب النقدى تجاوز بعض الطروحات التى استبعدت الحكى بواسطة ضمير المتكلم بكل أشكاله من صنف المتخيل السردى.

٧- الضمير النحْوى والتخييل:

ترى "كات هامبرغر" أن الحكى بضمير المتكلم يحاكى نصوصًا غير تخييلية كالسيرة الذاتية والمذكرات التاريخية التى اعتبرتها ملفوظات واقع، وناقشت هذه الفكرة (دوريت كوهن) (Dorrit Cohn) التى دللت على القدرات التخييلية للسرد بواسطة ضمير المتكلم أو "السرد الذاتى" (Auto-Recit) وقد أفردت فصلاً كاملاً من كتابها (La Transparence intérieure) [١] للحياة الجوانية وتقنيات التخييل بواسطة ضمير المتكلم.

وناقش (جيرار جينيت) أطروحة "كات هامبرغر" الخاصة باستبعاد السرد بواسطة ضمير المتكلم من حقل المتخيل، حيث يرى أن السرد الذاتى بواسطة ضمير المتكلم، الذى يتم عن طريق السارد المشارك فى الحكاية (Homodiégétique) وبذلك يكون اللافظ فى الحكاية شخصية فى القصة، هو ذاته فى المتخيل [٢].

لقد كانت مسألة الضمير حاسمة دائمًا فى إصدار مواقف تجاه الإنتاج الأدبى، والتحكم فى عملية تصنيف النصوص وفق نظرية الأجناس الأدبية، وقد شكل دائمًا خيطًا منحرفًا تحكم فى قراءة السيرة الذاتية، وسيرة (طه حسين) الذاتية "الأيام" من النصوص الشاهدة على ذلك، فالعديد من الدراسات التى تناولت "الأيام" وجهت

---

(١) Dorrit Cohn, la transparence intérieure. Chap. 2, la vie intérieure dans le récit à la première personne/ trad. par Alain bony, coll. Poétique, ed. seuil, Paris, (1981).p. p.167-190.

(٢) Gérard Genette, Fiction et diction. Coll. Poétique. seuil, Paris, (1991) p. 44.

اهتمامها إلى مسألة الضمير المعتمد فى هذا النص، كما تناولت ما يثيره هذا الاعتماد من قضايا فى أثناء تلقيه، باعتبار"الأيام" لم يعتمد العناصر الثنائية للسيرة الذاتية المتعارف عليها، الشيء الذى اعتبروه خللاً عميقًا فى ميثاق النص، ومن أهم العناصر التى خلقت هذا الخلل نجد اعتماد "الأيام" ضمير الغائب فى حكيها الإستعادى[1].

و يثار الإشكال نفسه مع سيرة ابن خلدون الذاتية "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا"، حيث يستعمل ابن خلدون فى أحيان كثيرة ضمير الغائب فى تقديم ذاته وفى النظر إليها وتأويلها، إن الإشكال نفسه يطرح مع جميع السير الذاتية، وإن كان بدرجات مختلفة ومتفاوتة.

ويمكن إجمال القضايا التى يطرحها الضمير النحْوى فى النص السير ذاتى، وضمير "أنا" على الخصوص، أولاً فى كون الـ"أنا" يتكلم باسم من يكتب السيرة الذاتية، ويستخدم إمضاءه، وثانيًا فى كون هذا الـ"أنا"، يضمن مظهر التوافق والتطابق

---

(١) يجد يحيى إبراهيم عبدالدائم أن ضمير الغائب فى سيرة (طه حسين) الذاتية يبعد "المترجم ذاته عن ذاتيته، ويجعله يخل بشرط من شروط الترجمة الذاتية، التى تقوم على الإفصاح عن ذات الكاتب، وعلى الحديث المباشر ، وعلى الحضور المستمر الدائم لشخصية الكاتب وذاتيته، فلا يفصل بينه وبين الوقائع والمواقف على النحو الذى انتهجه حين اختار "ضمير الغائب" الذى جعله يتعالى على هذه المواقف التى آلمت نفسه"، وإننا نلاحظ خلطًا صارخًا بين الضمير والشخصية، وهو الأمر الذى تكرر عند العديد من الدارسين والنقاد، الشيء الذى جعلهم يعتبرون الأيام نصًا صعبًا "يخون" مواثيق السيرة الذاتية المتعارف عليها، ومنها مسألة الضمير، التى من الممكن إذا أسيء فهمها، أن تجر وراءها الكثير من المزالق المنهجية.

ومن الباحثين الجدد نجد التونسى شكرى المبخوت الذى درس الأيام لكن اصطدامه بضمير الغائب جعله يصل إلى نتائج غير دقيقة، بل إنه شكك فى الانتماء النوعى إلى نص الأيام لجنس السيرة الذاتية.

انظر:

- يحيى إبراهيم عبدالدايم، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر (١٩٧٨)، ص. ٤٢٤.

- شكرى المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الآتى، السيرة الذاتية فى كتاب "الأيام لـ (طه حسين)، تونس دار الجنوب لنشر، (١٩٢٢).

مع مؤلف النص، دون أن ينتفى التخييل، ومن شأن ضمير الغائب "هو" أن يكون، مثله مثل ألـ"أنا"، مؤشراً ملائمًا على من تكتبه السيرة الذاتية، وهذه هى نقطة التقاطع الفريدة التى تحققها جميع الضمائر فى السيرة الذاتية، فانتزاع الذات السيرية يتطلب إدماج هذه الضمائر جميعها لتقدم الذات مصورة ومقدمة إلى القارئ من دون "جناية" على أى ضمير واتهامه بخرق الميثاق وانتهاكه، فيكون الاختلاف فى الضمائر بحجم الاختلاف فى الذوات المقدمة والمكتوبة، بحجم التخييل واللا تخييل، والاستعارة والحرفية ومستويات أخرى من صميم الخطاب السير ذاتى ولا يجب هذا الاختلاف فى أداء دور الحفاظ على الميثاق؛ لأن يخفى التمييز الضرورى بين الـ"أنا" الحاضرة والـ "أنا" الماضية كمرجعية مزدوجة، هذا دون نسيان أن فى ثنايا هذه الـ"أنا" يرقد ذلك الميل النرجسى القديم فى رؤية العالم كله مركزاً فى"الذات" والذى لا يثق بكل شىء خارج هذه الـ"أنا"[1].

(١) داينا منيستى، [كتابة السيرة الذاتية النسائية فى مصر (عبور الفضاء بين الخاص والعام)]، م. س. ص. ١٤١.

الفصل السادس

من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتى

لعل أسهل مدخل لهذا الحقل المنزلق يتحدد فى تقديم تعريف عام لمصطلح "التخييل الذاتى" (l' autofiction) ومنه بعد ذلك إلى واحدة من أهم حقائق السيرة الذاتية، ونقصد الحالة الفردية التى تقدمها، وتتماثل بذلك مع جميع أصناف التخييل التى عرفها الأدب لا تتأتى قدرة السيرة الذاتية على إقناعنا بـ"حقيقته" وبـ "أصالتها" وبـ "صدقها" لا تتأتى أبدًا من تشابهها مع العالم الواقعى للقارئ [1]. أو تطابقها معه. إنها تتأتى من كينونة النص السير ذاتى نفسه، باعتباره تخييلاً ذاتيًا مصنوعًا من كلمات، ومن تنظيم الفضاء، والزمن ومستوى الحقيقة التى تكونه.

وتحليلنا لمستوى التخييل فى نصوص السيرة الذاتية ينبنى على أساس الإجابة عن عدة أسئلة أهمها فى تقديرنا: هل سارد سيرة حياته، (المؤلف)، معنى بإحداث تحولات وتحويلات تتم تحت سلطة التخييل؟ هل التخييل، مثله مثل المقومات الأخرى كالزمن ومستوى الحقيقة، عبارة عن واسطة فى السيرة الذاتية؟ أم أنه ضرورة أدبية إذا صح أن فى الأدب ضرورات؟ أم أن التخييل على عكس ما راج فى تلقى السيرة الذاتية وباقى نصوص الأدب الشخصى، يشكل ما أسماه فيليب لوجون بـ "الفضاء السير ذاتى"(l' espace autobiographique) فى سياق حديثه عن أندرى جيد (An dré Gide)[2]، فنجد كاتب السيرة الذاتية يلعب على إمكانية التنويع، وتطوير الأوضاع ودفعها إلى الحدود القصوى فى هذا الاتجاه أو ذاك دون الالتزام بخطاب الحقيقة، بل بإدماجها كوجوه فى فضاء تقديم الذات، وهذه المنطقة من التجريب تنطوى على المسافة، بحيث لا نطلب من القارئ تصديق كل ما يروى له"[3]، وهنا نكون على

(١) تجربة القارئ مع السيرة الذاتية هى تجربة تعاقدية أساس، فالسيرة الذاتية كتبت للقارئ وهو الذى يشغلها، حسب تعبير (فيليب لوجون)، انظر:

Ph. Lejeune, "Le pacte autobiographique, Seuil, 1975, p. 14.

(٢) Ph. Lejeune Pour l' autobiographie, Magazine littéraire, Paris, N*904, 2002, p.23.

(٣) Ibid. p. 23.

مسافة من الخطاب الداعى إلى تصديق السيرة الذاتية، لنلج ما أطلق عليه (سيرج دوبروفسكى) (Serge Doubrouvsky) التخييل الذاتى"على نطاق ضيق في روايته "ابن"[١]. (Fils) قبل أن يتسع، احتذاء بتطوير (دوبروفسكى) لهذا المصطلح الذى سيصبح منافسًا لمصطلح السيرة الذاتية؛ بل ودالاً عليها[٢]، إلى جانب دلالته على نصوص أدبية أخرى تستثمر التجربة الشخصية.

لقد كانت اللغة النقدية تفتقد مفهومًا يختزل تجربة التخييل والحقيقة داخل السرد الأدبى إلى أن جاء (دوبروفسكى)، فالتخييل الذاتى يحدد اليوم كل فضاء يقع بين السيرة الذاتية التى لا تريد الإفصاح عن ذاتها وتخييل لا يريد الانفصال عن كاتبه[٣]، نظرًا لأن مفهوم السيرة الذاتية أصبح يخيف الكتاب اليوم، كما لو أنه لا يتضمن أية دلالة إبداعية، فالخطاب السير ذاتى، والتنظير الذى رافقه، أشاع موقفًا معلومًا من هذا الخطاب، باعتباره يقيم علاقة معينة مع القارئ هى عكس العلاقة التى يقيمها ويؤسسها خطاب التخييل، فالخطاب الأول يطلب من متلقيه نوعًا من التصديق، فى حين أن الخطاب الثانى ينتظر من متلقيه نوعًا من التقييم والحكم القيمى، فالأول ينتظر حكمًا على الحياة التى قدمها للقارئ، أما الثانى فينتظر حكمًا على النص[٤].

القارئ الذى يتلقى سيرة ذاتية مطالبًا بإبداء الحب والتصديق، وكاتبها يشترط ضمنيًا مبادلة القارئ لأفعاله وتصرفاته، أى القيام بما قام به طوال حياته، وهذا ماجعل من السيرة الذاتية جنسًا أدبيًا جذابًا، غير أنه لن يصبح شعبيًا أبدًا، فليس كل الناس مستعدون للقيام بما يقوم به كاتب السيرة الذاتية"[٥]، وكل هذا نتيجة لوهم

(١) S. Doubrovsky, Fils, ed. Folio-Gallimard, Paris,1977

(٢) S. Doubrovsky, Autobiographiques, P. U. F, Paris, 1988. p. 69.

(٣) Ph. lejeune, Pour l' autobiographie, op. cit. p. 23.

(٤) Ibid. p. 22.

(٥) Ibid. p. 22.

خطاب الحقيقية التى تدعى نصوص السيرة الذاتية تقديمه، أما القارئ الذى يتلقى تخييلاً ذاتيًا، فإنه على وعى تام بأنه لا يسعى إلى امتلاك السحر لولوج حياة الآخر، بل إنه يقوم بقراءة من الدرجة الأولى، أى القراءة الإبداعية الخلاقة التى تعد بمثابة كتابة ثانية للنص، قراءة تأويلية ومعرفية، عكس قارئ السيرة الذاتية، الحساس والضعيف أمام مجموعة من الأشياء، والذى، حسب تعبير (فيليب لوجون)، "يقوم بقراءة من الدرجة الثانية، قراءة هى نوع من الاستماع، ودوره هذا يجعله فى وضع مختلف عن وضع قارئ التخييل"(١).

١- عهد السيرة الذاتية الجديد:

منذ ما يفوق العقدين من الزمن، "وبعد النهاية التاريخية للأشكال الأدبية الطليعية، بدأنا نشهد تقدمًا عامًا فى الأدب السير ذاتى، يتضمن نهضة وتوسعًا وتنوعًا فى آن واحد"(٢)، وقد كان وراء كل ذلك موجات متتابعة من الكتب الدالة التى طبعت التأثير القوى لضمير المتكلم "أنا"(٣).

والمشترك بين تلك الكتب فى تجنبها إدعاء انتمائها إلى جنس السيرة الذاتية الذى بقى، على الرغم من كل شىء، جنسًا لا يحظى بالاحترام، فالأمر يتعلق فقط بكتاب

---

(١) Ibid. p. 22.

(٢) J.Lecarme et E.T. Lecrame, L' autobiographie, op. cit, p. 267.

(٣) إذا اقتصرنا على الأدب الفرنسى الذى يشهد دينامية خاصة، وبحكم قربه منا، فإننا نسجل ضمن موجة أولى الكتب التالية (رولان بارت) بقلمه لـ (رولان بارت)، ذكريات الطفولة لـ (جورج بيريك)، "ابن" لـ (سيرج دوبرفسكى) كراس العائلة لـ (باتريك موديانو).

أما الموجة الثانية فقد ظهرت فى بداية العقد التسعينى مع الروايات، طفولة لـ (نتالى ساروت)، نساء لـ (فيليب سولرس)، المرآة التى تعود لـ (آلان روب غرييى) والعاشق لـ (مرغيت دوراس)، (انظر المرجع السابق ص. ٢٦٧).

اقترحوا نصوصًا لها نظام سردى متغير، بعقد قرائى متحول أو قابل للتحول، هنا نلاحظ تقاطع ظاهرتين: انسياق عام نحو ضمير المتكلم ونحو السيرة الذاتية (التى يمكن أن توظف ضميراً آخر غير "أنا"، والظاهرة الثانية فى العلائق بين مجالين ما زالا حتى الآن مختلفين هما، مجال التخييل (la fiction) ومجال السيرة الذاتية[1]).

ومصطلح تخييل ذاتى (autofiction)، الذى وضعه (دوبروفسكى) لتجنيس روايته (تخييله الذاتى)، يمكن أن ينطبق على عدد كبير من هذه الكتابات، والعبارة التى افتتح بها (رولان بارت) كتابه "رولان بارت بقلمه" (Roland Bartes par Roland Bartes) كل هذا يجب اعتباره كما لو أنه شخصية روائية نطقت به"[2]، تصلح أن تكون نقطة انطلاق عهد جديد للسيرة الذاتية "، وبالمقابل، فإن تحول كتاب الرواية الجديدة إلى كتابة السيرة الذاتية ليست مسألة ذات أهمية؛ لأن "الرواية الجديدة" لم تشكل أبداً مجموعة، أو مدرسة أو تياراً، إنها لم تكن تجمع سوى عدد من الكتاب رفضوا الرواية القديمة"[3].

منذ أن أطلق سيرج (دوبروفسكى) مصطلح "التخييل الذاتى" فى الساحة النقدية الفرنسية، فى كتابه"ابن" (Fils) سنة (١٩٧٧)، كانت بوادر جنس أدبى جديد قد بدأت تظهر وتنمو وتتطور، فأصبح هذا المصطلح الجديد مفضلا على مصطلح السيرة الذاتية بل ومنافسًا لها[4]، وجاء هذا المصطلح مبرراً ومسوغًا بالتنظير كما أقره الكاتب فى مقال قصير نشره سنة (١٩٨٠) يحمل عنوان "السيرة الذاتية، الحقيقة، التحليل

---

(١) bid. p. 267.

(٢) Ibid. p. 267.

(٣) Ibid. p. 267.

(٤) خصوصًا عند الكتاب الذين يعتقدون أن تجنيس "سيرة ذاتية" ينطوى على المستوى الفنى التخييلى والثراء الإبداعى.

النفسى"[١]، وإذا ما رجعنا إلى الجدول الذى رسمه (فيليب لوجون)[٢]، والذى وضع فيه مجموعة من السرود، الجدول نفسه الذى اعتمده (دوبروفسكى)، نقتنع بأن التخييل الذاتى شىء بسيط جداً، قد يضم سرداً يتقاسم فيه الكاتب والسارد والبطل الهوية الاسمية نفسها، فى حين أن التجنيس يثبت أن الأمر يتعلق برواية.

اسم الشخصية الميثاق	اسم المؤلف	= ٠	= اسم المؤلف
روائية	١ أ رواية	٢ أ رواية	
= ٠	١ ب رواية	٢ ب غير محدود	٣ ب سيرة ذاتية
سيرة ذاتية		٢ ج سيرة ذاتية	٣ ب سيرة ذاتية

(١) S .Doubrovsky, Autobiographies de corneille à Sartre, ed. P.U.F. 1988, p. 268.

(٢) وضعه سنة (١٩٧٥)، انظر :

Le Pacte autobiographique, op. cit. p.p. 86-87.

مع تـوالى نصـوص التخيـيل الذاتـى وتراكمـها الكمى والكيفى لم يعد المصطلح يطـرح بديلاً مضـاداً لمصـطلح السيـرة الذاتيـة، بل أصـبح مـرادفًا وتنويعًـا له، وكـان (دوبروفسـكى) يتقدم مـقنـعًـا وراء زعـم أنه يكتب "محـيطًا نـصـيًا للروايـة" (étexteuelle de roman) [١]، مـاذا بقى، من التـخييل، بغض النظر عن الجنس المثبت فى الغلاف، والذى لا يتفق معه القراء بالضرورة، ولكن الذى يسمح ببعض المؤاخذة؟ الجـواب هو أن مـا بقى هو تلك الألعاب من الانتقالات التى تعيد تنظيم زمن الحيـاة ليصبح زمن السرد، إضـافة إلى الأسلوب الذى هو أيضًـا لعب مستمر من الكلمات، والذى يثبت التجربة المعاشـة، وهكذا يصبح التخييل الذاتى حيلة صغيرة شفـافة، وسيرة ذاتية متسلسلة[٢].

٢ - التطابق(*) فى التخييل الذاتى:

سـاهم جيرار جينيت بقـوة فى دراسـة شـعرية الأنواع، إلا أن كتـابه "التـخييل والأسلوب" (fiction et diction)[٣]، لم يقف مطولاً عند مفهوم "التخييل الذاتى"، بل إنه لم يشر إلى روايات وسرود "سيرج دوبروفسكى" لا من بعيد ولا من قريب، غير أن "جاك لوكارم" و"إليان لوكارم – تابون"[٤]، رجّحا أن منظر الشـعرية أشار إليها فى كتابه المذكور بعبارات محرجة مثل "السيرة الذاتية المزورة، التى ليست "تخييلاً" إلا فى

---

(١) J .Lecarme, et E. Lecarme Tabone, l' autobiogaphie, op. cit, 1991.

(٢) Ibid. p. 228.

(*) مفهوم "التطابق" أساسى فى دراسة السيرة الذاتية، وقد اعتبره (فيليب لوجون) مفهوماً مركزيًا لتحقق السيرة الذاتية حيث يتطابق المؤلف مع السارد ومع الشخصية الرئيسية.

(٣) Gérard Genette, Fiction et diction, ed. seuil, coll. Poétique, 1991.

(٤) Ibid. p. 269.

نظر المؤلف، وبعبارة أخرى، إنها سيرة ذاتية شائنة "لقد تحول" منظر الشعرية إلى قاضي تحقيق وإلى منتقم (...) ونحن لا نعرف كيف يتم إطلاق تصنيف "سير ذاتية شائنة" على نصوص يتحقق فيها الميثاق السير ذاتي"(١).

إن صيغة هذه السرود المبينة سابقًا متناقضة، ولا ترتكز على أسس متينة. فعندما نشير إلى المؤلف بحرف "م"، و إلى السارد بحرف "س"، وإلى البطل (أو الشخصية الرئيسية) بحرف "ب" نكون قد وضعنا ذلك المثلث الصغير القبيح الذي لاحظ عليه (جيرار جينيت) سلبية تأرجح وتردد المؤلف: "أنا ولست أنا"، وعلى الرغم من أن التخييل الذاتي عرف أسماء أدباء كبار، فقد بقي جنسًا أدبيًا ملوثًا لمحيط نظريات الأجناس المتماسكة: السيرة الذاتية، السرد التاريخي، التخييل مثلي القصة (Homodiégétique fiction)، السيرة الذاتية غيرية القصة (بضمير الغائب) (biographe Hétérodiétique)، التخييل غيري القصة (La fiction Homodiégétique)(٢)، غير أن ميزة التخييل الذاتي تكمن في كونه لايضع محط التساؤل التطابق (=) أوالتقابل (=) بين المؤلف والسارد(٣).

والتردد الذي شجبه "جينيت"، ينظر إليه الفيلسوف الفرنسي "جاك دريدا" من زاوية أخرى، عندما يتحدث الفيلسوف الألماني"نيتشه" (Netschz) الذي أشار إلى اسمه الشخصي في أحد كتبه (Ecce homo)، فأكد (دريدا) أن "هذا الاسم هو قبل كل شيء اسم خطأ، إنه مستعار (pseudonyme) أو سمي (homonyme) جاء ليخفي بمكر "فريديرك نيتشه" الآخر"(٤)، إذن إذا كان اسم المؤلف يعتبر اسمًا مستعارًا، كيف

(١) J.Lecarme et E. tabone Lecarme, autobiographie, op. cit. p. 271.

(٢) Ibid. p. 271.

(٣) Ibid. p. 271.

(4) Jacques Derrida, Autobiographie, l' enseignement de Neitshez et la Politique du nom propre, ed. Galilée, 1984, p.p. 47-48.

يمكـن للاسـم العلم أن يضمن التطابق السردى؟ وإذا طرحنا سؤال (دريدا) هذا على نص فرنسى لـ (آنى إرنو) (Annie Ernaux) يحمل عنوان (passion simple) لنعرف من يتكلم فى هذا النص. فإن الكـاتبة تجيب: " أنا ولسـت أنا "[١]، وهذه الصيـغة التى اعتـبرها "جيـنيت" لاترتكز على أسـس متيـنة فى كتابه "التـخييل والأسلوب" جاءت على لسـان كتاب السيـر الذاتية وكتـاب التـخييل الذاتى (autofictionneurs) [٢] لهم مكانتهم.

إن التـخييل الذاتى، سواء فى مـعناه الضـيق أو الواسع، يجب أن يتميـز عن الكتابات الجديدة بضمـير المتكلم، حيث يتظاهر المؤلف بالمشـاركة باعتبـاره شـخصية فى تخييله.

وهذا ما يفعله "بورخيس" مثلاً، غير أن السـارد يمكن أن يكونً تخييلاً مثله مثل باقى الشخصيات، كما يسجل "سومرسيت موغام"[٣].

ولا بد من الوقـوف عند تحليل "جينيت"؛ لأنه يكن عداء دفـينًا لعـائلة كـاملة من النصوص، فهو يتحدث مثلا عمًا أسماه "جهازاً واهيًا" و"مضطربًا"[٤]، ويرفق هذا العداء الدفين، فى حق التخييل الذاتى بعداء آخر تجاه السيرة الذاتية، ولا غرابة أن نعثر عند ألمع النقاد والمنظرين على درجات مـختلفـة من الكره للأدب الذاتى، ومن الصمت أوالتواطؤ المقنع، فعلى هامش السـيرة الذاتيـة، التى لا تتمتـع بسمعـة أدبية طيبـة، هناك مجموعة من نصوص التخييل الذاتى التى يُنظر إليـها باعتـبارها أردأ

---

(١) l' autobiographie, op. cit, 271.

والكاتبة "آنى إرنو" لم تعد تضع على أغلفة نصوصها تجنيس رواية بعد روايتها "المكان" (١٩٨٣)

(٢) كلمة (Autofictionneurs) اقترحها "بول نيزون" (Paul Nizon) .

انظر :

Marcher à l'écriture, ed. actes sud, 1991, p. 173.

(٣) l' autobiographie, op. cit, p. 271.

(٤) Fiction et diction, op. cit, p. 84.

الأجناس الأدبية(١)، ولعل ذلك راجع إلى قلة التنظير الكافى الذى من شأنه حماية هذا الجنس الأدبى، فحتى الذين أطلقوا المصطلح مثل "دوبروفسكى" أو دافعوا عنه ووسعوا من دلالته أو الذين دعموه بنصوص، لم يضعوا تعريفًا له مثلما فعل "فيليب لوجون" مثلا مع السيرة الذاتية، ولعل الشك الذى يغلف نصوص السيرة الذاتية والتخييل الذاتى على السواء ناجم عن علاقة التخييل بالحقيقة داخل نصوص تستثمر الذات والأنا أكثر من استثمارها لعناصر نصية أخرى، علمًا أن "الأنا" منذ البداية تدخل فى سياق من التخييل(٢).

لكن إذا كان الحديث عن السيرة الذاتية اليوم حديثًا يجرى داخل إطار محدد، أوعلى الأقل داخل قانون معروف(٣)، بفضل تنظيرات "فيليب لوجون" خصوصًا فى كتابه "ميثاق السيرة الذاتية" فإن التخييل الذاتى بقى جنسًا أدبيًا، بعيدًا عن الاعتراف والتداول، وذلك بسبب قوته الاستعارية التحويلية للحياة الملفوظة، ويقوم بما تقوم به السيرة الذاتية أيضًا، أى "تحويل حياة معينة من كونها تجربة إلى كتابة سيرية، من كونها عملية تجريب إلى عملية كتابة سيرية"(٤)، إننا ننقسم إلى ذات تفعل، وأخرى تتأمل وتصدر الأحكام وتركب، و"حين ينتهى كاتب السيرة الذاتية من الكتابة يكون قد تكون وأصبح مفهومًا وفق مقاييسه الخاصة، وسواء أكان الدافع تبرئة النفس أم شرح تجربة تحول روحى، أم معرفة النفس، (اكتشاف ماهية المرء) فإن النتاج ينبغى أن يصبح ممكن الفهم بوصفه سردًا، فيمكن أن نستخلص أن "الأنا" المكونة بهذه الطريقة هى تخييل، ولكننا يجب أن نسلم بأنها توجد بوصفها

---

(١) l' autobiographie, op. cit. p. 272.

(٢) Jacques Lacan, Ecrits, p. 94.

(٣) Jean- Claude Dupas: « Dire «je» en Angleterre au XVIIe siècle, Excentrations et contradictions». In Individualisme et Autobiographie en Occident, op. ci. p.115.

(٤) (ج. هيوسلفرمان) نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، م. س. ص. ١٥٢.

حقيقة[١]، إن السرد والتخييل قد أبانا عن جدارة داخل بعض ضروب المعرفة، فكتاب التاريخ "الحديثون قد انتقلوا بنا إلى أهمية تقاليد السرد فى أكثر الأنواع الأدبية حقائقية، ولم نعد نستطيع أن نتحدث عن الواقع والواقعية دون أن نأخذ فى الاعتبار كيف يتغير العالم ويخلق حين يصاغ فى كلمات"[٢]، وبذلك نكون مجبرين، من الناحية النظرية، على الاعتراف بكون السيرة الذاتية هى أيضًا تخييلاً ذاتيًا ولاعلاقة له، كما يعتقد، بالكتابة اللا تخييلية التى تسجل المعايير وتعنيها، إنها فى المقام الأول وصف تجربة بالكلمات.

إن تقاليد السيرة الذاتية، على غرار التقاليد فى المدارس والأجناس الأدبية، ليست ثابتة من حيث المفهوم؛ لأن هذا الثبات، كما يرى" ياكبسون"، ليس فقط متعذرًا على الشرح، وإنما نقيض نظرية التطور الأدبى، وقد "لا يقتنع بهذه المناقشة ناقد ملتزم بفكرة أن الأدب والتاريخ ليسا سوى أشكال تقاليدية دون أية علاقة جوهرية بالواقع[٣]، وكل مناقشة حديثة حول الموضوع تعد مقدمة ممتازة لدحض أيديولوجيا السيرة الذاتية، تربطها بالممارسات الأدبية الحقائقية اللا تخييلية، وهنا يدخل ضمير المتكلم اللعبة بقوة، ويخلق ميثاق السيرة الذاتية بطريقة معينة، فالمتلقى يعتقد أن المؤلف حين يقول "أنا" ويجعلها مهيمنة على السرد، فإنه يؤكد مقصدية "إننى سأحكى حياتى من دون التواءات ولا تمويه"[٤]، وتدخل اللعبة أيضًا التجنيس وما يرتبط به من أنماط التلقى ومسألة تعيين جنس الكتابة أو النص، فهناك كتاب لم يعينوا جنس مكتوبهم على الغلاف، وليس ذلك بسبب الحيرة أو عدم وجود وعى بانتماء نصوصهم، بل بسبب خوفهم من كونهم إذا وضعوا رواية على الغلاف فإن الأثر السير ذاتى سيكون ضعيفًا

---

(١) ولاس مارتن نظريات السرد الحديثة، م. س. ص. ١٠١.

(٢) نفسه، ص. ١٠١.

(٣) نفسه، ص. ١٠٣.

(٤) Alain Robbe-Grillet, «Je n' ai jamais parlé d' autre chose que de moi» in, l' auteur et le manscrit, op. cit. p. 47.

بكل تأكيد[١]، فى حين أن "ميثاق السيرة الذاتية"، كما قعده (فيليب لوجون)، يؤكد إثبات النية فى كتابة سيرة ذاتية منذ البداية، وهذا الإثبات يفيد مباشرة أن المؤلف سيحكى لنا حياته الواقعية، حياته كما عاشها، ومهما بلغ هذا الإثبات من قوة، ومهما عبر الكاتب عن نيته فى كتابة سيرته الذاتية، سيرة حياته كما عاشها دون التواءات ولاتمويه، فإن كتابة سيرة ذاتية تبقى فى المقام الأول والأخير طريقة فى تخييل الذات، وتخييل ماضيها ووجودها[٢].

إن المنتظر من كتّاب السيرة الذاتية ليس العلاقة التاريخية المطابقة تماماً لأحداث خارج أدبية، بل ما ليس له فى النهاية أى وجود إلا فى الأدب، فالسيرة الذاتية تود انطلاقًا من تلك العناصر التى تنتمى إلى وجود الكاتب وتم تحويلها بالكتابة والتخييل، وتحريفها بالتذكر، وهنا تنشأ العملية الأخيرة، الأكثر تحريفًا بلا شك، أى الكتابة، إنها الوحيدة القادرة على صناعة النص انطلاقًا من الشذرات والنتف[٣]، وفى هذه الحالة يكون النص أكثر أهمية من العناصر التى يتكون منها، والتجاوب القوى مع نصوص السيرة الذاتية، لايرجع إلى كونها كتبت بضمير المتكلم "أنا"[٤]، ولا إلى تصريح المؤلف بأنه سيعرض حياته فى شكل مكتوب، بل لكون النص السير ذاتى له طبيعة مختلفة عن النصوص الأخرى، فتكون الاستجابة أساساً مع التخييل الذى تحتويه السيرة الذاتية،

---

(١) لم تحدد مارغريت دوراس جنس "العاشق" l' amant، رغم أنها سيرتها الذاتية، وهذا الشيء نفسه يصدق على السيرة الذاتية لـ (آلان روب غريبى) Le miroir qui revient، و(آنى إرنو) فى Femme Place and، وهذا ما يطلق عليه (غريبى): " السيرة الذاتية الجديدة" على غرار "الرواية الجديدة" والمهم فيها ليس العناصر والمكونات، بل الطريقة التى جمعت بها هذه العناصر والمكونات وشكلت نصّاً تخييليًا، أما وصف هذا التفصيل أو ذاك فى الماضى وصفًا تامًا وصادقًا فلا يمكن أن يتجاوز عملية ترجمة أمينة لأحداث مضت.

(٢) Alain Robbe-Grillet, op. cit. p. 79.

(٣) Ibid. p. 49.

(٤) Danielle Sallenave, «Fiction et Autobiographie», in, l' auteur et le manuscrit, op. cit. p. 71.

مع نص يصبح تحت سلطة الكتابة والتلقى أهم من الحياة التى يستند إليها ويؤول وقائعها وأحداثها، والاستناد فى ذلك إلى مسار كلاسيكى فى السرد حسم مسألة ضمير المتكلم الذى أصبحت تفهم طبيعته كإحالة على شخصية مختلفة عن المؤلف(١).

Ibid. p. 71.(١)

الفصل السابع

الأيديولوجيا المضادَّة للسيرة الذاتية

١- الزيف ينافس الحقيقة:

يمكن اعتبار السيرة الذاتية من أكثر الأجناس الأدبية عرضة لكل أشكال سوء الفهم، فهى مفهوم ملتبس غالبًا ما يكون ضحية للغموض الذى عرض به، وضحية لحداثة سنه وللنقد الذى اتخذه موضوعًا له(١)، ومحط هجمات من طرف المشنعين الذين يرون أن السيرة الذاتية بدأت تغزو الحياة الأدبية وتنافس أجناسًا "أدبية نبيلة"، حسب زعمهم، مثل الرواية، والمقالة، والشعر(٢)، مثلما تنافس النقود المزيفة النقود الحقيقية، إذن، تعد السيرة الذاتية حسب هؤلاء، بمثابة "أدب مزيف" ينافس "أدبًا حقيقيًا"، وهذا تحليل سطحى يختزل الإشكالية الأدبية فى مجرد جنس أدبى ينافس جنسًا أدبيًا آخر، وفى مجرد تجدد نشاط الأنانية التى تزعج المتلقى والوسط الثقافى، فى حين أن العقل السليم سيتدرج فى التحليل إلى أن يصل إلى نتيجة أن شيوع جنس السيرة الذاتية وباقى الكتابات الذاتية والشخصية يرجع بالأساس إلى نهضة القيمة التعبيرية للفرد وتجدد نشاط الـ"أنا" والرؤية الفردية والتعبيرات الذاتية(٣).

وليس مصدر الأيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية(٤) القراء أو النقاد والمنظرون فقط، بل كتاب السيرة الذاتية أنفسهم، فمن فريق النقاد والمنظرين يقف مثال الناقدة الأمريكية "كات هامبورغر" (Kate Hamburger) فى كتابها الشهير "منطق الأجناس الأدبية" (Logique des genres littéraires) الذى لا تقدم فيه أى تنويه عن السيرة

(١) توماس كليرك، الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، ترجمة: محمود عبدالغنى، منشورات الموجة، الرباط، ٢٠٠٣، ص. ٥٠.

(٢) Jacques Lecarme, Eliane Tabone Lecarme, l' autobiographie, op. Cit. p. 9.

(٣) Ibid. p. 9.

(٤) الأيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية" تعبير أطلقه (فيليب لوجون) واتبعه فيه مجموعة من الباحثين فى السيرة الذاتية مثل "جاك لوكارم إيليان لوكارم - تابون "اللذان عنونا فصلا من كتابهما "السيرة الذاتية" بالعنوان نفسه.

الذاتية، بل إنها تستثنيها من دائرة الأجناس الأدبية "بسبب وفائها لمفهوم المحاكاة فى الأدب"[1]، إضافة إلى اتهام الخطاب السير ذاتى "بالعجز الجمالى؛ لأنه بانتمائه إلى اللغة النثرية، فإنه يهدف إلى قصدية تواصلية بسيطة، وهذا ما يفسر غيابها (أى السيرة الذاتية) عن الشعريات الكبرى القديمة والكلاسيكية، ثم تلقيها السلبى من طرف المنظرين، نقاداً وكتاباً، خصوصاً الذين يعتبرون السيرة الذاتية ليست من الفن فى شىء أو أنها تستجيب لحاجيات مذمومة، منذ "باسكال" الذى اعتبر أنه "مشروع بليد أن يقوم "مونتانى" (Montaigne) برسم ذاته"، إلى القراء الذين أساؤوا فهم "الاعترافات" لـ "روسو"، والذين وجدوا من غير المفيد أن يحكى الواحد منا طفولته، ومنذ ذلك الحين، وتم تكوّن ما أسماه (فيليب لوجون) "الأيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية"[2].

٢- أصل غير تخييلى:

وترجع هذه "السمعة السيئة" إلى الأصل غير التخييلى للسيرة الذاتية التى ترتبط بالمرجعى أكثر من الخيالى، هذا إلى جانب المشاكل الجمالية والذهنية التى تطرحها، والتى "تجعلها تفقد الثقة فى عيون جمهور ميال إلى اختزال الأدب إلى لعبة بسيطة تمثل الرواية أعلى أشكالها، غير أن المنظرين لم يعتدوا أبداً بنوع ينظر إليه فى الغالب على أنه هجين.

فالسيرة الذاتية لا تنتمى إلى ما يسميه "جيرار جينيت" فى عمله "التخييل والأسلوب" (Fiction et diction) جنساً "أدبيًا بنيويًا"، وهنا يكمن السبب الرئيسى فى اعتبار السيرة الذاتية تفتقد الطبيعة الخيالية"[3].

(١) الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، م. س، ص. ٢٣.

(٢) نفسه، ص. ٣٩ .

(٣) نفسه، ص. ٣٨ .

أما الأخطاء التى يرددها المشنعون على الأدب الشخصى عمومًا والسيرة الذاتية خصوصًا فهى: "النرجسية، الوقاحة[1]، سرد النوادر، غياب المنفعة، التنكر للحقيقة والجمالية السطحية"[2].

تكمن المفارقة الغريبة فى أن مثل هذه التهم تنبعث فى الغالب عن كُتَّاب مارسوا كتابة السيرة الذاتية، وهذا هو حال "روسو" "الذى سجل غياب المنفعة من وراء سرد الأحداث الصغيرة فى طفولته، أو "أندرى جيد" (André Gide)، الذى كان ينتقص من قيمة يومياته التى كان يوجهها للجمهور "كغذاء ثقافى فى أثناء حياته !"، أو "لويس ألتوسير" (Louis Althusser) فى سيرته الذاتية "المستقبل يدوم طويلا"(L' avenir dure longtemps)، التى كان يعتبرها أدنى درجة من إنتاجه الفكرى، على الرغم من كونها مشروعًا أساسيًا رسم قدر العصاب النفسى الذى قاده إلى قتل زوجته، حيث كتب مستطرداً إنه لا يحب السيرة الذاتية وأن كتبه لا تنتمى إليها"[3].

٣- اعتراضات فكرية وجمالية :

يختزل "توماس كليرك" (Thomas Clerc) هذه الاعتراضات إلى انتقادات فكرية وأيديولوجية من جهة، وجمالية من جهة أخرى، أما الانتقادات الفكرية والأيديولوجية فيمكن اختزالها فى الأنانية التى أصبحت انتقاداً ثابتًا موجهًا إلى السيرة الذاتية. "وكما يوضح "فيكتور هيغو" فى مقدمته الشهيرة لـ "تأملات" (Contemplations) : إننا

(١) وهى التهمة التى ألصقت بأشهر سيرة ذاتية فى الأدب المغربى "الخبز الحافى" لـ (محمد شكرى)، والتى بموجب تلك التهمة تم منعها من التداول طيلة سنوات.

(٢) الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، م. س. ص. ٣٩.

(٣) نفسه، ص. ٤٠.

نتذمر أحيانًا من الكتاب الذين يقولون "أنا"، تكلموا عنا، نصرخ فى أوجههم"، والحال أن مؤاخذة الكاتب على أنانيته ليست لها أبدًا أية نتيجة مادامت السيرة الذاتية كتابة عن الذات، ولكى يكون النقد منتجًا عليه الوصول إلى إثبات كيف يمكن للأنانية أن تكون عائقًا أمام التواصل مع القارئ أو أمام القيمة الأدبية، وهذا هو الحال عندما يكون التلفظ ناقصًا، أى عندما لا يكون موضوعًا لأى إبداعٍ فعلى.

لكن الحديث عن الذات ليس تلفظًا بخطاب انطوائى، بل على العكس، فإنه تأسيس لتواصل بين المؤلف والقارئ: "عندما أحدثك عن نفسى، فإنى أتحدث عنك، كيف لا تشعر بذلك؟ آه! إنه أحمق من يصدق أننى لست أنت!"[1].

إن كل سيرة ذاتية جديرة بهذا الاسم "تدرج فى مشروعها صورة الآخر، وتخضع لإستراتيجية بلاغية للتواصل"[2]، ويمكن أن نلخص ذلك فى موقف "جان بول سارتر" الذى يذهب فى الاتجاه نفسه: "إننا نكتب دائمًا من أجل الآخر"[3].

وبخصوص تهمة "الوقاحة" التى ألصقت بعدد من السير الذاتية الجريئة والوفية لمرجعها، يمكن أن نستشهد بالروائى "جوليان غرين" (Julien Green) الذى أعلن أن عرض حياته الخاصة ليس له أية منفعة: "لماذا كل هذه التفاصيل حول الآلام الجسدية فى يوميات خاصة؟ ففى الحب الجسدى كل الناس يتشابهون (...) وإنما فى الروح يختلف واحدنا عن الآخر، إذن تعتبر مغامرة الروح المهمة فى اليوميات؛ لأنها دائمًا وحيدة"[4]، وقد اعتبر الناقد "توماس كليرك" أن هذه النظرة قابلة للنقاش مادام لا

---

(١) نفسه، ص. ٤٣.

(٢) نفسه، ص. ٤٣.

(٣) نفسه، ص. ٤٣.

(٤) Julien Green, journal, ed. Gallimard, Coll. bibliotheque de la pléiade, 1985, p. 260

ذكره "توماس كليرك"، ص. ٤٤٠.

وجود لموضوع جيد وآخر سيئ فى الأدب، خصوصًا وأن "جوليان غرين" لا يتأمل سؤال التلفظ ولا سؤال الجنس الأدبى، "رافضًا قبول أن مشروع رسم الذات يتضمن نزع الأقنعة الاجتماعية (...)، ونتيجة لذلك، يوجد عدد كبير من السرود التى نعتت بالوقاحة من طرف نقاد لهم ثقل أدبى وفكرى (بورخيس، بروتتيير...) أو من لدن كُتَّاب السيرة الذاتية الذين يتحفظون أمام اعترافات البوح الجنسى"[١].

يندرج النقد الذى وجه بقوة إلى السيرة الذاتية فى سياق النقد الجمالى، فـ "جورج كوسدروف" مثلاً يتصورها "وثيقة من النوع التاريخى والسيكولوجى" (وهذه هى حقيقتها) وليست عملاً فنيًا: "لا تكون كتابات الذات أدبية إلا بشكل ثانوى، وبالمصادفة" [٢]، تعتبر هذه النظرة الأدبية الكلاسيكية السيرة الذاتية بمثابة تراجع جمالى، ويعتقد العديد من الدارسين أنها تراجع عن المكاسب الجمالية والفنية للرواية مثلاً، وفى هذا الإطار لا بد من التنبيه إلى ضرورة التمييز بين السير الذاتية التى ألفها الكتاب وتلك التى أنتجتها شخصيات اتخذت السيرة الذاتية وسيلة وليست هدفًا، وقد أكد (فيليب لوجون) أن العديد من اليوميات الخاصة التى كتبتها فتيات فرنسيات فى القرن التاسع عشر ليست كلها من الأعمال الجيدة، واعتبرها مجرد لائحة من "العويل التافه"، أما السيرة الذاتية التى يضعها الكاتب فتتميز بقوة الأسلوب والبناء والتأثير الجمالى، ويحدث أن يضع أشخاص، ليسوا كتابًا بالمعنى الدقيق للكلمة، سيرًا ذاتية مثيرة للاهتمام[٣]، وينبغى، إذن، فى إطار الحديث عن المردودية

---

(١) نفسه، ص. ص. ٤٤ – ٤٥. وكمثال نموذج الكتاب الذين تحفظوا فى سيرهم الذاتية أمام اعترافات البوح الجنسى نذكر "خورخى لويس بورخيس" فى سيرته الذاتية "سيرة ذاتية"، ترجمة – عبد السلام باشا، ميريت، القاهرة، ٢٠٠٢، ومن الأمور التى نذر ذكرها فى سيرته الذاتية طبيعة علاقته بالمرأة وعزفه عن الزواج حتى تجاوز الستين من عمره.

(٢) الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، م. س، ص. ٤٥.

(٣) نفسه، ص. ٤٦.

وانظر أيضًا:

– Ph. Lejeune, Le Moi des demoiselles, ed. Seuil, 1995.

الجمالية لبعض نصوص السيرة الذاتية التمييز بين نصوص الكتاب ونصوص الهواة الذين يعطون الأهمية لتجربتهم وليس للقيمة السردية؛ لذلك نجد مجموعة من الشخصيات تستعين بكُتَّاب فى أثناء كتابة اعترافاتها الشخصية حتى لا تنقل للجمهور نصوصًا سيئة الصياغة.

٤- إسعاد القراء، إزعاج الكتاب:

إن للخطاب السير ذاتى عدة شروطًا جمالية وليست فقط من النوع التاريخى؛ ولذلك فليس من المؤكد أن السيرة الذاتية جنس ديمقراطى يتساوى فيه الجميع، "فالمسافة شاسعة بين محكيات الحياة التى يكتبها الهواة، ومذكرات الكتاب والنصوص التى يكتبها، بهذا القدر أو ذاك، نجوم الإعلام، وفى هذا الصدد لا يستطيع كل الناس كتابة سيرهم الذاتية، وهذا ما تؤكده (ميرنا فيلسيك كافينيز) (Mirna velcic carvinez) فى مقال نافذ لها: "لكتابة سيرتك الذاتية يجب أن يكون لك الحق فى ذلك"(١).

ويرى الشاعر (بول كلوديل) (Paul Claudel) أن كتابة السيرة الذاتية تفقر الخيال. وينتقد بشدة الإحساس النوستالجى الذى يوجد لدى من كتبوا سيرهم الذاتية مثل "شاتوبريان". إنهم حسب تعبير "كلوديل" يعيشون فى "المقعد الخلفى"(٢). فهذه الاستعارة تشير إلى الذين يعيشون فى الماضى، و(كلوديل) يفضل "المقعد الأمامى" الذى يتجه به إلى المستقبل، فهناك حسب (كلوديل) دائمًا أناس يرون فى الماضى زمنا يبتعد، وآخرون ينظرون دائمًا إلى المستقبل وهو يقترب، فقرر تحديد موقفه، وبذلك" انتقل من المقعد الخلفى إلى المقعد الأمامى"(٣).

---

(١) الكتابة الذاتية، إشكالية التاريخ ومفهوم، م. س. ص. ٣٨.

(٢) J. Lacrame, E.L. Tabone, l' autobiographie, op. cit. p. 11.

(٣) Ibid. p. 11.

يرى كل الذين كتبوا سيرهم الذاتية ورفضوا إضفاء أية قيمة جمالية أو فكرية عليها (وهذا ما يثير الدهشة) أن الماضى والطفولة والشباب كلها مراحل تصبح سجنًا إذا ما أطلنا التأمل والتفكير فيها أو كتبنا عنها بهوس[١]، إن اللعنة التى ألصقت بالسيرة الذاتية قادمة من خلط خطير بين "الأنا" والأنانية، فكلاهما تعبير عن الأنا الفردية، لكن الأنانية تعبير مرضى عن الذات لا يستطيع تغيير شيء فى العالم أو فى تلك الذات.

تزعج السيرة الذاتية الكتاب وتسعد القراء[٢]، خصوصًا إذا ما تضمنت محكيات عن طفولة الكاتب الذى يفضل ذكر النسب الشريف ومسقط الرأس، ثم ينتقل بشكل مفاجئ إلى سنوات النضج والفعل والمشاركة فى صنع الوقائع والحوادث، بل والتواريخ أيضًا .

تعتبر الأنانية التهمة الأكثر ترددًا على أقلام كل من كتب ضد السيرة الذاتية، و"الحال أن مؤاخذة الكاتب على أنانيته ليست لها أبدًا أية نتيجة مادامت السيرة الذاتية كتابة عن الذات، ولكى يكون النقد منتجًا يجب الوصول إلى إثبات كيف يمكن للأنانية أن تكون عائقًا أمام التواصل مع القارئ أو أمام القيمة الأدبية (...)، لا ينطوى الحديث عن الذات التلفظ بخطاب انطوائى، بل بالعكس هو تأسيس لتواصل بين المؤلف والقارئ"[٣]، وبذلك يكون نقد الأنانية مفتقدًا إلى التماسك، بل وإلى الموضوعية "فأنانية القارئ ليست أقل من أنانية المؤلف مادام الكتاب وجد لأجله ومعه"[٤].

---

(١) وهذا هو موقف الشاعر السوريالى (ميشيل ليريس) (Michel Leiris)، خصوصًا فى كتابه (l' âge d'homme)، فـ "ليريس" بقى دائمًا ثائرًا فى أقصى اليسار رفقة "سارتر" و "بوفوار"، فى حين أن السيرة الذاتية لا تقع فى أقصى اليسار، وليس فيها شيئًا ثوريًا"، ونحن نرى أن ثورية السيرة الذاتية، إذا حق أن هناك جنسًا أدبيًا ثوريًا وآخر محافظًا، تكمن فى الإعلاء من شأن "الأنا" داخل مجتمع ينبذها .

(٢) ليس كلهم.

(٣) الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، م. س. ص. ٤٣ .

(٤) نفسه، ص. ٣.

تتوجه السيرة الذاتية، عكس ما يفترض قبليًا المشنعون عليها، إلى عالم القراءة، ومن أجل التأثير فى القارئ وإنشاء حوار معه. إن الحديث عن الذات مفيد للقارئ، لنذكر (ب. سارتر) فى تصوره الديمقراطى للسيرة الذاتية (وللأدب) الذى يؤكد فيه: "إننا نكتب دائمًا من أجل الآخر"[1].

وكما جاء فى كتاب "توماس كليرك" المذكور سابقًا "الكتابات الذاتية" (les écrits personnels)[2]، حيث يعتبر مرافعة شيقة اختار فيها المؤلف أن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فإننا يمكن أن نجمل جميع أنواع النقد التى وجهت للسيرة الذاتية خصوصًا، ولأنواع الأدب الذاتى عمومًا، إلى نوعين: نقد جمالى، وآخر فكرى وأيديولوجى، أما النقد الجمالى فيوجه فى الغالب للسيرة الذاتية. يقول (جورج كوسدروف) فى نظرة أدبية كلاسيكية: "لا تكون كتابات الذات أدبية إلا بشكل ثانوى، وبالمصادفة"[3]، إن السيرة الذاتية كما يرى (كوسدروف) تشكل تراجعًا جماليًا، دون أن يميز، من الناحية الاجتماعية، "بين السير الذاتية التى ألفها الكتاب وتلك التى تكون من إنتاج شخصيات تعتبر السيرة الذاتية وسيلة وليست هدفًا"[4]، إن السيرة الذاتية التى يكتبها الكاتب تدخل ضمن فضائه الجمالى والفكرى، فتكون مطبوعة، مثل نصوصه السابقة، بالتنسيق الجمالى للغة المستعملة، فالوعى باللغة موضوع جمالى تكون له قيمة قصوى، فى حين أن الهواة لا ينتبهون للقيمة السردية فى نصوصهم؛ لأنهم يفتقدون الوعى الأدبى والجمالى، فيعطون كل الأهمية لسرد التجربة، الشىء الذى يفقد السيرة الذاتية طابعها النصى.

أما النقد الفكرى والأيديولوجى فيجمله "توماس كليرك" فى كون بعض النقاد والكتاب يؤاخذون على السيرة الذاتية نزعتها الأنانية؛ لأنهم يفهمون أن كل كتابة عن

---

(١) نفسه، ص. ٤٤.

(٢) Thomas Clerc, Les écrits personnels, ed. Hachette, coll, ancrages, 2001.

(٣) Ibid. p. 39.

(٤) Ibid. p. 39.

الذات تعد بالضرورة كتابة تعانى من الأنانية، فى حين أن النقد المنتج، يلاحظ "كليرك" بحق، من يتوصل إلى إثبات كيف يمكن للأنانية أن تكون عائقًا أمام التواصل مع القارئ أو أمام القيمة الأدبية، إذن فالملفوظ الصادر عن الأنا لا يكون بالضرورة ملفوظًا انطوائيًا، وإذا كان من الضرورى الحديث عن الأنانية فى هذا الباب فإنها ستكون أنانية القارئ الذى وجدت السيرة الذاتية لأجله ومعه.

القسم الثانى

السيرة الذاتية لابن خلدون

وسياقها الأدبى والتاريخى

الفصل الأول

السيرة الذاتية لابن خلدون

كتب القدماء عن ذواتهم دون أن يصنفوا ما كتبوه ضمن خانة نوع مخصوص، وما كان شائعًا من المصطلحات لم يكن يتجاوز مصطلحين اثنين "الترجمة" و"السيرة" للدلالة على معنى "تاريخ الحياة"، فـ"السيرة " عند العرب كانت صورة من صور مختلفة للتأريخ للأفراد، وقصد بها "حياة الرسول الكريم ومغازيه" وإن لم يمنع ذلك وجود سيرة معاوية وبنى أمية لعوانة الكلبى (ت. سنة ١٤٧هـ) كما يذكر ابن النديم، وقد ظهرت فيما يبدو فى وقت ظهور" سيرة ابن إسحاق"[1] (ت. سنة ١٥١هـ)"، ثم "التراجم" فى العصور المتأخرة التى تلت عصر الرواية والتدوين[2]، مع التأكيد أن استعمال الـ"سيرة" ظل يقتصر على بيان حياة الرسول، ثم تطور الاستعمال فى عصور تالية، فاستعملت بمعنى حياة الشخص بصفة عامة، ويذكر صاحب "كشف الظنون"[3] أن سيرًا كثيرة بدأت تظهر منذ القرن الرابع الهجرى مثل سيرة "أحمد بن طولون" لـ (ابن الداية) (ت. سنة ٢٣٤ هـ)، و"سيرة صلاح الدين" لابن شداد (ت. سنة ٦٢٢ هـ)[4].

ويرجع الدارسون إلى أن كلمة "ترجمة"، الآرامية الأصل، بدأ ياقوت استعمالها فى معجمه أوائل القرن السابع الهجرى، وقصد بها "حياة الشخص"، وشيئًا فشيئًا بدأ يجرى الاصطلاح على استعمال كلمة "ترجمة" لتدل على "تاريخ الحياة الموجز للفرد"، فى ما استعملت كلمة "سيرة" لتدل على التاريخ المسهب للحياة[5].

---

(١) يحيى إبراهيم عبدالدايم، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، دار إحياء التراث العربى، بيروت – لبنان. (١٩٧٥) – ص. ٣٠.

(٢) نفسه، ص. ٣٠.

(٣) حاجى خليفة كشف الظنون عن أسمى الكتب والفنون، وكالة المعارف (١٩٤١)م، المجلد الثانى، ص. ١٠١٥ ذكره يحيى عبدالدايم ص. ٣٠.

(٤) نفسه، ص. ٣١.

(٥) نفسه، ص. ٣١.

(أ) يؤكد يحيى إبراهيم عبدالدايم أن" أبا الفرج الأصفهانى" لم يستعمل فى كتابه "الأغانى" لفظة "ترجمة" عند كلامه عن حياة الشعراء، بل كان يقول: "خبر أبى قطيفة ونسبه"، أو"أخبار بشار بن برد ونسبه". أما كلمة "سيرة" فقط اتسع استعمالها، فأصبح يشمل "السيرة الشعبية" مثل سيرة سيف بن ذى يزن، وسيرة عنترة وغيرهما من الحياة الفردية للأبطال.

ويجب التشديد على أن الاصطلاح الحديث لا يفرق كثيراً بين "الترجمة" و"السيرة"، عكس القدماء الذين كانوا يفرقون بين اللفظتين[١]، كما أنهم عرفوا أنواعًا أخرى من الأدب الذاتى، مثل المذكرات والاعترافات، لكنهم لم يضعوا لها مصطلحات تدل عليها؛ لأن اللحظة الثقافية والوعى النقدى والنظرى لم يكن مؤهلا لذلك، ولا أدل على وجود هذه الأنواع القريبة من جنس السيرة الذاتية من كون الرحالة العرب كانوا يسجلون تاريخ اليوم وما جرى لهم من أحداث تسجيلاً دقيقًا، كما تركوا مذكرات شخصية نقلت بدقة حياة الحكام والسادة، مثل سيرة "أحمد بن طولون" لـ (ابن الداية)، وسيرة السلطان جلال الدين للنسوى، وسيرة السلطان صلاح الدين لـ (ابن شداد)، وكلها كتبت على شكل مذكرات شخصية تعتمد على نقل مشاهدات كاتب السيرة من أعمال المترجم له، أو ما سمعه عنه، الشىء الذى جعل هذه المذكرات أقرب أن تكون غيرية وليست ذاتية.

من السهل التفريق بين السيرة الذاتية والمذكرات واليوميات فى التراث العربى؛ لأن "نص السيرة الذاتية يحكى ماضياً بسرد متواصل فى ما تكون المذكرات واليوميات عبارة عن مدونات لها قوة الوثيقة التى لا يمكن تعديل زمنها"[٢]، إضافة إلى أن المذكرات واليوميات تكتب فى الغالب دون المراهنة على قارئ أو ملتقى، إنها كتابة حميمية ضيقة الانتشار، محاطة بالحذر ولا تراهن على التواصل.

وينكر العديد من الباحثين وجود أصول الأدب الذاتى هذه فى الأدب العربى القديم، فعبدالرحمان بدوى يرى أن الجنس السامى غير قادر على كتابة السيرة الذاتية[٣]، ويبرر هذا العجز بكون إحساس الإنسان العربى بشخصيته إحساسًا ضعيفًا[٣]، وهذا حكم يمكن دحضه بالرجوع إلى الجاهلية مثلاً حيث

(١) نفسه، ص. ٣١.

(٢) حاتم الصكر، كتابة الذات. ط١، دار الشروق، عمان- الأردن، (١٩٩٤)، ص. ١٩٢.

(٣) عبدالرحمان بدوى، الموت والعبقرية، مكتبة النهضة المصرية -القاهرة، (١٩٦٢)، ص١١٥.

(٤) نفسه، ص. ١١٥.

انتشرت العصبية القبلية بين العرب، وكانت كل قبيلة تسعى للظهور على القبائل الأخرى ومفاخرتها، فتسهب بالحديث عن أنسابها وأصولها ومفاخرها، وقد كانت المعارك تقوم بين هذه القبائل فيسرع شعراء القبائل المنتصرة بنظم شعر الفخر بهذا الانتصار، وفى سبيل ذلك قد ينسب الشاعر إلى نفسه وإلى قبيلته أمجاداً ليست لها، وكان زعماء هذه القبيلة وفرسانها وسائر أفرادها يجدون المتعة فى الحديث عن هذا الانتصار وتخليده(١)، وتجدر الإشارة إلى أن الفخر الفردى يبقى دون عمق الذات وعمق الإحساس بها. ومن مظاهر الإحساس بالذات، كان العربى يرى فى مدح قبيلته مدحًا له شخصيًا، وفى ذمها ذمًا له، وولاء العربى إلى قبيلته لا يعنى نقص إحساسه بذاته، بل يدل على شدة إحساسه بها ورغبته فى أن يظل قادراً على الفخر بنفسه وبقبيلته أمام القبائل الأخرى(٢).

ومن بين الدارسين الغربيين الذين رأوا أن بذور السيرة الذاتية نشأت عند العرب فى الجاهلية، نجد (كارل بروكلمان) يقول فى هذا الصدد: "كان عرب الجاهلية يفخرون بذكر مآثر أسلافهم وأيامهم، وأنسابهم، وكان سمرهم يجرى على رواية أيامهم"(٣).

ولو كانت الكتابة منتشرة وكأداة من أدوات نشر المعرفة فى العصر الجاهلى لوصلتنا سرود ذلك الإنسان عن ذاته، والدليل على ذلك أن الشاعر الجاهلى كان يكثر من الحديث عن نفسه حد الإطناب، وقد وصلنا هذا الشعر دون النثر؛ لأنه أسهل فى الحفظ والتداول بين الرواة(٤)، وأورد الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ

---

(١) هانى عبدالفتاح شاكر، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢، ص. ٣٧.

(٢) نفسه، ص ٣٧ – ٣٨.

(٣) كارل بروكلمان، ما صنف العرب من أحوال أنفسهم، ج :١، ص. ٣، نقلاً عن تهانى عبدالفتاح شاكر، ص. ٢٨.

(٤) نفسه، ص. ٣٨.

بغداد[1]، أن أول قطعة من السيرة الذاتية وصلتنا من العصر الإسلامى ما رواه سلمان الفارسى (٣٦هـ = ٦٥٦ م) عن نفسه، وقد تحدث فيها عن نسبه، وحب والده له وخوفه عليه، ثم عن أسباب تركه للدين المجوسى واعتناقه النصرانية، وقد ذكر له الأسقف النصرانى صفات النبى الجديد فوجدها سلمان فى النبى محمد (ص)، وقد رأى بعض الدارسين أن هذه القطعة أول بذرة للسيرة الذاتية غرسها سلمان الفارسى فى القرن الأول الهجرى، وبعدها نجد باقة من قطع السير الذاتية متناثرة فى كتاب "الأغانى" لـ (أبى الفرج الأصفهانى)، أقدمها سيرة الشاعر الأموى "نصيب"[2]، الذى تحدث عن إتقانه للشعر وما جر عليه ذلك الأمر من حسد بعض الشعراء، مثل الفرزدق، وأيمن ابن خريم، كما تحدث عن تقريب عبدالعزيز بن مروان له وإكرامه.

ومن السير الذاتية التى ضمها كتاب "الأغانى"، سيرة "إبراهيم الموصلى" (١٨٨هـ) التى ترى "هيلارى كيلباترك" أنها تقترب كثيراً من فن السيرة الذاتية، وهذه السيرة قطع متناثرة لا يوجد بينها أى ترابط، لكنها تصور فى مجموعها بعض السمات النفسية لإبراهيم الموصلى، ومن بين المعلومات التى يقدمها "الموصلى"[3]، عن نفسه ذكره أنه كان جريئًا أمام الخلفاء، ضعيفًا أمام اللذات، إذ إنه يستطيع أن يخالف أمر الخليفة المهدى ويتغيب عن مجلسه، لكنه لا يستطيع ترك شرب الخمر، فيقول فى ذلك: "كان المهدى لا يشرب فأرادنى على ملازمته، وترك الشرب فأبيت عليه، وكنت أغيب عنه الأيام، فإذا جئته كنت منتشيًا، فغاظه ذلك منى فضربنى وحبسنى"[4].

---

(١) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، ج : ١ دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ص١٧٧، نقلاً عن تهانى عبدالفتاح شاكر، ص. ص. ٣٨- ٣٩.

(٢) Hilary Kilpatric, Autobiography and classical Arabic literature, journal of Arabic literature, XXII, 1991, p. 3.

- نقلاً عن تهانى شاكر، ص. ٣٩.

(٣) تهانى شاكر، م. س، ص. ٤٠.

(٤) أبو الفرج الأصفهانى، الأغانى، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٤، ج: ١٨، ص. ٢٩٣.

وإذا تجاوزنا كتاب الأغانى، نجد كتاباً آخر أورد العديد من قطع السير الذاتية، وهذا الكتاب هو عيون الأنباء فى طبقات الأطباء[1]، لـ (ابن أبى أصيبعة)، وقد وردت فيه سيرة "حنين بن إسحاق"، وسيرة "ابن الهيثم" التى كتبها سنة (٤١٧هـ)، وهى سيرة فلسفية يظهر فيها "ابن الهيثم" تأثره بما كتبه "جالينوس" عن نفسه، وقد وجد الدكتور" إحسان عباس" فى هذه السيرة صراحة كبيرة يمكن أن تضر بسمعته بين الناس، ويسجل أن سيرة "ابن الهيثم" تقع ضمن الاتجاه الروحى والفكرى، إذ يعترف بأن الإقبال على علوم الديانات لم يفده شيئًا، فاتجه إلى الأمور العقلية، وهذه شجاعة لا يوازيها إلا اعتراف الغزالى بأنه شك فى كل شىء إلا فى البديهيات، لولا أن الغزالى عاد من ثورته هذه إلى الاستسلام الذى ألقى به فى أحضان التصوف[2].

أورد "ابن أبى أصيبعة" أجزاء من السيرة الذاتية لـ(ابن سينا) (٤٢٨ هـ) و (على بن رضوان) (٤٥٤ هـ) و(عبداللطيف البغدادى) (٦٢٩ هـ)، وقد رويت سيرة "ابن سينا" الذاتية على لسان تلميذه أبى عبيدة الجوزانى، وقد حرص "ابن سينا" فى سيرته على تسليط الضوء على مكانته العلمية فى مختلف مجالات العلوم، إذ تحدث عن إحكامه علم الهندسة والمنطق والطب، وتحدث عن أشياء أخرى من صميم المعطيات الذاتية، لكنها تبقى مجرد كتابات تقع ضمن صنف الكتابات الإخبارية المحضة التى تضم حكايات فيها عناصر شخصية ترمى إلى تسجيل تجربة أو خبر أو مشاهدة، كتلك الحكايات التى يقصها الجاحظ وأبو حيان التوحيدى وغيرهما عن أنفسهم، وعن الأحداث التى صادفتهم، كما تضم بعض المذكرات التى كتبها صاحبها من أجل الغاية التاريخية؛ والعناصر الذاتية شبيهة بالعناصر الموجودة فى كتب الرحالة، وكل واحد من هؤلاء يرمى إلى أن يعرف الناس أين نشأ؟ وكيف تعلم؟ وكيف كانت قابليته للعلم؟ ومن شيوخه؟ وما الكتب التى ألفها؟ وما البلاد التى زارها متنقلاً؟ إن قوة هذا النوع من

---

(١) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

(٢) إحسان عباس: فن السيرة، دار الشروق، عمان – الأردن، ١٩٩٢، ص. ١١٢.

السير تكمن فى بلاغتها الإخبارية[١]، وقد كتب ضمن هذا الصنف "ابن رضوان" و"عبداللطيف البغدادى"[٢]، ونلاحظ تفاوتًا كبيرًا فى إعجاب أصحابها بأنفسهم، وبما حققوه من مجد، أو غاية كانوا يسعون إليها، لكنها قد تفيدنا لأنها تقرير مباشر عن بعض تجاربهم فى الحياة، غير أنها تفتقد المتعة الفنية، باستثناء المتعة التى يثيرها الخبر الطريف، والتجربة الصادقة، وهذا النوع من السير الذاتية الإخبارية الصغيرة غير قليل فى الأدب العربى[٣]، وقد حفظت لنا كتب التراجم مثل معجم الأدباء لـ (ياقوت الحموى) العديد من الكتابات الذاتية، إذ يورد (ياقوت) قطعة من السيرة الذاتية لـ (على بن زيد البهيقى) (ولد سنة ٤٩٩ هـ/١١٠٥ م)، وقد ترجم (البهيقى) لنفسه فى كتابه المفقود مشارب التجارب، لكن كل ما بقى من سيرته ما نقله (ياقوت) فى معجم الأدباء[٤].

ويمكن أن نلاحظ أن هذه القطع من السير الذاتية، تشكل بذورًا خصبة لفن السيرة الذاتية، كما أنها تكشف عن إحساس قوى بالذات.

ولم تقتصر بذور السيرة الذاتية فى التراث العربى على هذه القطع المتناثرة فى الكتب، بل تجاوزتها إلى رسائل وكتب خاصة تحدث فيها أصحابها عن ذواتهم، ومن هذه الرسائل، رسالة لـ (محمد بن زكريا الرازى) وصف فيها سيرته الفلسفية، وتحدث فيها عن محنه وتجاربه[٥]، والرازى أكبر أطباء عصره ومتفلسفته، دبر مارستان (مستشفى) بلدته، ثم دبر مارستان بغداد، وخدم فى غير بلاط، وترك كثيرًا من الآثار فى الطب والفلسفة بفروعها، إلى أن توفى سنة (٣١٣هـ/٩٢٥م) [٦]، ويبدو أن الرازى

---

(١) فن السيرة، م. س. ص. ص. ١١٤ – ١١٥.

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، م. س. ص. ص . ٩٩–١٠٠، ص. ص. ٢٠٢–٢٠٤.

(٣) فن السيرة، م. س. ص. ١١٨.

(٤) شوقى ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٧، ص. ٤٣.

(٥) نفسه، ص. ص. ١٤–١٥.

(٦) م. س. ص. ١٥.

لم يكتب رسالته إلا بعد أن عاش فى حالة من القلق والمعاناة، نتيجة صراعه مع طائفة من الناس[١].

تبدو رسالة الصداقة والصديق لأبى حيان التوحيدى، التى تضمنت بعض الملامح الذاتية والنفسية لمؤلفها[٢]، رسالة فيها شفافية تتضح من خلالها نفسية وشخصية أبى حيان فهى كتابة تبرز شخصية متشائمة، يائسة، لا تدع للأمل منفذاً للعبور إلى أعماقها؛ لذلك فقد انتهى به الأمر إلى انتظار الموت وتوقعه فى كل لحظة، وكأنه لم يكن يجد حلاً للأزمة النفسية التى يعيشها إلا الموت، يقول: "ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف، على ما فى النفس من الحرق والأسف، والحسرة، والغيظ، والكمد والومد".

ونجد أيضًا رسالة لـ (ابن الجوزى) "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد"، ويتحدث فيها عن نفسه، فى سياق النصح والإرشاد لابنه، يفعل ذلك بهدف تعليمى، ومن أجل أن يكون قدوة صالحة لابنه، فهو يقول: "وإنى لأذكر لك بعض أحوالى، لعلك تنظر إلى اجتهادى وتسأل الموفق لى، فإن أكثر الإنعام على لم يكن بكسبى وإنما هو من تدبير اللطيف بى"[٣].

و من الدارسين العرب، الذين ارتبط اسمهم بالسيرة الذاتية[٤]، من استبعد بعض الأعمال النثرية العربية القديمة من دراساتهم، ومن جملة ما استبعد كتب الرحلات باعتبارها تشكل جنسًا أدبيًا مستقلاً فى أدبنا العربى القديم، والرسائل الإخوانية

---

(١) السيرة الذاتية فى الأدب العربى، م. س. ص. ٤٥.

(٢) أبو حيان التوحيدى، الصداقة والصديق، ص. ص. ٣٣-٣٤، نقلاً عن تهانى عبدالفتاح شاكر، م. س. ص. ٤٦.

(١) عبدالرحمان بن الجوزى، "لفتة الكبد إلى نصيحة الولد"، ط ٢، المطبعة السلفية، مصر، ١٣٩٧ هـ، ص. ٤٦.

(٢) صالح معيض الغامدى، السيرة الذاتية فى الأدب العربى القديم، علامات، ج ١٤، مجلد: ٤ - ديسمبر ١٩٩٤، ص. ص. ٥٢-٧٧.

أحد أهم الفنون النثرية عمومًا والشخصية خصوصًا، والرسائل الأدبية، وتعتبر هذه الأخيرة تطورًا طبيعيًا لفن الرسائل الإخوانية، والسيرة الذاتية المزيفة، أى تلك النصوص الخبرية المروية بضمير المتكلم "أنا" التى ترد مبعثرة ومتفرقة فى كتب الأدب والتراجم، والسيرة الذاتية المجمعة، ويطلق هذا المصطلح على المعلومات والأخبار الشخصية التى ينثرها الكاتب فى أعماله عن نفسه، كما هو الحال فى كتب أبى حيان التوحيدى مثلاً، والسيرة الذاتية المتشظية، والمقصود بها تلك المعلومات التى يوردها مؤلفو كتب التراجم والسير بخصوص الأعلام التى يترجمون لها؛ لذلك فهى تروى بضمير المتكلم، ويدخل فى هذا الإطار كتاب "الأغانى" لـ (أبى الفرج الأصفهانى) الذى يعتمد بوضوح على ما يرويه أصحاب التراجم من أخبار حول جوانب متعددة من حياتهم، وقد قرأ بعض الدارسين من أمثال "هيلارى كيلباترك"، (Hilary Kilpatric)[1] هذه الأخبار على أنها سيرًا ذاتية تقترب من مفهوم السيرة الذاتية فى معناه العام أكثر من اقترابها من السيرة الذاتية العربية الصريحة[2]، ولا تخفى الإشكالات النظرية العديدة التى تواجهها مثل هذه القراءة.

تبدو بداهة أن هذه الأخبار ذات طبيعة متشظية لا رابط بينها، الأمر الذى يجعل إمكانية جمع هذه الأخبار وترتيبها بطريقة سردية مطولة أمرًا مستحيلاً، وهو ما قامت به الدارسة "هيلارى كيلباترك" حين أعادت ترتيب الأخبار التى أوردها الأصفهانى مروية بضمير المتكلم على لسان بعض من ترجم لهم، فقامت، على سبيل المثال، بترتيب الأخبار المنسوبة إلى إسحاق الموصلى وابنه إبراهيم، وفى هذا الصدد تقول: "وطلبًا للوضوح، فقد قمت أيضًا بالتصرف فى ترتيب الشذرات التى جمعتها من أقوال إبراهيم وإسحاق السير ذاتية، وذلك لكى أقيم تدرجًا تاريخيًا" [3]، وهنا يطرح إشكالاً

---

(١) م. س. ص. ٦١.

(٢) مثل سيرة (أسامة بن منقذ)، كتاب الاعتبار، وسيرة (أبى حامد الغزالى) المنقذ من الضلال، وسيرة (ابن خلدون) التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، وغيرها من السير.

(٣) نقلاً عن صالح معيض الغامدى، م. س.ص. ص. ص. ٦٣–٨٠ .

آخر يتعلق بمسألة صعوبة، بل استحالة، التأكد من صحة هذه الأخبار فى كثير من الأحيان، وقد كان الأصفهانى مدركًا لإمكانية انتحال واختلاق هذه الأخبار التى يرويها المترجم له بضمير المتكلم، ويتضح ذلك من خلال بعض التعقيبات التى يوردها الأصفهانى عقب رواية بعض هذه الأخبار، والتى يعبر فيها عن تشككه فى صحة نسبتها إلى قائليها، فعلى سبيل المثال، نجده يعقب على الخبر الذى يرويه إبراهيم الموصلى حول زيارة إبليس له، بقوله: "هكذا حدثنا ابن أبى الأزهر بهذا الخبر، وما أدرى ما أقول فيه، ولعل إبراهيم صنع هذه الحكاية ليتنفق بها، أو صنعت وحكيت عنه[1].

(١) انظر: السيرة الذاتية فى الأدب العربى القديم، م. س. ص. ص. ٨٠-٨١ ، "الأغانى"، م. س. مج : ٥، ص. ٢٤٨.

الفصل الثانى

لماذا كتب ابن خلدون سيرته الذاتية ؟

١- لماذا كتابة السيرة الذاتية ؟

يتفرع السؤال الذى نطرحه: لماذا كتب عبدالرحمان بن خلدون سيرته الذاتية التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا[1]؟ إلى سؤالين، الأول هل كتاب التعريف لابن خلدون سيرة ذاتية؟ والثانى لماذا يلجأ إلى الكتابة عن حياته منذ الولادة حتى اللحظة التى يكتب فيها سيرته الذاتية[2]؟ أو لماذا يلجأ إلى الكتابة بضمير "المتكلم" "أنا" فى عصر كانت فيه الكتابة عن الذات بحميمية قصوى شيئًا يثير مجموعة من التحفظات؟ حيث كان للثقافة العربية الإسلامية فى القرن الرابع عشر تصور معين لمفهوم الكاتب ولمسألة الفحص المنهجي للذات والحديث عنها بتفصيل، ففحص الذات يعنى بهذا الشكل أو ذلك فحص الهُويَّة على المستوى النصى، وبلورة الوعى الفردى، وخلق نوع من التفاعل المستمر بين الذات وسياقها الوجودى والثقافى والتاريخى، وهذا بالضبط ما ينتج تفاعلاً جدليًا بين وعى الذات بهويتها، ووعى الفرد بذاته، ومن ثم نشأة خطاب التعبيرات الذاتية، والسعى لصياغة هوية فردية، واللحظة النظرية والفكرية، لحظة الوعى بالذات، لم تكن مؤهلة فى القرن الرابع عشر، عصر ابن خلدون، لإنتاج مثل هذا الخطاب، إذ إن نظريات الذات، وما أنتجته من وعى فلسفى بالذات يطيح بمركزيتها ويؤطر الأسئلة النوعية بخصوصها، وينتج التعبير حولها وحول مسارها، ويعرف ماهيتها وهويتها، فلم يكتب لها الظهور إلا فى نهاية القرن التاسع عشر والقرن

---

(١) عبدالرحمان بن خلدون (٧٣٢-٨٠٧ هـ)، التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١- رحلة ابن خلدون م. س.

(٢) هناك مجموعة من الباحثين والنقاد لا يعتبرون التعريف لابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا سيرة ذاتية إلا من باب التجاوز مثل بنسالم حميش فى بحث له غير منشور أمدنا به ويحمل عنوان "فى الأدب السير ذاتى ابن خلدون نموذجًا"، كما أن هناك من يعتبر التعريف نصًا ينتمى إلى أدب الرحلة، نذكر على سبيل المثال: د. حسين محمد فهيم فى كتابه أدب الرحلات (عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٩)، وقد كان ابن خلدون يعطى أهمية كبرى للرحلة فهو يقول فى كتابه المقدمة: "والرحلة لا بد منها فى طلب العلم، ولاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال" (المقدمة، تحقيق: على عبدالواحد وافى، لجنة البيان العربى، القاهرة ١٩٦٦، ص٤٠٧) وهذا ينفى ما كتبه حميش فى رواية العلامة (دار الآداب، بيروت ١٩٩٦): "لولا العمق لكنت لازقًا بالمظهر أو رحالة جماعة للحكايات..." (ص. ص. ٣٧-٣٨). إضافة إلى أن التعريف نشر على أساس أنه رحلة بعنوان "رحلة ابن خلدون" م. س.

العشرين، ويمكن تحديدها فى أربع نظريات بارزة؛ أولاها: النظريات الاجتماعية بشكل عام، ثم النظريات النفسية، وثالثًا: النظريات التى انطلقت من عمل البنيويين، والمجموعة الرابعة تلك التى بلورتها كتابات (ميشيل فوكو)، وسنتطرق لها بإيجاز قبل الإجابة على الأسئلة التى تتفرع عن سؤال: لماذا كتب ابن خلدون سيرته الذاتية التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا؟

٢- نظريات الذات والهوية:

تعتبر هذه نظريات متشعبة تشعب هُويَّة الفرد المركبة، وهويته المشتركة مع الآخرين، فانطلاقًا مما توفره المعارف الحديثة، فنظرية الذات والهوية مرآة تعكس تشظى الذات والهوية، كما تعكس ذلك التعالق القوى بين وحدة وتنوع كل ما هو إنسانى، نظريات انكبت على معرفة ماهية الذات التى تكتب نفسها فى النص السير ذاتى؛ لأنه بدون معرفة هذه الماهية لا نستطيع الحكم على تلك الكتابة أو صياغة تصور معرفى عنها[٢]، تنهض أولى هذه النظريات الاجتماعية، على التصور الماركسى الذى يعطى أهمية حتمية للعوامل الاجتماعية والاقتصادية فى صياغة الذات الفردية، وقد وضع (كارل ماركس) بذرة تشظى الذات الإنسانية عندما أكد أن البشر يصنعون التاريخ "وفق قاعدة من الظروف ليست من صنعهم، والتى صنعها لهم السياق الذى نشؤوا فيه، والميراث الذى آل إليهم من الأجيال السابقة، والطبقة التى ينتمون إليها، والنظام الاقتصادى والسياسى الذى يخضعون له، إلى آخر هذه العوامل"[٣].

---

(١) إدغار موران، تربية المستقبل، المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة: عزيز لزرق ومنير الحجوجى، دار توبقال للنشر، ٢٠٠٢، ص. ص. ٤٥ - ٥٦.

(٢) صبرى حافظ، رقش الذات لا كتابتها: تحولات الإستراتيجيات النصية فى السيرة الذاتية، مجلة البلاغة المقارنة، العدد: الثانى والعشرون، ٢٠٠٢- ص: ١٢.

(٣) نفسه، ص. ١٣٠.

أطاحت نظرية تشظي الذات وتحولها من معطى ثابت إلى معطى متحول "بالنزعة الإنسانية القديمة التى تقول بوجود جوهر إنسانى له قدر من الثبات؛ لأنه مستمد من الجوهر الأعلى أو المطلق، وله القدرة على تسيير التاريخ، وهو جوهر يتسم به كل فرد إنسانى لمجرد أنه إنسان.

واستقطبت زعزعة ماركس لهذه النزعة الإنسانية هجومًا شديداً على التصور للذات الإنسانية، ركز على أهمية دور الفرد الذى تلغيه الحتمية التاريخية التى تنطوى عليها الماركسية"[1].

وتتدرج النظريات الثانية فى سياق النظريات النفسية، وقد بدأت مع اكتشاف (سيجموند فرويد) للا وعى، الذى يؤكد أن "الذات أو الهوية الفردية تتبنى بطريقة رمزية على أساس رغباتنا ودوافعنا النفسية المراوغة، حيث تعمل وفق منطق مغاير للمنطق العقلانى الصارم[2]، وقد أجهز هذا التصور على إحدى مسلمات النزعة الإنسانية القديمة التى كانت تتبنى على أساس الذات العارفة والمتسقة مع ذاتها، وفقًا للمنطق العقلى الذى صاغه (ديكارت) فى الكوجيتو الشهير:"أنا أفكر إذن أنا موجود".

وقد طوَّر هذه النظرية النفسية عالم النفس الفرنسى (جاك لاكان) (Jacque Lacan) الذى كشف الطبيعة المتشظية للذات الإنسانية فى تصورات (فرويد) [3]، إن الذات، حسب (لاكان)، منقسمة على نفسها، إلا أنها تعيش ذاتها فى الوقت نفسه ككينونة متماسكة، إنها مزيج من الواقع والرغبة، إنها فى سعى مستمر للبحث عن الكمال والاكتمال، من أجل صياغة هويتها على الطريقة المرتجاة، إن الذات دائمًا متخيلة.

---

(١) نفسه، ص. ص. ١٣ - ١٤.

(٢) نفسه، ص. ١٤.

(٣) نفسه، ص. ١٤.

ويقف في مقدمة البنيويين الذين صاغوا النظرية الثالثة عالم اللغويات السويسري (فرديناند دو سوسير) الذي نبه إلى أن الإنسان لا يسيطر على المقولات التي يصوغها أو التصورات التي يعبر عنها في اللغة؛ لأنه لا يستخدم اللغة بطريقة فاعلة في توليد المعنى إلا بعدما يضع نفسه داخل بنية اللغة وأنساق الثقافة وبعد أن يخضع لقواعدها.

مما يعني أن اللغة سابقة علينا، وذلك ينفي كوننا نبتدعها، إنها أيضًا تتحكم، إلى حد كبير، في جميع تصوراتها، ومنها تصورنا لذاتنا، إن اللغة تصوغ هويتها عندما نستعملها، لذلك فبنية الهوية الثقافية للفرد تختلف عن بنية اللغة التي ينتمي إليها.

وفي ما يخص المجموعة الرابعة، والأخيرة، فإنها تنحصر في النظرية التي بحثت في سلالة الذات الحديثة، التي بلورها الفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو) (Michel Foucault)، الذي يرى أن الذات تتحكم فيها مجموعة من المؤسسات وتسيطر عليها كالمدرسة وأمكنة العمل والمستشفى والسجون وغيرها من المؤسسات العقابية، وتسيطر قوى الضبط هذه سيطرة مطلقة على ممارسات الإنسان الجنسية وتصوراته وعلاقاته، ويستخلص (فوكو) أن هذه المؤسسات الضاغطة تهدف إلى إنتاج فرد إنساني منمذج بتصرفات مضبوطة ومسيطر عليها، وهذا ما يضع الذات الفردية الحديثة داخل أركيولوجيا علاقات القوى والضبط تلك[1]، وتشترك هذه النظريات الأربع في الإطاحة بمركزية الذات وتجريدها من تماسكها الذي نادت به مركزيتها القديمة، كما أن هذه النظريات تشترك في عدة قواسم، منها أن الذات أو الهوية تخضع لصيرورة اجتماعية نفسية، وأن هناك نوعًا مغايرًا من الذات الحديثة المتحولة باستمرار، والمنخرطة في صيرورة الشيء الذي يطبعها بالتشظي والتفكك الذي تقاومه باعتبارها نصًا تتشكل بتأمل ذاتها باستمرار، وباللجوء إلى تأويلها عبر الكتابة، والسيرة الذاتية إمكانية من إمكانيات.

(١) نفسه، ص. ١٤.

٣- السيرة الذاتية والمؤلف مكسبان متأخران:

ترك ابن خلدون سيرة ذاتية تعتبر الأطول فى السير الذاتية القديمة، والأقرب إلى النوع، وهذا الأمر يكاد يكون معجزة، غير أن بعض الدارسين، منْ ضمنهم (فرانز روزينتال) (Franz Rosenthal)، أخذوا على رحلة الغرب والشرق افتقارها للمعلومات البيوغرافية، بالمعنى الدقيق للكلمة[١]، وفعلاً، إن سيرة ابن خلدون الذاتية تفتقر إلى معلومات تتعلق بطفولة الكاتب، وحياته العائلية، وانطباعاته وتأملاته الشخصية تجاه الأحداث، وهناك التركيز على ما أسماه "وولتر.ج. فيشل" (Walter. J. Fischel) بـ"الأحداث العارية"[٢]، وهذه قضايا سنناقشها بتفصيل، والاقتراب منها أكثر لحظة تحليلنا للطبقات النصية لرحلة الغرب والشرق، وسيسمح لنا هذا التحليل بملامسة مفاهيم أخرى نعتبرها من بين المفاهيم الأكثر التصاقًا بنوع السيرة الذاتية، وبأنواع التعبير الذاتى، أو الأدب الذاتي، وسنعمل الآن على القيام باقتراب تمهيدى من مفهومين خاصين؛ هما مفهوم السيرة الذاتية نفسه، ومفهوم المؤلف فى تلك الفترة الزمنية.

لقد عرفت الثقافة العربية الإسلامية موقفًا مختلفًا تمامًا عن موقف أوربا فى ما يخص السيرة الذاتية، أو كتب التراجم كما كانت تسمى، وفى ما يخص الحديث عن الذات، الذى لم يكن مقرونًا بأى متعة، فالحديث عن الذات، كما هو شأن الحديث عن الغير، " يلاقى إدانة دينية وأخلاقية لا غبار عليها"[٣].

---

(١) عبدالسلام الشدادى، ابن خلدون من منظور آخر، ترجمة: محمد الهلالى وبشرى الفكيكى. دار توبقال للنشر. ٢٠٠٠، ص. ١٥.

(٢) نفسه، ص. ١٥.

(٣) نفسه، ص. ١٦.

يحيلنا عبدالسلام الشدادى بهذا الخصوص إلى ابن الحاج الفاسى، المدخل، أربعة أجزاء، دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.ج. I ١٩٤، ج. III، ص. ص. ص.١٨٠، ٧٨، ٧١، ج. IV ص. ص. ٣٢٣، ٣٢٢، فهذا الكتاب الذى كتب فى القرن الرابع عشر، يعد فريداً من نوعه لمعرفة الحياة الأكثر انتشاراً فى بلاد الإسلام.

اقترنت السيرة الذاتية ابتداء من القرون الوسطى فى أوربا بطقس الاعتراف الذى كان واسع الانتشار، والذى أعطيت له قيمة كبرى وإيجابية "كتقنية إنتاج القول الحق" حسب تعبير (ميشيل فوكو)(١)، وبالتالى ففحص الذات فحصاً منهجيّا كان أحد المتع الكبرى للكتابة، وقد ازدهر هذا الفحص من خلال ثلاثة أشكال تعبيرية: المذكرات، الاعترافات واليوميات، داخل ثقافة دينية مسيحية تؤمن بطقوس الاعتراف، وفى هذا الصدد يرى" دوركايم" (durkheim) أن السيرة الذاتية تعرف انتشاراً فى ديانة معينة أكثر من ديانة أخرى(٢)، مثلما يعرف الانتحار نسبة عالية فى ديانة دون أخرى، والديانة المسيحية أقامت ضرورة الاعتراف، مرة فى السنة على الأقل، سنة (١٢١٥)، فى المجمع الدينى "لاتران" الرابع (le concil de latran) فكان تطبيق مبدأ الاستماع إلى الاعتراف الإجبارى والمفصل أكبر إنجاز حققته أوربا، وقد اعتبره بعض علماء اللاهوت السلاح النهائى ضد الشيطان(٣)، ولم يكن القرن السابع مشغولاً بالسيرة الذاتية، ولكنه كان يعطى أهمية كبرى لفضيلة "طلب المغفرة" (l' attrition) أو "التوبة" (la contrition) فى الاعتراف(٤)، وفى هذا السياق كان علماء اللاهوت يعطون قيمة قصوى "للوعى الفردى وللمسؤولية الشخصية" حسب تعبير "جان دوليمو" (jean delumeau)(٥)، فلم يعد امتحان الذات هذا دينيّا، بل عقليّا أيضًا، ورغم ذلك لم يكن الكاثوليكيون الفرنسيون الورعون كتاب سير ذاتية كباراً(٦)، لكن يبقى الاختلاف بين الحضارة العربية الإسلامية ونظيرتها الأوربية، أن هذه الأخيرة أنضجت جيداً مسألة الفرد (L' individu)، وأعطت قيمة إيجابية للحياة الفردية (la vie individuelle) ودلالة

---

(١) ابن خلدون من منظور آخر، م. س. ص. ١٦.

(٢) Jacques Lecarme et Eliane Lecarme- Tabone, l' autobiographie ,op. cit. p. 41.

(٣) Ibid. p. 41.

(٤) Ibid. p. 41.

(٥) Ibid. p. 41.

(٦) Ibid. p. 41.

ذلك أن مقولة "ا لفرد" هي "مكسب تأخر وهش في التفكير، ليست مشتركة بين كل الثقافات والحضارات، كما أنها ليست حاضرة في كل الأيديولوجيات"، بل إن فكرة الفرد يمكن أن تعرف اختلافًا ظاهرًا بخصوصها داخل الثقافة الواحدة، ويمكن أن يناهضها أكبر الكتاب والشعراء والمنظرين(١).

وقد أطاح التحليل النفسي الحديث بسوء الفهم الذي كان يحيط بالفرد، باعتباره دائرة ضيقة، فـ "غوستاف يونغ" (Gustave jung) مثلاً يرى أن الفرد كان دائمًا مخترقًا، بل وأيضًا منشطًا، باللا وعي الجمعي الذي كان ينكره "فرويد"(٢)(Freud)، كما أن جميع الأيديولوجيات التي عرفها القرن العشرين، سواء كانت يمينية أو يسارية، عملت على فضح النزعة الفردية، فأيديولوجيا اليمين رفعت شعارات الوطن والعرق والعمل والأسرة والأمة والكنيسة، في ما رفعت أيديولوجيا اليسار شعارات مختلفة تجسدت في: الطبقة، الشعب، الروح الجماعية والأقلية العاملة والمجموعة المتحدة، إذن، لقد أصبح الفرد "أسطورة رجعية"-mythe réac) tionnaire)(٣)، ولم يعد الفرد إلا واجهة النقاش مع الفلسفات الليبرالية الجديدة (les philosophie néolibérales)، إلا مع انهيار الأيديولوجيات، لكن صورة الفرد هذه التي ساهمت في نشرها وسائل إعلام لا تعطي للفرد أي أهمية، لا تحتوي على أي شيء مثير(٤)، وقد أثبت (ريجيس دوبري) (Regis debray) كيف أن وضعية الفرد في وسائل الإعلام أصبحت ذلك المستهلك المجهول(٥)، ومن هنا نتفهم ذلك الحرج الكبير الذي

---

(١) يوجد في الثقافة الفرنسية ذاتها ما يمكن أن ندعوه بالأيديولوجيا المضادة للسيرة الذاتية خصوصًا، ولكل تعبير ذاتي عمومًا، نذكر من بينهم الشاعر "بول فاليري" (paul valery)، و"ناتالي ساروت" التي لم تكن تحب مصطلح" سيرة ذاتية" رغم أنها كتبت سيرة حياتها في أكثر من رواية.

(٢) J. Lecarme et E.L. -Tabone, l' autobiographie ،op. cit. p. 45.

(٣) Ibid. p. 45.

(٤) Ibid. p. p. 45 - 46.

(٥) Ibid. p. 46.

نجده عند بعض كتاب السيرة الذاتية (خصوصًا الكاتبات) فى الحديث عن حياتهم الشخصية التى لا يمكن فصلها عن حياة الآخرين، وعن عيشهم اليومى، ويمكن فى هذا الإطار الاستشهاد بما جاء فى السيرة الذاتية للمثلة الفرنسية الشهيرة (سيمون سنيورى): (Simone Signoret) "أعتقد أننا نوجد من خلال الآخرين، وعندما نشرع فى سرد حياتنا فإننا نسرد حياة الآخرين، وحتى اختياراتنا التى نتخذها هى دائمًا اختيارات شخص آخر..."(١).

أما الذات فى الثقافة العربية الإسلامية فإنها تلك الحلقة الغائبة، فـ "أنا" تصبح غير ممكنة، فالمسلم يحل الذات المثالية (الإلهية) (Le moi idéal) محل ذاته، ما دامت هذه الـ "أنا" (Le je) تخالف مسندات الوحدة الإلهية(٢).

وهناك من الدارسين من أكد أن تلقى الأنا فى الإسلام بقى غامضًا؛ لأنها (الأنا) مرتبطة بدين ولغة ونمط حياة، وبوطن(٣)، وبالتالى يتم اعتبارها مكونا ضمن نسق أقوى وأعمق تذوب فيه وتضمحل، وكل إبراز لها فى وجود أو الخطابات يتعرض للإدانة الدينية والاجتماعية، فالذات ضمن هذا النظام فاعل ومفعول به فى آن واحد: "هل أنا حقًا موجود بهذا الشكل أم أن الله هو الذى يهدد وجودى؟"، وقد ساهمت مدرسة ابن عربى فى تطوير فكرة التمييز بين هذين المستويين، لكن التحليل يمكن أن يذهب أعمق من ذلك، فالوعى بالذات يمر بالضرورة باندماجية (introjection) وعى الآخر، بحيث أن الله يصبح ضمانة للتحقق الذاتى(٤)، وفى هذا السياق تكون لعبارة "هنرى كوربان" (Henry Corbin) دلالة كبرى: "ليس فى الوجود سوى الله (...) ولا ينبغى الخلط بين

---

(١) Simone Signoret, la nostalgie n'est plus ce qu'elle était, ed. du Seuil, coll. «Point-Actuéls», 1978, p. 13.

(٢) Malek Chebel, le sujet en islam, Paris; ed. seuil ,2002, p. 97.

(٣) Hichem Djait, la personnalité et le devenir arabo-islamique, Paris, ed. seuil 1977, p. 21.

(٤) Le sujet en islam, op. Cit. p. 97.

الوجود (L' être) والوجود (fait-être) فالتأكيد على وحدة الوجود ليس إطلاقًا التأكيد أن لا وجود سوى لفاعل واحد"[1]، إن الرهان الرئيسى لتعدد الأقنعة التى تحجب وتغطى هوية الذات، رهان الرمز فى فضاء المقدس[2]. فالذات في الإسلام، لا وجود لها إلا باعتبارها ذاتًا وظيفية دينية أمام وجود الدين والله، وليس لها وجود مجرد.

٤- إستراتيجية التصديق:

والمفهوم الآخر الذى تثيره سيرة ابن خلدون الذاتية التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا إلى جانب مفهوم الذات، هناك مفهوم الكاتب الذى كانت تنمو الوظيفة التى يقوم بها فى الغرب، حسب (ميشيل فوكو)، تنمو نحو التمايز ابتداء من القرن السابع عشر، منمحية شيئًا فشيئًا فى الخطاب العلمي، لكى تتقوى فى الخطاب الأدبى[3]، فما كان يطلب من الكاتب يتحدد فى أن يأخذ بعين الاعتبار وحدة النص الذى يوضع باسمه، ولا نجد شيئًا يشبه ذلك فى الثقافة الإسلامية للقرن الرابع عشر، حيث وظيفة الكاتب تندمج فى إستراتيجية التصديق على المعرفة التى كانت تختزل إلى السند، الذى يشكل شبكة من الفقهاء الذين قلدوا السلطة المعرفة، فالكاتب، إذن، كان لا يعتد به إلا بصفته وسيطًا حاملاً لمعرفة، ولم يكن ينظر إليه كفرد خالص، ولكن ينظر إليه باعتباره حلقة فى الشبكة الواسعة للسلطة التى يرتبط بها بالضرورة[4]، وداخل هذا النمط من

(١) Henry Corbin, le paradoxe du monotheisme, Paris, ed. de l' herne,1981, p. 84.
-voir, Malek ‹p.p. 98-99.

(٢) Le sujet en islam, op. cit. p. 98.

(٣) عبدالسلام الشدادى، ابن خلدون من منظور آخر، م. س. ص، ١٦، وللتوسع فى هذه النقطة: انظر Michel Foucault, l' ordre du discours .

(٤) نفسه، ص. ١٦.

الثقافة لا نجد تقريباً أى إشارة إلى الحياة الحميمية، لهؤلاء الذين كانت لهم حصة فى مجالات المعرفة المكتوبة وغيرها، فالمتوفر فقط يكمن فى تلك الإشارات البيوغرافية أو الوقائع التى تسمح بتصنيفهم فى فئة ما، ووضعهم فى مكانة معينة ضمن "الهيئة الأبدية للعلماء"[١]، أو المميزات التى تشير إلى دورهم الاجتماعى، ضمن هذا السياق الثقافى والدينى العام كتب ابن خلدون سيرته الذاتية التى لاحظت جُل الدراسات الخلدونية غياب المظهر النفسى عنها؛ لأن قصدها الأولى الذى رمى إليه "العبقرى المحير"، حسب تعبير "جاك بيرك"، هو تدقيق سيرته العلمية الخاصة، حيث أراد عن وعى أن يظهر كمؤرخ تشمل شهادته القصوى حياته الخاصة، لكن، رغم ذلك، ظلت النبوة تقليدية، وانمحت الأنا أمام الوقائع هذه الأنا التى اخترقها البعد التاريخى من الأول إلى الآخر[٢]، إنها سيرة ذاتية تحت تأثير وإشراف سلطة المعرفة التاريخية.

لقد أحس ابن خلدون طيلة حياته أنه مجتث من جذوره، وهنا نجد نعت "كوسمو بوليتى" مناسبًا جدًا، فهو لم يحس أنه كان فى بلده فى أى مكان من المغرب العربى، وقد عبر "فرانز روزانتال" (Franz Rosenthal) عن هذه الفكرة بيقين حاد: "مهما سمت مرتبته أو مرتبة أسلافه فى هذا البلاط أو ذاك من بلاطات شمال إفريقيا، ومهما كان دونوه من الحكام، فإن ابن خلدون لم يكن يحس نفسه مرتبطًا "بمجموعة أحاسيس" كما كان له أن يسميها، ولا بروابط إرث ثقافى مشترك، فقد كان يعتبر الحاكم مجرد رب عمل، ويعتبر مركزه عملاً ينبغى إنجازه لا أقل ولا أكثر، غير أن ولاءه الأساسى لإسبانيا وحضارتها كان ذا تأثير بالغ على شخصيته وعلى عمله أكثر بكثير من تأثير

---

(١) نفسه، ص. ١٦.

(٢) نفسه، ص. ١٧.

بعض المواقف النقدية التى صدرت عن عبدالسلام الشدادى بخصوص التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقًا الذى قدم حوله دراسات وأبحاث قيمة، إضافة إلى ترجمته لهذه السيرة الذاتية إلى اللغة الفرنسية، بعض مواقفه تتفق معها ونستلهمها فى مشروعنا التحليلى، خصوصًا عند وقوفه على بعض الخصائص الشخصية والطباعية لابن خلدون، وكذلك تقسيمه لحياته على مرحلة مغاربية وشرقية وأندلسية.

صلاته السامية" [1]، لقد كان ابن خلدون منعزلاً، وحسب "جاك بيرك" فتقلباته المتكررة، و"أنانيته" العميقة ستجد تفسيرها الحقيقى فى معارضته لوسطه، وفى تنافره وعدم تلاؤمه معه، فعبقرية ابن خلدون كان يعارضها مجتمع راكد يوجد فى قمة تفككه، وقد وصف عبدالسلام الشدادى هذا العبقرى قائلاً: "عبقرى منعزل مجبر على شق طريقه فى الزحام، سيعرف دومًا كيف يظهر بالشكل الأفضل، وكيف ينشرح، ربما مرحليًا، للعبة السلطة، هذه اللعبة الخطيرة والتافهة فى الوقت نفسه، مراقبًا ببرودة وانفصال عن الموضوع المراقب (...) إلى اليوم الذى ينسحب فيه بعدما "تعرض إلى الخطر فى كل مكان" وتعب من "الفتن العديدة"، انسحاب مؤثر عاد بعده إلى نفسه مشبعًا بالتجارب والملاحظات، فأطلق العنان لذهنه ليحاول "فهم وتفسير" قدر بلد يسود فيه الظلام والفوضى"[2].

ومن بين الدوافع التى كانت وراء كتابة ابن خلدون لسيرته الذاتية، نجد هذا التعبير عن العزلة وعن الاختلاف رغم أن مسألة التعبير عن الذات- التى لا يرد ذكرها فى النقد القديم - أخذت تتبلور مع السيرة الذاتية الحديثة، المبنية على الاختلاف، من يكتب اليوم حياته يسعى إلى إثبات تميزه عن باقى الناس، وبالتالى إثبات وحدته، فأن أسرد حياتى معناه أن أعلن، صراحة أو ضمنيًا، أننى أختلف عن باقى الناس، بل إن هذا الاختلاف يسوغ كتابة السيرة الذاتية"[3].

ويمكن أن يتجسد دافع كتابة السيرة الذاتية والحديث عن الذات فى الأدب القديم، لا فى الاختلاف فقط، بل على موضع الذات فى سلم ترتيبى "فأن أتكلم عن نفسى معناه فى هذه الحالة أن أعلن هل أنا أسمى، أرفع منزلة، أعلى مقامًا من

---

(١) ذكره عبدالسلام الشدادى، م. س. ص. ١٧.

(٢) ذكره عبدالسلام الشدادى، ص. ١٨، وللتوسع فى هذه النقطة انظر:

Jacques Berque, Maghreb et Histoire et sociétés. Alger, 1974, p. 52.

(٣) عبدالفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دراسات فى السرد العربى، دار توبقال للنشر، ١٩٨٨ص. ٧١.

شخص آخر أم لا، أعلى مقامًا أو أحط فى خاصية من الخاصيات، فى فضيلة من الفضائل أو رذيلة من الرذائل"[1].

و للاقتراب أكثر من الدوافع التى كانت وراء كتابة التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا سنقوم ببحث معانى ودلالات كلمة "تعريف" الواردة فى عنوان السيرة الذاتية، لكونها تعنى، من بين ما تعنيه[2]، أن ابن خلدون شخص معروف، ولكن بطريقة مشوهة، فيأتى الكتاب ليضع ويبرز التعريف الصحيح، ويرى (كيليطو) أن "هذا المدلول تؤيده عدة شواهد فى الكتاب، عدة مواضع تتميز بلهجة تبريرية، وهذه اللهجة تتجلى أكثر فى أثناء الفترة المصرية من حياة ابن خلدون، تكتسى هذه المواضع صبغة الاحتجاج والدفاع عن النفس، ورغم أن ابن خلدون لا يذكر بتفصيل وجهة نظر خصومه، إلا أنها تعمل فى الخفاء، وتظهر بمجرد أن ابن خلدون يقوم بالدفاع عن نفسه"[3]، إذن فـ التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا سيرة ذاتية كتبت لإحلال صورة صحيحة محل صورة يعتبرها ابن خلدون مشوهة وخاطئة، وهنا لا بأس أن نشير إلى الدوا فع القوية التى تكون وراء كتابة السيرة الذاتية، يرجع (ميشل فوكو) أصول السيرة الذاتية إلى العادة المسيحية التى تدفع بالمرء إلى الاعتراف بذنبه، ثم يقول له القس كيف ينبغى التكفير عن هذا الذنب، ثم يمنحه المغفرة[4]، وفى هذه الحالة لا نجد نموذجًا أكثر دلالة من القديس أوغسطين.

---

(١) Gustave von Grunebaun, L' islam médiéval, Paris, Payot,1962, p. 430.

– ذكره عبدالفتاح كيليطو، م. س. ص. ٧١.

(٢) يذكر عبدالفتاح كيليطو معانى ودلالات أخرى: التعريف يقتضى أن ابن خلدون غير معروف، مغمور، وأن التعريف يقتضى أن ابن خلدون يستحق أن يعرف، بل يجب أن يعرف وهو يستبعد المدلول الأول، إذ لا يتصور فى الأدب الكلاسيكى أن يتم التعريف بشخص مجهول، "ففى الماضى لم يكن ممكنًا كتابة سيرة ذاتية إلا إذا كان الذى يكتبها معروفًا بإنجازات وبكتب، أى إلا إذا كان مؤلفًا معترفًا بقيمته"(ص. ٧٣).

(٣) نفسه ص. ٧٤.

(٤) Michel Foucault, Histoire de la sexualité, Paris, Gallimard, 1976, p. p. 26- 27.

وهناك أيضًا الهدف التعليمي للسيرة الذاتية، أي أن الذي يقدم كتابة عن مسار حياته يقدم نفسه كنموذج يجب أن يحتذى، وهذا الدافع ينطبق على ترجمة "برزويه" الطبيب الواردة في المنقذ من الضلال للغزالي[1].

لعل الشهادة تعد التبرير الممكن لكتابة السيرة الذاتية في التعريف ... فهو الشهادة، ذلك أن دافع الاعتراف بالذنب غير وارد في سيرة ابن خلدون، كما أنه لم يكن يعتبر نفسه نموذجًا ينبغي تقليده، إلا أن هذه المسألة، كما يؤكدها (كيليطو)، جد معقدة؛ "لأنها مرتبطة بالأسئلة التالية: ما العبرة من كتابة التعريف"؟ ما الدرس الذي يسعى ابن خلدون إلى بلورته من خلال تأليف ترجمته؟ هل في التاريخ حقيقة، أو غاية، تسعى الجماعة إليها؟ ما العلاقة، عند ابن خلدون، بين النظرة إلى الفرد والنظرة إلى الجماعة ؟ ما الفائدة من كتابة التاريخ، سواء أكان هذا التاريخ فرديًا أم جماعيًا ؟[2]. إذن، أمام هذا التحليل، يبدو أن دافع الشهادة هو أقوى الدوافع التي كانت وراء كتابة ابن خلدون لسيرته الذاتية، فعالم العمران عايش أحداثًا سياسية وشارك فيها بحكم كونه عاشر ذوي الأمر في موقع هو قاضي قضاة المالكية الذي سمح له بمراقبة ما يجري عند من يصنعون التاريخ، لقد عاش ابن خلدون مواقف قصوى، كالمرض والموت والاعتقال والنفي، فكانت سيرته الذاتية آخر إشارة إبداعية يقوم بها على عتبة توديع الحياة، هو "التعريف" آخر نتاج ابن خلدون، الذي لم يفرغ من تأليفه - كما تشير أحداث فصله الختامي - إلا قبيل وفاته بشهور معدودة، أي في غضون (٨٠٨) هـ، الموافق لـ (١٤٠١) م، وعمره يناهز ستًا وسبعين سنة.

---

(١) الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، م. س، ص. ٧٥، و(كيليطو) يجد دافعًا ثالثًا وهو "الاعتقاد بأن الأحداث التي عاشها صاحب الترجمة مثيرة وجذابة، وهذا ما يبرر كتابة الرحلة، إن من يسافر بعيدًا يحب رواية ما شاهد، وفي أغلب الأحيان تكون الرواية شفهية، إلا أن الرحلة يقدر لها أن تكتب إذا كان صاحبها مؤلفًا معترفًا بقيمته "(ص. ٧٥) .

(٢) نفسه، ص. ٧٥.

ومن أقوى المؤثرات في مجرى حياة ابن خلدون نجد الموت، ففى سنة (٧٤٨) هـ/ (١٣٤٨)م، فقد أباه وهو في ريعان شبابه وأمه وبعض مشيختة التونسيين بسبب الطاعون الأعظم لمنتصف القرن الرابع عشر. وفى سنة (٧٧٦) هـ/ (١٣٧٥)م مات ذو الوزارتين، لسان الدين بن الخطيب، مغتالاً في زنزانة سجنه على يد عملاء أمير غرناطة (محمد الخامس)، وذلك بعد أن سلمه إلى هذا الأخير السلطان المرينى أبى العباس، مقايضًا به تأييده على العرش، ومعلوم أن صداقة كبيرة كانت ترتبط بين ابن خلدون وابن الخطيب، على الرغم من غيوم المنافسة السياسية، لكنها علاقة بين رجلين عظيمين قائمة على الاحترام المتبادل.

ولم تمض ثلاث سنوات على اغتيال ابن الخطيب، حتى اغتيل أخوه الأكبر "يحيى" بإيعاز من أبى تاشفين بن أبى حمو الزيانى، أمير تلمسان العبد الوادى.

وفى سنة (٨٧٦)هـ /(١٣٨٤)م، تلقى ابن خلدون الإذن باستقدام أسرته من تونس، وذلك بعد قبول السلطان أبى العباس الحفصى شفاعة السلطان المملوكى برقوق، إلا أن أسرته فنيت في غرق السفينة المبحرة نحو مرفأ الإسكندرية، ولم تصدر عن ابن خلدون فى مصابه الجلل سوى هذه الكلمات القليلة المقتضبة: "فكثر الشغب علىَّ من كل جانب، وأظلم الجو بيني وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد، وصلوا من المغرب في السفين، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، فذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم الجزع، ورجح الزهد"[١].

لقد كان كتاب السيرة الذاتية العرب يكتبون عن حياتهم تحت تأثير حوافز قوية، لكن بعض الكتاب كانوا يفصحون عن هذه الحوافز، والبعض الآخر لا يفصح، فتظل الغاية من تدوين السيرة الذاتية محلقة فى أجواء السيرة كلها، غير أنه يمكن الإشارة إلى ما فى السير الذاتية فى التراث العربى من سمات مشتركة تبعًا، للحوافز التى

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٥٩٥.

كانت وراء كتابتها، وتبعًا لهذه الحوافز يمكن تقسيم السير الذاتية فى التراث العربى إلى مجموعة من الأنواع[1]، فهناك نوع، السيرة الذاتية التبريرية، ويكتب للدفاع أو الاعتذار، مثل: سيرة (حنين بن إسحاق)، وسيرة (السموأل بن يحيى المغربى) وسيرة (الطبيب المصرى على بن رضوان)، وسيرة (المؤيد فى الدين داعى الدعاة والبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة للأمير عبدالله بن بلقين)، ثم سيرة ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا).

وهناك سير ذاتية كتبت بغرض اتخاذ موقف ذاتى من الحياة، وفى هذا النوع كتب كل من (محمد بن زكريا الرازى) سيرته الذاتية المعنوية بـ "السيرة الفلسفية" وكتب "الحارث المحاسبى" سيرته النصائح الدينية وكتب الغزالى المنقذ من الضلال، وابن الهيثم الذى ذكر سيرته الذاتية ابن أصيبعة فى كتابه "عيون الأنباء فى طبقات الأطباء"، وتصور هذه السير الذاتية المواقف الشخصية لأصحابها، والمحطات التى وصلوا إليها بعد طول بحث ومكابدة وتحر.

وكان لعامل التخفف من الانفعالات دور أكيد فى ظهور مجموعة من السير الذاتية، ومن أفصح من كتب فى هذا النوع "أبو حيان التوحيدى"، خصوصًا فى الصداقة والصديق وفى الإمتاع والمؤانسة، علمًا أنه لم يترك سيرة ذاتية مستقلة، والشى نفسه ينطبق على "أبى العلاء المعرى" فى بعض رسائله.

ونجد أيضًا من هدف إلى تصوير الحياة المثالية، مثل "عبدالرحمان بن الجوزيفى كتابه "لفتة الكبد فى نصيحة الولد"، والعلم الصوفى، وكذلك "عبدالوهاب الشعرانى" فى "لطائف المنن"، ويظهر هذا الهدف فى العديد من كتابات "الحلاج" و"ابن عربى" و"السهروردى"، وإلى جانب تصوير الحياة المثالية، وهناك من كتب سيرته الذاتية لتصوير الحياة الفكرية، وأدبنا القديم والوسيط يحفل كثيرًا بهذا النوع، وقد أفرد "ابن

(١) لتصنيف السير الذاتية فى التراث العربى، حسب الحوافز والدوافع، اعتمدنا كثيرًا على اللمحة التى قدمها الباحث يحيى إبراهيم عبدالدايم عن السير الذاتية فى الأدب الحديث، م. س. ص. ص. ٣٠-٤٢.

طولون" لهذه الغاية كتابه "الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون"، ومثله فعل "البيرونى"، "الرازى"، "السخاوى"، "السيوطى"...إلخ.

ويمكن إدراج كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وطوق الحمامة فى الألفة والألاف لابن حزم، والنكت العصرية لعمارة اليمنى، فى إطار السير الذاتية التى كتبت بهدف استرجاع الذكريات، فأسامة بن منقذ قدم لنا تصويراً حيّاً لشخصية الفارس الجسور، والفروسية العربية، وقدم ابن الحزم اعترافًا وبوحًا عن ذكريات شبابه العاطفية، أما عمارة اليمنى فتحدث عن ذكرياته مع الوزراء والكبراء فى أواخر العهد الفاطمى.

---

(١) نفسه، ص. ٤٤.

(٢) Thomas Clerc, Les écrits personnels, ed. Hachette, coll, ancrages, 2001.

(٣) Ibid. p. 39.

(٤) Ibid. p. 39.

الفصل الثالث

"التعريف" سيرة ذاتية سياسية

١- السيرة الذاتية السياسية فى الأدب العربى القديم:

أمكن الباحثين العرب[(١)]، أن يميزوا بين أنواع كثيرة من السيرة الذاتية فى الأدب العربى القديم، اعتماداً على خارطة واسعة ومتنوعة وغنية من السير الذاتية والمذكرات[(٢)]، والكتابات التى تعتمد على تسجيل المشاهدات والانطباعات الذاتية للحياة والوقائع، كبر شأنها أم صغر، وقد تحدث (أندرى موروا) (André Maurois)[(٣)]، عن نوع غريب من السيرة الذاتية أطلق عليه اسم "السيرة الذاتية الطبية"، وهى عبارة عن دراسات تبحث تأثير الغدد الصماء على شخصية الفرد، ودراسات عن الإفرازات الداخلية، إضافة إلى أنواع السير الذاتية الاجتماعية والجمالية والفلسفية، ولا تخلو

---

(١) انظر على الخصوص:

شوقى ضيف، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط ٤، ١٩٨٧.

عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان ١٩٩١.

إحسان عباس، فن السيرة، دار الشروق، عمان- الأردن، ١٩٩٢.

مصطفى نبيل، سير ذاتية عربية كتاب الهلال، دار الهلال، العدد: ٤٩٥- مارس، ١٩٩٢.

(٢) هناك اضطراب واضح على المستوى المصطلحى، فالعديد من الدراسات التى تناولت النثر العربى القديم، والمتصل منه بالأدب الشخصى على الخصوص لا تتوقف كثيراً على تدقيق مصطلحاتها، فهى لا تفرق بين السيرة، والسيرة الذاتية والمذكرات، ونذكر على سبيل المثال السيرة الذاتية للأمير عبدالله بن بلقين بن زيرى التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة التى كتبها فى غرناطة ما بين عامى (٤٨٧ - ٤٨٨) هـ تقريباً، وقد ساهم فى صرف اهتمام النقاد والقراء عموماً بهذه السيرة الذاتية المهمة كونها مصنفة فى جنس المذكرات، وهو تصنيف وضعه محققها (ليفى بروفنسال) فى العنوان الرئيسى مذكرات الأمير عبدالله، والمذكرات توحى باقتراب السيرة الذاتية لـ (ابن بلقيه) من مجال التاريخ وابتعادها عن مجال الأدب، ويرجع ذلك، ربما، إلى أن المذكرات "من أكثر الأشكال الأدبية استخداماً من قبل رجال السياسة فى كتابة تجاربهم السياسية، وكان الأولى بـ (بروفنسال) أن يحافظ على العنوان الأصلى لهذا الكتاب وهو التبيان ... (انظر: صالح معيض الغامدى، الممكن والمستحيل فى السيرة الذاتية، مجلة "جذور"، ج: ٧، مج: ٤ ديسمبر ٢٠٠١، ص. ٣٧٤.

(٣) أندرى مورا، أوجه السيرة، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ترجمة: ناجى الحديثى، ١٩٨٧، ص، ص. ٦٥- ٦٦.

هذه السير الذاتية من المتعة والفائدة، غير أن التأكيد فيها على الجانب التحليلى أو العلمى سيقلل حتمًا من الجهد الأدبى الذى يبذل فى تأليفها، "فكلما زاد كون السيرة الذاتية فرعًا من فروع العلم، قل كونها فرعًا من فروع الأدب"(١)، وهى ملاحظة صحيحة فى حالة السيرة الذاتية التى تحتوى على حقائق علمية، وتنسحب، على الخصوص، على سيرة ابن خلدون الذاتية التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا التى كتبت تحت سلطة الوعى التاريخى، الشىء الذى يجعل بوسعنا التعرف على حقيقة المراحل السياسية التى تحدث عنها ابن خلدون، وطبيعة الروابط بين البلدان، وماهيات السُّلط السياسية ودواليب الحكم آنذاك، وهى كتابة، رغم أنها ذاتية، تكشف حقيقة زمن مضى برجالاته وصراعاته وحقائقه السياسية، وتأتى السيرة الذاتية السياسية فى الأدب العربى القديم ضمن زخم من أنواع السير الذاتية الأخرى، وعلينا ألا نغفل الأنواع الأدبية الأخرى التى أدت إلى الوظيفة التى تسعى إلى أدائها السيرة الذاتية، أى سرد تاريخ الذات، ومنها السيرة الغيرية التى كانت غالبة على السيرة الذاتية فى الأدب العربى القديم، والشعر الذى تضمن فى أعطافه "بذور السيرة الذاتية قبل أن تستقل فنًّا من فنون القول، حيث ظهرت شخصية العربى من شعره، سواء فى تجاربه الذاتية أو فى تجاربه الموضوعية، ولكنه ما لبث أن أدرك أن العمل الفنى يصوغ وحدة على مستوى مختلف مع الحقيقة الواقعية، فاتجه إلى كتابة السيرة الذاتية، التى عنى بها العلماء والمتصوفة ورجال السياسة بخاصة"(٢).

ويذكر (شوقى ضيف) أن لكل طائفة منهجها الخاص فى كتابة السيرة الذاتية، "فالفلاسفة والعلماء، إنما عنوا بالتحدث عن حياتهم الفلسفية أو العلمية (...)، وقلما وقف شخص منهم عند طفولته ونشأته والمؤثرات الخارجية المختلفة التى وقعت عليه وأثرت فى حياته، ويظهر أنهم لم يفطنوا إلى ضرورة ذلك، ومن ثم كانت هذه التراجم

---

(١) نفسه، ص. ٦٦.

(٢) عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، م. س، ص. ٥١.

فقيرة من حيث المادة النفسية والاجتماعية، إذ تصبح فى أغلب الأمر ثبتًا لمؤلفات الفيلسوف أو العالم غير معنية بشىء من بيئته أو حياته"[1]، أما المتصوفة فى سيرهم الذاتية فقد عنوا بالحديث عن تجاربهم الروحية "وكأنهم يريدون بها جذب الناس إلى طريقهم وما فيها من مواهب ومشاعر ومقامات ومشاهدات، وقلما اعترفوا بأخطائهم أو تحدثوا عن نقائصهم (...)، وتجاربهم محدودة لا تخوض بنا فى الحياة البشرية العامة بكل ما فيها من قبح وحسن ونقص وكمال، وضعف وقوة"[2].

ويلاحظ (شوقى ضيف) على السير الذاتية التى كتبها الساسة ورجال الحرب ملاحظة دقيقة، وهى كون هذه السير الذاتية تتحدث عن تجارب خارجية فى الحياة السياسية والحرب، غير أنها "تصور جوانب مهمة من أحداث حياتنا فى العصور الوسطى، إذ اتُّفِقَ أن من بين هؤلاء الرجال دعاة إلى بعض النحل الدينية السياسية، وأبطال أسهموا فى الحروب الصليبية غربًا وشرقًا، فى الأندلس والشام، فقدموا لنا مذكرات ووثائق تاريخية، خطيرة، وإن كانوا قلما قدموا حياتهم الخاصة فى شكل يوميات دقيقة"[3].

إن أقدم صورة للمذكرات السياسية والحربية ما كان يقصه أبطال العرب فى الجاهلية والفتوح الإسلامية عن مغامراتهم فى الحرب والقتال، ويجد الباحث الكثير من هذه القصص فى كتب التاريخ وسيرة الرسول (ص)، ومنذ العصر العباسى أخذ العرب يسجلون هذه القصص والأخبار، بل إنهم أخذوا يكتبون التاريخ لتأمل دورهم الحضارى ضمن الأمم، ودور دولهم وملوكهم وأمرائهم فى صنع التاريخ وما مر بهم من أحداث، وقد أبانوا عن سلامة حس تاريخى دقيق مثل آلة راصدة، يمكن القول دون مجازفة إن كتب العرب التاريخية بمثابة خزان كبير للتاريخ السياسى العربى بكل

---

(١) شوقى ضيف، الترجمة الشخصية، م. س. ص. ٥.

(٢) نفسه، ص. ٥.

(٣) نفسه، ص. ٦.

حقائقه ووقائعه، ويكفي ذكر: الطبري ومسكويه، والبلاذري، واليعقوبي، والمسعودي، وابن الأثير، وابن حيان، وابن تغري بردي، وابن الخطيب، وابن خلدون[1].

لم يبق رجال السياسة في فترة لاحقة مجرد متفرجين، بل بدءوا يعنون بكتابة مذكراتهم عن الأحداث السياسية والحربية التي شاركوا فيها. حيث نجد في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) نجد بعض السياسيين يكتبون مذكراتهم، ليقدموا الأحداث من موقع المشارك أو المشاهد، ومن أوائل من عنوا بذلك المؤيد في الدين داعي دعاة الفاطميين، أو زعيم هؤلاء الدعاة المتوفى سنة (٤٧٠) هـ/(١٠٧٨)م، واسمه (هبة الله بن داوود بن موسى)، وتسمى مذكراته سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ويقص فيها مغامراته في سبيل الدعوة للفاطميين خلفاء مصر المشهورين في مصر وفارس وأعالي الشام والموصل والعراق.

تعد هذه السيرة كتاب أقرب إلى المذكرات منه إلى السيرة الذاتية؛ لأنه يحكي عن الجهود السياسية لداعي الدعاة في حقبة من حياته امتدت من سنة (٤٢٩) هـ/(١٠٣٨)م إلى سنة (٤٥٠) هـ /(١٠٥٨)م، ولا نجد أي ذكر لمراحل حياته قبل هذه الحقبة وبعدها[2]، وقد تبدو هذه ملاحظة شكلية، ولكنها ترتبط باتجاه غالب على السيرة الذاتية القديمة، حيث يغيب، أو يكاد، محكي الطفولة عن هذه السير، وهو محكي يتناول في العموم، فترة قصيرة زمنيًا، ويتناول موضوع تعثر الطفل وإخفاقاته الأولى[3]، وسنتطرق إليه بالتحليل في فصل خاص من فصول تحليل سيرة ابن خلدون الذاتية، باعتبارها نصًا نموذجيًا لغياب محكي الطفولة عن السيرة الذاتية العربية القديمة؛ ولأن المحكي له ملامح بنائية خاصة، إن لم يكن يشكل جنسًا أدبيًا قائمًا بذاته، له تقاليده الخاصة، حدد لها الباحث "تيتز روكي" (Tetz rokee) ثلاثة ملامح رئيسية هي:

---

(١) نفسه، ص. ٩.

(٢) نفسه، ص. ٨٦.

(٣) صالح معيض الغامدي ،السيرة الذاتية العربية في الدراسات الغربية الحديثة، علامات في النقد، ج. ٤٤، م. ١١ يونيو ٢٠٠٢، ص. ص. ١٠٧٨ – ١٠٩٢.

(أ) الأثر القوى لمكان الولادة.

(ب) الهروب من الفقر.

(ج) التمرد على الأسرة.

أما خصائصها الشكلية فلخصها في: قصيرة زمنًا، روائية سردًا، وملحمية بناءً[1]، وفي القرن نفسه نجد مذكرات سياسية لـ (عبدالله بن بلقين)، التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة ألفها فى أغمات بالمغرب، بعدما خلعه عن عرشه المرابطون، بقيادة يوسف بن تاشفين سنة (٤٨٣) هـ/ (١٠٩٠)م، ويسجل عبدالله بن بلقين فى مذكراته[2]، من جهة، تاريخ أسرته من بنى زيرى بشكل دقيق، تاريخ سياسى ملىء بالملاحظات الطريفة عن هذه المرحلة من تاريخ الأندلس، فقد عرض بالتفصيل تاريخ دولتهم وعلاقاتها بجيرانها من الأندلسيين والمسيحيين فى السلم والحرب[3]، والتبيان ... من جهة أخرى، يغد مادة وفيرة لمن يريد أن يؤرخ لعصر أمراء الطوائف تاريخًا صحيحًا وثيقًا، وبجانب ذلك يتضمن مجموعة من الوثائق النفسية عن هذه الحقبة[4]، ومن السير الذاتية السياسية التى عرفها القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) نلتقى "بنص عمارة اليمنى" (ت سنة (٥٦٩) هـ/ (١١٧٣)م) الذى يحمل عنوان "النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية"، وهو "ليس

---

(١) نفسه، ص. ١٠٨٧، ويذكر الغامدى فى بحثه المهم ناقدًا آخر هو (دويغت ف. رينولدز)، خص هذا الموضوع ببحث عنوانه الطفولة فى ألف عام من السيرة الذاتية العربية، حاول فيه تحديد موضوعات الطفولة التى تعنى بها السيرة الذاتية القديمة.

(٢) يتحدث (شوقى ضيف) فى كتابه الترجمة الشخصية عن التبيان ... لـ (ابن بلقين) باضطراب مصطلحى ظاهر، فتارة ينعته بالمذكرات وتارة بالكتاب وأخرى بالسيرة الذاتية، ويرجع ذلك، ربما، إلى اللحظة النظرية والنقدية التى ينتمى إليها ضيف، وهى لحظة لم تكن مؤهلة كثيرًا لإنتاج خطاب نقدى دقيق على المستوى المفاهيم والمصطلحات.

(٣) الترجمة الشخصية، م. س، ص. ص. ٨٨ – ٨٦.

(٤) نفسه، ص. ٩٠.

طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء، وإنما هو فى أخباره هو نفسه (عمارة اليمنى)، وبعبارة أدق هو ترجمة ذاتية له، وهى ترجمة سياسية"[١].

بعد أن تحدث (عمارة) فى أوائل سيرته عن مولده ونشأته، فهو من تهامة اليمن، وبعد تعريفه لآبائه الذين كانوا سادة قومه، حيث كان منهم العلماء المصنفون، ينتقل إلى الحديث عن تجاربه السياسية من خلال أتصاله بملوك اليمن وآل زريع خصوصاً، ثم يصور أحوال مصر عندما بعث به صاحب مكة رسولاً إلى الفائز خليفة مصر الفاطمى حينئذ، ثم يعود إلى مكة، ثم مسقط رأسه، ثم زبيد، ويحج فى سنة (٥٥١) هـ/ (١١٥٦) م، فيرسل به صاحب مكة إلى مصر فى سفارة ثانية، فيقدم (عمارة اليمنى) تفصيلاً عن نفسه وعن علاقته بالوزراء فى مصر، مضمناً سيرته ما نظمه من قصائد فى هذا الوزير أو ذاك أو فى هذا الأمير أو ذاك، ولما عرف فيه صلاح الدين ووزير القاضى الفاضل تعصبه إلى الشيعة، دفعاه حتى اشترك فى مؤامرة أراد بها قلب نظام الحكم والرجوع بمصر إلى الدعوة الفاطمية، واكتشفت المؤامرة، فصُلبَ فى جماعة من أصحابه[٢].

ونجد أيضاً من السير الذاتية التى عرفها القرن السادس الهجرى سيرة (أسامة بن منقذ) المتوفى سنة (٥٨٤) هـ/ (١١٨٨) م، وهى كتاب الاعتبار، والتى إذ ندخلها فى جنس السيرة الذاتية، من باب المفهوم الشامل للجنس، وأيضاً لاستجابتها لميثاق السيرة الذاتية[٣]، كما حدده (فيليب لوجون)، والذى بموجبه يتطابق

(١) نفسه، ص. ٩١.

(٢) نفسه، ص. ٩٣.

(١) Ph. Lejeune, le pacte autobiographique, ed. seuil,1975.

ويؤكد (لوجون) فى كتابه هذا، وبدون تردد، أن "النجاح فى إعطاء صيغة واضحة وكلية للسيرة الذاتية سيكون فى الحقيقة فشلاً" (ص: ٤٥)، غير أنه يعتبر من الضرورى توفر شرطين لا مناص منهما: أولهما – تطابق المؤلف والسارد، وثانيهما – تطابق السارد والشخصية؛ فبهذا التطابق تكون السيرة الذاتية، ومن دونهما لا تكون إطلاقاً، وهو الخيط الذى يقودنا فى تناول وتحليل مجموعة من النصوص الشخصية فى الأدب العربى القديم، والحديث أيضاً.

السارد مع الشخصية الرئيسية، والتى تتطابق بدورها مع المؤلف (السارد = الشخصية الرئيسية = المؤلف).

ويحكى (أسامة بن منقذ) عن تجاربه وأعماله التى تولاها لأمراء مختلفين كان آخرهم صلاح الدين الأيوبى، متحدثًا أيضًا عن جوانب اجتماعية ونفسية من حياته التى امتدت من سنة (٤٨٨) هـ/ (١٠٩٥) م إلى سنة (٥٨٤) هـ/(١١٨٨) م.

يعد "كتاب الاعتبار" لدى المستشرقين مادة غنية ؛"لأنه يؤرخ من خلال السيرة الذاتية لمؤلفه القائد لفترة من أهم وأخصب الفترات التاريخية ذات الملامح المشتركة بين المسلمين والأوربيين الذين جاءوا إلى ديار العروبة والإسلام"[1].

كان (أسامة بن منقذ) من المقربين من صلاح الدين الأيوبى لخبرته وتجاربه مع الصليبيين، "فكان هذا الأخير يستشيره ويستأنس برأيه، وإذا غاب عنه فى غزواته كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته واستخراج رأيه فى كشف مهماته وحل مشكلاته، وقد كان صلاح الدين قد وهبه ضيعة من أعمال المعرة قال إنها كانت قديمة تجرى فى أملاكه، وأعطاه بدمشق دارًا وأدرارًا"[2].

وكان (أسامة بن منقذ) "إذا أراد أن يتقرب إليه (إلى صلاح الدين) يحثه على الجهاد"[3]؛ وذلك دلالة على أن أسامة كان مجاهدًا كبيرًا ومحاربًا لا يخاف ركوب الأخطار الحربية؛ لذلك فكتابه الاعتبار، الذى نقدمه اليوم باعتباره سيرة ذاتية، عرف

---

(١) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، م. س.

(٢) نفسه، ص. ٢١م، من تقديم المحقق الدكتور قاسم السامرائى.

(٣) نفسه، ص. ٢١م، اقتبسه المحقق عن النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، (القاهرة ١٣١٧هـ)، ص. ص. ١٦-١٧.

شهرة واسعة ورواجًا كبيرًا بين المؤرخين المسلمين والمستشرقين المعنيين بتاريخ الحروب الصليبية(١).

٢ - التعريف... سيرة ذاتية سياسية:

إن معرفة هل الكتاب الذى نقرأه سيرة ذاتية أم جنسًا أدبيًا آخر، من بين المشاكل التى تطرح أمام القارئ، خصوصًا فى حالة غياب أى إشارة واضحة علي الغلاف(٢)، وفى هذه الحالة يتم الاحتكام إلى التعريف الذي وضعه (فيليب لوجون) للسيرة الذاتية "حكى استعادى نثرى يقوم به شخص واقعى عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"(٣)، وهى معايير بموجبها يتحدد شكل اللغة باعتبارها أولاً قصة، وثانيًا منثورة لا منظومة(٤)، ويكون موضوعها هو حياة المتكلم الفرد، أما وضعية المؤلف فيجب أن تكون متطابقة مع السارد الذى بدوره يجب أن يكون متطابقًا مع الشخصية الرئيسية.

---

(١) جرت العادة أن الاهتمام العربى أو الغربى بالسيرة الذاتية العربية القديمة لا يتم بقصد دراسة هذا الجنس الأدبى بقدر ما يتم باعتبارها نصًا تاريخيًا أو فلسفيًا أو صوفيًا، فأهميتها كانت مرتبطة بما تحتويه من معلومات وحقائق عن هذه الموضوعات وغيرها "فبحثهم مثلاً فى تاريخ الحملات الصليبية قادهم بالضرورة إلى تناول سيرة (أسامة بن منقذ) و(عمارة اليمنى) و(عماد الدين الكاتب الأصفهانى) (...)، ودراستهم للطب والفلسفة الإسلامية قادتهم إلى الاهتمام بسيرة (الرازى) و(ابن الهيثم) و(ابن سينا) (وابن رضوان)، واهتمامهم بالتصوف قادهم إلى سيرة (المحابى) و(الغزالى) ..."(انظر صالح معيض الغامدى، م. م. ص. ١٠٧٨).

(٢) Thomas Clerc, les écrits personnels,op. cit. p. 77.

(٣) Ph. Lejeune, Le pacte Autobiographique,op. cit. p. 14.

(٤) وهى نقطة أثارت مجموعة من الانتقادات رغم نجاعتها النظرية، فالسيرة الذاتية يمكن أن تكون فى السينما أو فى الشعر أو فى الرسوم المتحركة، وبخصوص هذا التجلى الأخير نشير إلى أن الدكتور سعيد علوش ينجز بحثًا معمقًا حول السيرة الذاتية فى الرسوم المتحركة، وهو كتاب كان ماثلاً للطبع إلى حدود كتابة هذه السطور.

وغياب أى إشارة أجناسية عن غلاف التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا يطرح مسألة التجنيس[١]، رغم انتمائه الظاهر لجنس السيرة الذاتية، أمر يبرره غنى الطبقات النصية بكل مكوناتها، واتساع مجاله الدلالى والأجناسى، وهى أشياء لصيقة بصميم كتاب خالد وعظيم مثل التعريف...غير أن إعادة نشره ضمن خانة أجناسية أخرى هى"الرحلة" تبقى مسألة فيها الشىء الكثير من المجازفة، ما سنتطرق إليه لاحقًا.

إن ما يبرر تصنيف السيرة الذاتية إلى أنواع وضروب كونها نمطًا من الخطاب أكثر منها جنسًا أدبيًا[٢]؛ وبذلك فهى تفرض تعاملاً قرائيًا دقيقًا لتجنب أى سوء استعمال لمفهومها وأنماط خطابها، وفى هذا الإطار لا يكفينا فقط الاستعانة بحد السيرة الذاتية لتثبيت ملاءمة المفهوم؛ لأننا بصدد" هوية سردية لا يمكن ضبطها بطريقة شكلية بحتة"[٣].

يتعلق الأمر فى هذه الحالة بنص يسعى إلى تأكيد التطابق **l' identité**، ضمن التسمية الشهيرة التى أطلقها (فيليب لوجون) "ميثاق السيرة الذاتية" وهو ميثاق لا يكتنفه أى غموض، إذ إن العلاقة بين مفاهيم هذا التطابق الثلاثى (المؤلف = السارد = الشخصية الرئيسية) واضحة ومؤكدة فى نص التعرف.... فضمير المتكلم "أنا"، الذى هو ضمير مرجعى، يحيل على ضمير متكلم ملموس هو "ابن خلدون" وليس على

(١) تم إعادة نشر "التعريف..." تحت تجنيس الرحلة "رحلة ابن خلدون"، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، حررها وقدم لها: نورى الجراح، دار السويدى للنشر والتوزيع (أبو ظبى)، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣.

(٢) Les écrits Personnels, op. cit. p.19.

انظر أيضًا ترجمة فصل من هذا الكتاب:

– الكتابة الذاتية: أيضًا إشكالية المفهوم والتاريخ، ترجمة: محمود عبدالغنى، إشراف: عبدالقادر الشاوى، منشورات "الموجة"، الرباط، ٢٠٠٣.

(٣) Ilbid bid. p. 19.

شخصية متخيلة؛ "لأن السيرة الذاتية جنس أدبى مرجعى، فعندما تكون العلاقة واضحة بين الـ "أنا" واسم المؤلف، يكون المشكل محلولاً"[1]، وهنا بطبيعة الحال"لن تدخل فى الاعتبار النصوص المجهولة والمحكيات التى لا تحمل أسماء الشخصيات، والنصوص التى تحمل ظلال السيرة الذاتية ولكنها لا تلتزم بالميثاق"[2]، فيكتنف الغموض مقولة التطابق، فـ (عبدالرحمان بن خلدون) هو مؤلف وذات وموضوع نص التعريف فى آن واحد، مما يجعلنا أمام نص سير ذاتى حقيقى، وليس فقط أمام ملفوظ بتلوين ذاتى، ومن هنا نفهم "القوة المرجعية الذاتية لضمير"أنا"، والطاقة التى لضمير المتكلم فى توثيق نفسه وفى فرض عالم مرجعى محتمل"[3]، فالسيرة الذاتية، على عكس كثير من الأجناس الأدبية، هى متتالية من الملفوظات الحقيقية؛ لأنها تنهض على تلفظ يتحدد بالتزامه بالحقيقة، وبالنتيجة، على خطاب ينتج باسم الحقيقة"[4]، وهذا الالتزام الجوهرى بالمرجعى[5]، هو ما يبعدها عن التخييل، ولا بد لهذا الإبعاد أن يمر عن طريق الإحالة على ضمير المتكلم[6]، وهذا ما سندرسه فى جزء خاص بحدود التخييل واللا تخييل فى سيرة ابن خلدون الذاتية.

---

(١) Ibid. p. 20.

*باستثناء عندما يتعلق الأمر بالتخييل الذاتى 'autofiction '، كما رأينا سابقًا فى فصل "من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتى".

(٢) Ibid. p. 21.

(٣) Ibid. p. 21.

وهذه القوة الرجعية التى نمدحها نحن فى السيرة الذاتية، شكلت نقطة إزعاج للعديد من النقاد والمنظرين. فكانت (هامبورغر) مثلا، وهى ناقدة أمريكية شهيرة، تستثنى السيرة الذاتية من الأجناس الأدبية؛ بسبب وفائها لمفهوم المحاكاة فى الأدب. انظر:

- Kate Hamburger, Logique des geures littéraires, ed, seuil, Paris,1986.

(٤) Les écrits personnels, op. cit. p. 21.

(٥) نفضل هنا كلمة "مرجعى" عن "واقعى"؛ لأن الكتابة الشخصية عمومًا، والسيرة الذاتية خصوصًا، هى كتابة مرجعية وليست واقعية، فالمرجع هو المهيمن وليس الواقع.

(٦) Les écrits personnels, op. cit. p. 20.

لنتأمل الآن صفة "سياسية" التى ألحقناها بـ التعريف .... بين أيدينا الآن نص كتب جُله فى ضيعة الفيوم بمصر التى عاش فيها من عام (٧٨٤) هـ /(١٣٨٢)م، إلى أن توفى سنة (٨٠٨) هـ/(١٤٠٥) م، وهى المرحلة التى فيها أضاف ونقح كتابه العبر، وخط سيرته الذاتية "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا".

غادر (ابن خلدون) المغرب متوجهًا إلى مصر، هربًا من السياسة، وسوف تصور سيرته الذاتية السنين التى قضاها "بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية" حسب تعبيره. وما هذا التصوير سوى جانب واحد فقط من صورة أوسع.

ليس صعبًا أن نسلم إذن بكون التعريف... سيرة ذاتية سياسية، مثلما لن يجد باحث آخر صعوبة فى إثبات أنها سيرة ذاتية علمية، ولن يجد ثالث أدنى حرج من تأكيد أنها رحلة بين السياسة والعلم وما يتخللها من إدراكات حسية بالحياة، غير أن ترجيح كون التعريف سيرة ذاتية سياسية" يرجع إلى كون أكبر مؤرخى العصور الوسطى الأخيرة عند العرب قد سجل أحداث حياته السياسية من خلال وظائفه المختلفة فى بلاد المغرب وغرناطة فى الأندلس وإشبيلية، ثم العودة إلى المغرب والإقامة فى قلعة ابن سلامة شرق تلمسان فى شمال الجزائر، حيث كتب تاريخه المشهور، ويقصد فى العام (٧٨٤) هـ/ (١٣٨٢)م الحج، ولكنه يقيم فى القاهرة ويدرس فى جامعها "الأزهر" قبل أن يعينه السلطان "برقوق" قاضيًا لقضاة المالكية، ويرافق فى سنة (٨٠٣)هـ/(١٤٠٠) م السلطان الناصر إلى دمشق فى حملته على تيمورلنك، ثم لقاؤه بهذا الطاغية، وأخيرًا عودته إلى القاهرة حيث توفى بها سنة (٨٠٨)/ (١٤٠٤)م، إننا إذن "بإزاء شخصية سياسية كبيرة، ومن هنا يكون لما تكتبه أهمية خطيرة فى بيان الشئون السياسية لدول المغرب ودول المشرق[1]، فقد تقلد المناصب الكبيرة هنا وهناك، ورأى أمام عينيه كل ما كان فى هذه الدول من عوامل قوة أو انحلال أو ضعف،

---

(١) برحلة ابن خلدون إلى الشام ومشاهدته للأحداث الجسام التى وقعت فيها، وتسجيله لوقائعها، لم يعد مؤرخ المغرب والأندلس فحسب، بل ومؤرخ المشرق العربى أيضًا.

وأعانه ذلك على كتابة مؤلفه العظيم فى التاريخ، مقدماً له بمقدمته المشهورة، وهى أروع ما كتبه العرب فى السياسية والاجتماع"[1].

غير أن ما يلاحظ على شخصية ابن خلدون وسط هذه الأحداث المتتالية والصاخبة هو غياب "الطبيعة النورية القلقة والجياشة"[2]، وهذا الغياب من "المميزات الواضحة فى السيرة الذاتية فى الأدب العربى القديم"[3]، فما يطبع شخصية ابن خلدون في أثناء مواجهته للأحداث الخطيرة فى حياته هو الاستسلام، وإذا "واجهته المشكلة تنحى عنها لتمر، أو اختار الهجرة لئلا يضعف إزاءها، وهو يعزل من المناصب ثم يولى، ثم يعزل، ثم يولى، ويتقبل هذه الأمور كأنها أحداث تجرى بمعزل عنه وعن تفكيره وتقديره، ويغرق أهله جميعًا فى سفينة قادمة من تونس، فإذا جوابه على هذه الفاجعة أنه يريد زيارة مكة ليتعزى عمن فقدهم، ومعنى هذا أن الإحساس بالصراع الذى يخلق الفن ضعيف"[4]، ولا يظهر عنصر الإحساس بالصراع والتعرى النفسى والاعتراف المخلص إلا فى السير الذاتية الروحية والفكرية [5].

(١) شوقى ضيف، الترجمة الشخصية، م. س. ص. ١٠٠.
(٢) إحسان عباس، فن السيرة، م. س. ص. ١١١.
(٣) نفسه، ص. ١١١.
(٤) نفسه، ص. ١١١.
(٥) نفسه، ص. ١١٢ وأهم من يمثل هذا الاتجاه (ابن الهيثم) الذى يعترف بأن الإقبال على علوم الديانات لم يفده شيئًا، فاتجه إلى الأمور العقلية، ومثله (الغزالى) الذى يعترف بأنه شك فى كل شىء إلا فى البديهيات، ونجد أيضًا (ابن حزم) الذى قدم نتفًا اعترافية شجاعة فى سيرته الذاتية "طوق الحمامة "هو الفقيه الورع، وزعيم مذهب متشدد فى نظرته الدينية.

القسم الثالث

نصيَّة السيرة الذاتية

الفصل الأول

الميثاق، التخييل وبناء الحبكة

١- فخ الحشو:

إن التحدى الكبير الذى يقف أمامه كل من يريد أن يدرس نصًا سير ذاتيًا هو تجنبه لفخ الحشو[١]، والمقصود بالحشو هنا أن الدارس يعتقد أنه من الحتمى أن يعود إلى الواقعى والمرجعى مباشرة مادام الأمر يتعلق بكتابات مرجعية، فرغم الطابع المرجعى لهذه الكتابات الذاتية، والسيرة الذاتية على الخصوص، فإنه لا يجب القيام بقراءة تحشر الواقع فى النص، وهذا ما اعترض عليه (توماس كليرك)[٢]، فالسيرة الذاتية تطرح من جديد، على عكس ما يشاع، سؤال الأسلوبية بحدة، وسؤال التخييل، والبياضات، رغم أن نفرًا من الدارسين[٣]، ينكرون هذه السمات، ويتبعهم فى ذلك العديد من القراء الذين لاهمٌ لهم سوى البحث عن تفاصيل حياة الكاتب فى نصه.

"إن ما نقوله عن ذواتنا هو دائمًا شعر" يقول "رينان" (Renan) فى المقدمة التى وضعها لسيرته الذاتية "ذكريات الطفولة والشباب"[٤]، مؤكدًا بذلك أن إعطاء الصورة الحقيقية ليست فقط غير ممكنة، بل إنها بدون فائدة[٥] ؛ لأن السرد يتم عن طريق اللغة والأسلبة وتحويل السرد، وهذه كلها عوامل ذات طابع شكلى، ولكنها تعيد طرح إشكالية الهُويَّة من جديد[٦].

---

(١) Thomas Clerc, les écrits personnels, op. cit. p.77.

(٢) Ibid. p. 77.

(٣) يرى الباحث عبدالعزيز شرف أن على السيرة الذاتية أن تتحاشى إضفاء القصص الخيالى.
انظر: عبدالعزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان والشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ١٩٩١، ص. ٤٦.

(٤) Les écrits personnels, op. cit. p. 77.

(٥) Ibid. p. 77.

(٦) Ibid. p. 77.

٢- العنوان والتطابق:

أول مهمة نقوم بها في أثناء دراستنا لنص سير ذاتي هي تحليل العنوان الذي وضعه الكاتب لسيرته الذاتية، وبعد ذلك تأتي مرحلة دراسة الأحداث المسرودة في النص.

إن دراسة العنوان شيء أساسي؛ لأنه يحدد أحياناً المرحلة العمرية التي ستتناولها السيرة الذاتية[١]، فـ"التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً" نص شمولي يطل على حياة الكاتب منذ ولادته حتى اللحظة التي يدون فيها سيرته الذاتية، أي إنها تصبح بمثابة حقيقة أدبية للأنا. فالعنوان، إذن، هو نافدة على الكون السير ذاتي برمته، وأداة تكشف عن هذا المشروع الذاتي، بطرق مباشرة أو غير مباشرة، كما أنه يرسم أمام القارئ والدارس إستراتيجية الكاتب في التأريخ لذاته، فمن يزيد الرجوع إلى طفولته وصباه تحكمه إستراتيجية في الكتابة والاسترجاع غير الذي يريد تقديم نص مركب عن مسار حياته منذ الولادة إلى لحظة كتابة سيرته الذاتية، وهي إستراتيجية تؤثر، أيضاً على حجم السيرة الذاتية، باستثناء بعض النماذج القليلة، مثل السيرة الذاتية لـ (إدوارد سعيد) "خارج المكان"[٢]، المخصصة لطفولة الكاتب.

وليس للعنوان إستراتيجية التأريخ للحياة أو لمراحل منها فقط، بل إنه يحمل أيضاً هُويَّة الجنس الأدبي[٣] (L' identité du genre) وتيمته، وحضور العناوين الفرعية إلى جانب الإشارات الواضحة المتعلقة باسم العلم تضيء كثيراً النص برمته، فـ"الاعترافات" (Les confessions) لـ (جان جاك روسو) تشدد على مسألة الذنب

---

(١) تجعلنا "قصة حياتي" لـ (جورج صاند) مثلا نتصور حجم وشمولية هذه السيرة الذاتية، والشيء نفسه بالنسبة إلى سير ذاتية أخرى مثل: أنا لـ (عباس محمود العقاد)، تربية سلامة موسى لـ (سلامة موسى)، حياتي لـ (حمد أمين)، سبعون لـ (ميخائيل نعيمة)، مذكرات عبدالله بن بلقين لـ (عبدالله) بن بلقين، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً لـ (بن خلدون)، وسير ذاتية أخرى، وبالمقابل يمكن للعنوان أن يوحي بعكس ما يقوله النص، مثل السيرة الذاتية لشوقي ضيف معي، وهي سيرة ذاتية لا تتعدى المائة صفحة، وسيرة (فاليري لاربو) (Valery larbaut) مسار حياتي (Mon Itinéraire) وهي سيرة ذاتية في ٤٥ صفحة فقط.

(٢) إدوارد سعيد، "خارج المكان"، ترجمه، فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٨.

(٣) Les écrits personnels, op. cit. p. 77.

والاعتراف، والمنـقذ من الضلال لـ (الغزالى) هى رحلة خروج من اللا يقين إلى اليقين الدينـى، وفى مـقـابل ذلك توجـد سـيـر ذاتـيـة لا يكشـف عنوانـهـا عن أى شىء، والنموذج الكلاسيـكى على ذلك السيـرة الذاتية لـ"ستاندال" (Stendhal) "حياة هنرى برولار" (Vie de henry Brulard) التى تـطرح مـباشـرة إشكالية الاسم المستعار (Pseudonyme)[١]، الذى يكشف بدوره عن الحقيقة الأدبية للأنا، وفى حالة النصوص غير المجنسة بطريقة صريحة لا بد من اللجوء إلى دراسة تعدد المعانى فيها أو إلى التناص الذى يميزها ودراسته أخذًا بعين الاعتبار رهانات السرد[٢]، الذى ينطلق أحيانًا، ابتداء من الإستراتيجية التى يضعها العنوان، من رؤية شمولية مثل الاعترافات والتعريف، وهما سيرتان ذاتيتان يقترحان تحليلاً كليًا لحياة مؤلفيهما، والسيرة الذاتية فى هذه الحالة تكون مطبوعة بنوع من المغالاة، يقول (جان جاك روسو) مثلاً: "أريد أن أقدم لأشباهى رجلاً فى حقيقته الكلية"، فى حين أن مثل هذا الاستهلال لا نجده عند (ابن خلدون) الذى يبدأ سيرته الذاتية هكذا: "وأصل هذا البيت من إشبيلية، انتقل سلفنا-عند الجلاء وغلب ملك الجلالقة ابن أدفونش عليها- إلى تونس فى أواسط المائة السابعة"[٣]، غير أن المبالغة واضحة من العنوان "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا"، وكأن الكاتب على يقين تام بأنه سينجح فى التعريف بنفسه وبرحلاته فى الدنيا "شرقًا وغربًا"، أليس هناك شىء لم يقل مع أنه جزء مكون للأنا[٤]؟.

وبخلاف السير الذاتية التى تحمل مشروعًا كليًا، نجد نصوصًا ليس لها هذا اليقين وتكتفى فقط بتناول مرحلة عمرية أو فكرية مثل: طفولة لـ (نتالى ساروت)،

---

(١) انظر بهذا الخصوص:

-Béatrice Sidier, Stendhal autobiographe, Puf, 1983.

(٢) Les écrits personnels, op. cit. p. 78.

(٣) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٤٩ .

(٤) Stendhal autobiographe ,op. cit. p. 73.

و(الدى لهيرفى غيبير)، المنقذ من الظلال لـ (الغزالى) إلخ... وهى نصوص تقترح حقلاً موضوعاتيّا أو كرونولوجيّا جزئيًا يحد من سعة المشروع بطريقة واضحة.

لنذكر إذن، بأن دراسة ميثاق السيرة الذاتية شرط أول فى أثناء دراسة هذا النوع من النصوص، فحضور الميثاق داخل النص، وتكرار (أو ندرة) الإعلان عن التطابق كلها عناصر ينبغى دراستها بعناية، أما العنوان الكبير الذى تندرج تحته السيرة الذاتية، أو أى نص شخصى آخر، فهو محدد من المحددات الكبرى التى يمكن على ضوئها دراسة التطابق، فحسب "ليوهوك" (Léo.H.Hoeck) فإن للعنوان "أولوية على كل العناصر الأخرى المكونة للنص"(١)؛ لذلك تكون عناوين السير الذاتية ذات قوة توجيهية تساهم فى تأويل النص، فمن العنوان تنطلق عملية القراءة، وفى حالة السيرة الذاتية، يمكن القول إن العنوان هو نقطة انطلاق الميثاق، ونقطة انطلاق القراءة والتأويل والتلقى، إنه الخلاصة الجزئية للنص(٢)، والتى تؤدى إلى الخلاصة/ الخلاصات الكلية، إذا أمكن القول إن هناك خلاصات كلية فى الأدب.

"التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا" ليس عنصرًا مستقلاً بذاته، رغم استقلاليته الظاهرة كعنوان، إنه خطاب يقود مباشرة إلى عمق النص، وهذه هى وظيفته المنوطة به كعنصر جزئى يترجم البنية الكبرى (macrostructure) للخطاب، كما أنه يسهل تمييز الجنس الأدبى الذى ينتمى إليه النص(٣)، فالتعريف عنوان يحمل خطابًا مختزلاً للموضوعات التى تحيل عليها سيرة ابن خلدون الذاتية باعتبارها خطابا مرجعيًا (Référentiel) وله أيضًا تأثير ووقع خاص لدى المتلقى، وابن خلدون اختاره

(١) Léo Huib Hoc, La Marque du Titre Dispositifs sémiotiques d' une pratique Textuelle, Mouton éditeur ،La Haye- Paris- Newyork ،1981, p. 286.

(٢) Ibid. p. 11.

(٣) Ibid. p. 275.

بقصد وغاية، وبذكاء ممنهج لقرائه؛ لأنه يقترح نوعًا من العقد، ويخلق أفق انتظار أعنف وأقوى من أى عنوان آخر[١]، وهو فى ذلك يشبه عدداً من عناوين السيرة الذاتية التى اختارت وظائف مؤثرة تمارسها من خلال عناوينها، مثل السيرة السياسية للأمير عبدالله بن بلقين، آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة، وقد كتب سيرته الذاتية تحت عنوان: "التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة"، وقد فضل "إ.ليفى بروفنسال" نشرة تحت عنوان "مذكرات الأمير عبدالله، فالعنوان الأول محايد من الناحية الأجناسية، رغم أن كلمة "التبيان" يمكن أن تؤدى وظيفة الإشارة إلى خانة الجنس الذى ينتمى إليه نص ابن بلقين، لكن العنوان الذى وضعه "ليفى بروفنسال" أكثر قوة من الأول، وأكثر شمولية منه، وهناك سيرٌ ذاتية أخرى عناوينها أقل تركيبًا مثل تربيتى[٢]، لـ (ويليام بوروز) (WBURROUGHS)، وأنا[٣] لـ (عباس محمود العقاد)، ونصوص أخرى مثل "تربية سلامة موسى" لـ (سلامة موسى)، وتربية عبدالقادر الجنابى للشاعر العراقى المقيم بفرنسا عبدالقادر الجنابى.

ليس التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا فقط نصًا ملحقًا بشكل مباشر بسيرة ابن خلدون الذاتية، بل هو خطاب يمنهج قراءة المحكى الذاتى لصاحب المقدمة ويتحكم فى تأويله وفى انتظار متلقيه.

---

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا هو عنوان النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية: (رقم ١٠٩م تاريخ، ٤٩ ص، ٢٣ x ١٧سم، سطورها ٣١) حسب محقق النسخة المرحوم محمد بن تاويت الطنجى، ورحلة ابن خلدون هو عنوان الكتاب نفسه الذى نشر بأبى ظبى، وهو تحريف للعنوان غير مبرر، بل إنه أساء لإستراتيجية الخطاب العنوانى. وهو ما سنؤكده فيما بعد.

(٢) William Burroughs, Mon éducation- un livre der rêves, traduit de l' Américain par Sylvre Surastatuti, ed. 10/18,1994.

(٣) عباس محمود العقاد، "أنا"، دار الهلال، د ت..

وشـأنه شـأن المحـكى السيـرى، فإن عنوان سـيـرة ابن خلـدون ملفـوظ نمطى (Stéréotypée)[١]، يسـاعـد فى رصد وفـهـم مـسـتـويات النص بكامله، والوقـوف على ثوابت حياته ومتغيراتها، ما دامت هذه الحياة هى رحلة فى الغرب والشرق.

عنوان هذه السـيـرة الذاتيـة الخلدونيـة، إذن، هو شىء من النص، إن لم نقل هو النص[٢]، فـالإشعـاع الصـادر عنه يضىء جميع مراحل السيرة الذاتية، أو الرحلة عبر الغرب والشرق، وهو أيضـًا مؤشر على أهمية حياة المؤلف عبر الأحداث التى عاشـها، وبذلك فهو نص ملحق غير بعيد عن روح النص، قريب من مناطقه، نافذة عليه وجزء لا يتجزأ منه، وتحليلنا للتعريف... هو بمثابة إعادة حالة التواصل التى توجد بين السيرة الذاتية وعنوانها، وذلك يدل على أن أى نص، وليست سيرة ابن خلدون الذاتية وحدها، هو قـوة عاجزة دون عنوانه، دون نصـه الملحق به منذ بدايتـه، ومن الإيحـاءات الأخـرى التى يوحـى بها عنوان السيـرة الذاتيـة لابن خلدون هو كـونهـا رحلة، وقد صـدرت فى طبـعـة ثانيـة تحت عنوان رحلة ابن خلدون، (١٣٥٢)م –(١٤٠١)م[٣]، وبدون أدنى شك فى انتماء كـتـاب "التعريف" الأجناسى أخرجه "نورى الجراح" مرة ثانيـة إلى الوجود بيقين مطلق على أنه رحلة، ووضـع مقدمـة أقل ما يمكن القول عنها إنها مضـطـربة على مستوى المصطلـح، فلم يكـتف "الجـراح" بتغيير عنوان الكتاب "التعريف بابن خلدون ورحلتـه غربًا وشرقًا ليحوله إلى رحلة ابن خلدون، بل إنه، إلى جانب ذلك، اعتبره رحلة قام بها ابن خلدون فى بلدان المغرب العربى والمشرق والأندلس، واعتبره رحـالة[٤]، لا كـاتب سيـرة ذاتية، ووضـع خطاطة لمسـار الرحلة، من نقطة الانطـلاق من تونـس أول

---

(١) عبدالنبى ذاكر، عتبات الكتابة، مقارنة لميثاق المحكى الرحلى العربى، منشورات مجموعة البحث الأكاديمى فى الأدب الشخصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – أكادير، ١٩٩٨ وهو كتاب استثمر فيه الباحث مثل هذه المصطلحات فى تحليل المحكى الرحلى.

(٢) G.Genette seuil, op. cit. 1987. p. 12.

(٣) رحلة ابن خلدون، (١٣٥٢-١٤٠١)، م. س.

(٤) يقول فى هذا الصدد، فابن خلدون شأنه فى ذلك شأن كل الرحالة القدامى ..."، ص. ٢٢.

سنة (٧٥٦)هـ الموافق (١٣٥٠)م، والعودة إلى المغرب الأقصى، والخروج من المرسى والتوجه إلى مصر، فى حين أن ابن خلدون لم يقصد من كتابة سيرته الذاتية وضع خطاطة جغرافية للبلدان التى زارها على غرار الرحالة، بل إنه وصف رحلة حياته منذ ولادته فى تونس "فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثون وسبعمائة"[١].

ورحلة الحياة من تاريخ الولادة إلى لحظة الكتابة عن هذه الحياة يطلق عليها سيرة ذاتية إذا أردنا وضع تجنيس دقيق لهذه الكتابة، وليس "تورى الجراح" هو الأول الذى اعتبر التعريف رحلة، فمحقق الكتاب محمد بن تاويت الطنجى أشار فى المقدمة التى وضعها إلى أن عدداً من المؤرخين تداولوا كتاب ابن خلدون، وكانت النسخ التى تقع تحت أيديهم مختلفة، بعضها قديم واقع فى آخر كتاب التاريخ التابع له (العبر)، وهو فى هذه الحالة لم يتغير عنوانه بعد، وليس بين كلمات عنوانه ما يدل على معناه غير كلمة التعريف (.......) أما البقية من النسخ، فقد كانت حديثة الصدور عن المؤلف، عدل فى عنوانها، فأصبح من بين كلماته ما يصلح للدلالة على الكتاب وهو قوله: "ورحلته غرباً وشرقاً "، فاختار الذين نقلوا عن هذه المجموعة من النسخ أن يسموا هذا الكتاب رحلة لابن خلدون[٢]، وقد ذاعت هذه التسمية، أى تسمية التعريف بالرحلة، فى العصر الأخير، على الرغم من أنها تسمية لم تعرف قبل سنة (١٠٠٥) هـ/(١٤٠٢)م[٣]، فـ (أحمد بابا السودانى) فى كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج[٤]، يعتبر التعريف "رحلة" لـ (ابن خلدون).

---

(١) نفسه، ص. ٦١.

(٢) نفسه، ص. ٤٠.

(٣) نفسه، ص. ٤٠.

(٤) أحمد بابا السودانى، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طبع مصر، سنة ١٣٥١هـ. ص. ٢٤٩، نقلاً عن مقدمة ابن تاويت الطنجى، ص. ٤٠.

وكانت فى حوزة العالم التركى "أويس بن محمد"، المعروف عن حياته فى (٩٦٩هـ - ١٠٦٩هـ) نسخة اشتراها من القاهرة وكان مكتوب على ظهر الورقة الأولى: "كتاب رحلة ابن خلدون بخطه، رحمه الله تعالى"، ويشير ابن تاويت إلى أنها لم تكن بخط ابن خلدون، وإنما كتبت على بعض حواشيها إلحاقات بخطه[1].

٣- تطورات العنوان ونسخ الكتاب:

من شأن التطورات التى مر بها العنوان، والصيغ التى تم تداوله بها أن تؤثر على طريقة تلقيه وتجنيسه، الشىء الذى أدى إلى نوع من الارتباك فى اسم الكتاب، وفى ماهيته، عرف التعريف باعتباره جزءًا تابعًا لتاريخ ابن خلدون، وما كان يميزه عن بقية أبواب الكتاب عنوانه الذى كان فى الأصل التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب[2]، ولم تكن أداة الإشارة "هذا" إلا نداءً مدويًا يرغمك على الاعتراف بتبعية هذا الكتاب لبقية "التاريخ"[3]، وقد ظل العنوان بهذه الصيغة بعد رحيل ابن خلدون إلى الأندلس مرتين، ثم ارتحل إلى مصر والحجاز والشام وأصبح ما جَدَّ من تجاربه فى رحلاته الجديدة جزءًا من حياته، يجب أن يدونه، وأن يضيفه إلى ما كان قد سجله قبل، ففعل، وعظم حجم الكتاب بما أضيف إليه من جديد الأخبار، ولم يكن العنوان السالف الذكر من السعة والمرونة بحيث يشمل هذا الجديد الطارئ (....) فحذف ابن خلدون أداة الإشارة "هذا" التى كانت واضحة الدلالة على تبعية هذا الجزء لكتاب العبر، وأضاف

(١) رحلة ابن خلدون، ص. ٤١، ويشير محقق التعريف أن واضعى فهرس مكتبة "أيا صوفيًا" سجلوا نسخة "ويسى" المذكورة باسم رحلة ابن خلدون، النسخة المنقولة عنها الموضوعة فى مكتبة "أسعد أفندى" سميت أيضًا رحلة ابن خلدون، وعرفت أن من بين آثاره الفكرية "رحلته" انظر التعريف ص. ٤١.

(٢) يلاحظ أن كلمة "رحلة " لم تكن فى العنوان الأصلى مما يدل أن ابن خلدون لم يكن يدون وقائع رحلة، بل كان يؤلف تاريخ حياة.

(٣) رحلة ابن خلدون، م، س، ص. ٣٩.

إلى العنوان الكلمات: "ورحلته غربًا وشرقًا"، فكملت بذلك الصياغة الأخيرة للعنوان، وأصبح: "التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب، ورحلته غربًا وشرقًا"(١).

وظهر هذا الارتباك في أقصى حالاته عند العلامة المستشرق " كارل بروكلمان" في كتابه تاريخ الأدب العربي(٢)، الذى أحال فيه على سيرة ابن خلدون الذاتية التى تقع في آخر الجزء السابع من كتاب العبر، وأحال على الرحلة المحفوظة في مكتبة "أسعد أفندى"، ثم على التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، المحفوظ بدار الكتب المصرية، و"المجهول المؤلف"(٣)، وهذا دليل دامغ أن الاستشراق مهما ادعى من معرفة واسعة بتراثنا فإنه يبقى يعانى من القصور في الإحاطة العلمية الشاملة، والدقيقة بأهم (أو أبسط) تفاصيله، فما أن تعددت مدلولات الأسماء والعناوين في ذهن دارس كبير للتراث الأدبى العربى، بروكلمان، حتى اختلط الحابل بالنابل، وساد الخلط والغموض حول كتاب واحد اختلفت مسمياته، وقد أوشك أن يقع الأمر نفسه بالنسبة إلى سيرة ذاتية مشابهة هى "التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة للأمير عبدالله بن بلقين، والذى نشرها (إ.ليفى بروفنسال) تحت عنوان مذكرات الأمير عبدالله بن بلقين، فالكتاب واحد والعناوين اثنان، لكن الأصول وضحت وثبتت صلة المؤلف بكتابه، خصوصًا فى حالة ابن خلدون الذى أثر الزمن فى تغير صيغة عنوان سيرته الذاتية.

إن تغير أسماء التعريف ليست مسألة شكلية ترتبط بالعنوان وحده، فالتغير والاختلاف يطبع أيضًا تغيرًا واختلافَ النسخِ الكثيرة للكتاب الذى يقع، كما أشرنا إلى

(١) نفسه، ص. ٤٠.

(٢) نفسه، ص. ٤٠.

(٣) نفسه، ص . ٤١.

وقد وجد محقق التعريف العلامة محمد بن تاويت الطنجى العذر لـ (بروكلمان) قائلا: "والعذر للرجل ما ذكرته من تغير العنوان مع الزمن، ثم عدم وضوح عبارة "فهرس دار الكتب المصرية " ص. ٤١.

ذلك، فى آخر كتاب العبر، وفى هذا الصدد يشير ابن تاويت إلى أنه كانت تصدر عن ابن خلدون نسخ كثيرة من كتابه ما بين الحين والحين، "يهديها إلى الملوك والوزراء تارة، ويأخذها عنه الطلبة الدارسون تارة أخرى"[1].

أهدى ابن خلدون عندما كان بالمغرب، النسخة الأولى من كتابه لأبى العباس الحفصى ملك تونس[2]، وعندما حل بمصر أهدى نسخة أخرى إلى الملك الظاهر برقوق، وهى النسخة المسماة بكتاب الظاهرى، قبل أن يرسل هذا الكتاب من مصر ليوضع فى خزانة الكتب بجامع القرويين بفاس، فى عهد الملك أبى فارس عبدالعزيز المرينى (٧٩٦-٧٩٩هـ)، وقد قدم الكتاب باسمه[3].

يعود اختلاف هذه النسخ من كتاب التعريف إلى كون ابن خلدون كان لا يتوقف عن المراجعة وإدخال الأبواب والفصول والتعديلات والملحقات، فكان حجم الكتاب يزداد مع صدور نسخة جديدة، لكن عدد هذه النسخ ظل مجهولاً، غير أن محمد بن تاويت الطنجى يقسمها إلى أمهات ثلاث:

١ – أم قديمة الصدور عن المؤلف، وهى موجزة.

٢ – وأم متوسطة تزيد قليلاً عن سابقتها، وتنقص الكثير من التفصيلات عن التى تليها.

٣ – ثم حديثة العهد بالمؤلف، ويمتد حديثه فيها، وتعديله بالزيادة والنقص وغيرهما إلى ما قبل وفاته بشهور[4].

---

(١) نفسه، ص. ٣٠.

(٢) نفسه، ص. ٣٠، من بين إهمالات "نورى الجراح" الذى حرر رحلة ابن خلدون فى طبعة أبى ظبى أنه احتفظ بهامش ابن تاويت الطنجى فى الطبعة المصرية الذى يشير إلى الصفحة ٢٤٠ التى تضم قصيدة لابن خلدون يذكر فيها إهداء نسخة الكتاب إلى ملك تونس، غيرأن الصفحة ٢٤٠ تغيرت فى الطبعة الجديدة فأصبحت هى ص. ٢٧٨، ولم يكلف نفسه حتى عناء البحث عن هذه الصفحة وتغييرها فى هامشه !.

(٣) نفسه، ص. ٣١.

(٤) نفسه، ص. ص. ٣١ – ٣٢.

يستخلص المحقق من هذا التصنيف أن هناك أما أولى لهذه النسخ، هى التى أهداها ابن خلدون لـ (أبى العباس الحفصى) بتونس، أما ناسخ التعريف فلم يكن واحداً بدليل اختلاف الخط ، لكن الناسخ الرئيسى هو عبدالله بن حسن الشهير بابن الفخار ناسخ التعريف، نظرا لتشابه خط قسم من التعريف بخط المقدمة، وقد كان على صلة وثيقة بابن خلدون، يظهر ذلك من الخاتمة التى ختم بها نسخة المقدمة، وهو من أهل العلم بين الناسخين[1].

٤- بناء الحبكة والمعنى:

يتباهى كاتب السيرة الذاتية، أكثر من كاتب الرواية، بمعرفة موضوعه، الذى هو أفعاله التى قام بها يوميًا فى حياته، خلال الفترة الممتدة من قيامه بالأفعال ووعيه بمحيطه إلى المرحلة التى يقوم فيها بالتاريخ لذاته[2]، وغالبًا ما يخوض رحلة شكلية فى البحث عن حبكة لنصه الذاتى، يجد كاتب السيرة الذاتية نفسه مجبراً على الخوض فى البحث عن الحبكة، ربما أكثر من كاتب الرواية؛ لأن الأول يواجه دائمًا سؤال النوع أو الجنس الأدبى[3]، كما أنه يميل إلى الأجزاء الغائمة بينما يؤطر مناطق الارتباك والضعف، ويبدو أنهم (كُتَّاب السيرة الذاتية) يطيرون جافلين قبل أن نفحص ما يخلفونه من آثار[4].

---

(١) نفسه، ص. ٢٣.

(٢) نشير هنا إلى أن بعض كتاب السيرة الذاتية يتجاوزون طفولتهم وصباهم فى محكيهم الذاتى، مثل ابن خلدون، وهذا ما سنقف عنده فى فصل لاحق.

(٣) وليم جاس، (فن الذات ... كتابة السيرة الذاتية فى النرجسية) ترجمة: ياسر شعبان، الثقافة البحرينية، العدد: ١٩يناير ١٩٩٩، ص. ٩٠.

(٤) نفسه، ص. ٩٠.

كاتب السيرة الذاتية مهووس بتشكيل معمار فى الكتابة، وببناء حبكة، وبملء الفراغات وإزالة البياضات، ولعل هذا ما دفع ابن خلدون إلى الإكثار من التدخلات والإضافات فى كل نسخة من نسخ سيرته الذاتية، الشيء الذى جعل كل نسخة تأتى فى بناء مختلف، بل يمكن القول إن موضوع سيرته الذاتية، الذى هو ذات ابن خلدون، يعرف تغييرات كثيرة، وهذا الهوس بقدر ما هو عمل ترميمى للذاكرة، فهو أيضًا عمل ترميمى للشكل، وهذا العمل هو فى الأخير تدبير فنى، وحرص على تقدير نص "كامل" و"شامل"، أليست السيرة الذاتية هى "فن الذات" فى عصر النرجسية [1]، فكاتب السيرة الذاتية، بمعنى من المعانى، شخص نرجسى فمطمحه فى الكتابة هو تقديم شيء يشبهه، شيء منزه ومنفلت من النقص، وهنا نجد أنفسنا نوافق "أرسطو" فى إصداره على أن الشيء الجيد هو ما يقوم به شخص جيد، ومثل هذا الإغراء، هو ما جعل ابن خلدون يعيد كتابة "التعريف..."، أو على الأقل يعيد النظر فى العديد من مكوناته، أليس الجواب الوحيد على سؤال: كيف تبدأ كتابة السيرة الذاتية؟ هو: "من الذاكرة"[2]، وطالما تدخل الكتابة حقل "الذاكرة" و"التذكر" فإنها تصبح ضحية للعديد من الأعطاب، التى يتطلب تقويمها وتداركها إعادات نظر متكررة وحذرة، ومن جهة أخرى هناك مقاومات لا شعورية، لعملية استعادة الذكريات (Anamnésie) مادام "التذكر صعب والتوصل إليه نوع من المعجزة المصغرة"[3].

ما يقوم به ابن خلدون فى العمق، من خلال إعادة كتابته "التعريف"، والإضافات التى تطرأ على نصه الذاتى بعد كل نسخة، هو محاولة انتزاع خيوط من نسيج الماضى يزداد عددها أكثر فأكثر. فعلاقتنا بالماضى، المتمثل ذهنيًا (Représente) هو

---

(١) يورد مصطفى نبيل فى كتابه سير ذاتية عربية م. س، (ص١٦٢.) رأيا لـ"سيريان" (Syrien) ينعت فيه ابن خلدون بالأنانية الظاهرة، وبتفضيل نفسه عن الآخرين.

(٢) فن الذات، م. س. ص . ٩٠.

(٣) المسيرة الفلسفية حوار مع "بول ريكور" أجراه: فرانسوا إدوار، ترجمة: محمد ميلاد، الحياة الثقافية، تونس، العدد: ١٤١، يناير ٢٠٠٣، ص. ٦١.

الذاكرة، والماضى المتمثل لا يشكل إلا جزءًا صغيراً، يتم تناوله بالرجوع إلى ماض فاعل يفعل فى جسدنا، فى خلايانا، فى دماغنا، ونحاول أن نبنى المعنى بما ينبثق منه[1]، وهذا نوع من الماضى يرجع إليه ابن خلدون كلما أراد تطعيم أو ترميم أو تقويم معمار سيرته الذاتية، خصوصًا وأن الجزء الكبير من "التعريف" ذاكرة سياسية مع الملوك، والارتحالات داخل إطار جغرافية سياسية، وقاضى القضاة على وعى تام بعلاقته بالماضى الذى يريد استرجاعه، وجعله دليل عنفوان وقوة[2].

وهذا ما نطلق عليه بناء المعنى، بعد عملية بناء الحبكة، فإذا كنا فى العديد من النصوص الروائية نتحدث عن غياب المعنى، أو عن كون غياب المعنى هو معنى بحد ذاته، فإن السيرة الذاتية لا يمكن أن تدعى أنها بنيت على غير معنى أو على اللا معنى؛ لسبب بسيط هو كونها كتابة ذات حول الذات، وهى عملية من المستحيل أن تكون خالية من المعنى والدلالة، وفى حالة "التعريف" يكون هذا التصور واضحًا، فـ (ابن خلدون) يبنى معنى جديداً لحياته عن طريق كتابة سيرته الذاتية، مثلما كانت حياته رحلة طويلة وشاقة بحثًا عن معنى، فدسائس السياسة ومؤامرات القصور، وترك أمير للالتحاق بآخر أكثر قوة، هو بحث عن معنى للوجود، قبل أن يهرب من السياسة فى المغرب إلى مصر، والتفرغ للعلم والتأليف، ليجد نفسه من جديد وسط بركان من المناورات بين الأمراء والسلاطين.

إن هذه الحياة المليئة بالأحداث والوقائع بين الأمراء والمعانى يحيط بها خطر كبير يتجلى فى الاستعمالات المنحرفة للذاكرة والتاريخ، ومؤلف "التعريف" عندما كان يضيف فى كل نسخة شيئًا جديداً كان يحركه هاجسان: هاجس ملء البياضات وترميم الذاكرة، وهاجس تنظيم عمل الذاكرة.

---

(١) نفسه، ص. ٦٢.

(٢) ولذلك لم يتطرق ابن خلدون لطفولته وأحداثها، وتجنب الحديث عن الطفولة، والقفز على هذه المرحلة العمرية هو خوف من افتضاح الهشاشة.

يندرج كتاب "التعريف" ضمن التأليفات الكبيرة فى الأدب العربى القديم؛ لذلك فمن الصعب الانتهاء منه ومن امتلاكه، خصوصًا أن ابن خلدون يعتبر سيرته الذاتية، امتدادا لذاته، أو شيئًا متأصلاً فى هذه الذات وذلك يتطلب إعادة الكتابة، وإضافة كتابة إلى كتابة، وصنع طبقات من الكتابة، وليس هناك من حل آخر إلا كتابة الذاكرة بعمل الذاكرة، "لكن لا يوجد عمل للذاكرة دون دمج الخسارة أى دمج ما لن نسترجعه أبدًا، وهو ما يعنى الحداد[1]، ومن الطبيعى الحديث عن الحداد عند كاتب السيرة الذاتية، فيجب الاتفاق حول وجود ما يتعذر استرجاعه أو استتكاره، فثمة شىء يضيع منا بشكل نهائى، وابن خلدون يجسد حالة الحداد هذه، فرغم إضافاته ومراجعاته الكثيرة لـ "التعريف" بقيت أشياء صعب الحصول عليها أو إصلاحها.

٥- الذاكرة الحالمة[2] :

إننا نتخيل طريقة ما نعيش بها الماضى أو نسترجع بها الماضى، وبما أن "الذاكرة موهبة كبيرة" حسب تعبير "بول ريكور"، فإنها ككل المواهب إما أن تكون خارقة أو عادية، فهناك من "يستخدم التذكر بشكل معتدل"[3]، وهناك من يستعمله بشكل خارق أو حالم، والتذكر الحالم هو تذكر بلا ضفاف، حر وجامح.

وابن خلدون عندما كتب "التعريف" كان داخل الذاكرة، وعلى الرغم من ذلك لم تعمل ذاكرته بشكل كلى، فأن تقوم الذاكرة بالعمل الكلى المنوط بها، فهذا ضرب من اليوتوبيا، عمل الذاكرة الذى نتوهم أننا نستوعبه ونفهم وظائفه على أتم وجه، هو ليس كذلك، إننا لا نستحضر الذكريات بل هى التى تأتى إلينا، وهنا يحضر "بروست"

(١) المسيرة الفلسفية، حوار مع" بول ريكور"، م. س. ص. ٦٣.

(٢) جاء هذا العنوان على صيغة تعبير "برغسون": "الوعى الحالم".

(٣) المسيرة الفلسفية، م. س. ص. ٦٢.

(proust) بقوة: "الذكريات الأكثر إسعاداً ونبلاً بالنسبة إلينا هى تلك التى تأتينا دون أن نريد ذلك"، ويقول أرسطو: "إن الذاكرة مؤثرات وعاطفة"[1]، وكل ما ذكره ابن خلدون فى "التعريف" يدل على أنه متأثر عاطفيّا بالماضى، ويتضح هذا التأثر جليّا فى الجزء المخصص لشيوخه[2]، الذين تخرج على أيديهم، فما أن شرع ابن خلدون، فى الحديث عن نشأته فى تونس التى ولد بها سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (٧٣٢ هـ)، وتربيته فى حجر والده، حتى ذكر أستاذه الذى قرأ عليه القرآن العظيم: "أما نشأتى فإنى ولدت بتونس فى غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وربيت فى حجر والدى رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن على الأستاذ المكتب أبى عبدالله محمد "بن سعد بن برال الأنصارى"[3]، وذكر الوطن والأب والأستاذ يحكمه منطق الحب الغريزى الحالم الذى لا يمكنه إلا ذكر المحاسن دون المساوئ، وفى صفحات أخرى يذكر أحد أقرب شيوخه على قلبه هو "الآبلى"[4]، وهو من أخص أساتذة ابن خلدون، ورغم أن عمل الذاكرة هو عمل الذات، فإنه فى "التعريف" أصبح عمل الذات حول الآخرين، عمل تمارسه الذاكرة بحلم، وذلك ليس عملاً منحرفاً فى السيرة الذاتية، بل إنه من صميم اختصاصاتها، وهو ما يمكن أن ندعوه بعمل التخييل فى السيرة الذاتية[5]، وهو عمل بنائى ومضمونى أساسى فى جميع نصوص الأدب الذاتى، الذى شأنه شأن كل الأدب، لا وجود حقيقى له دون أحلام[6]، التى تضىء الأدب والحياة،

---

(١) نفسه، ص . ٦٢.

(٢) اتسم رأى ابن خلدون فى شيوخه بالتزكية التامة، واصفاً إياهم بالتفوق والنبوغ والكفاءة.

إلا أن محقق النص ابن تاويت الطنجى بحث فى نصوص تخالف هذا الرأى، خصوصاً فى حالة "ناصر الدين المشدالى" الذى قال ابن خلدون إنه كان واسع الإطلاع والتمكن، وروى عنه الموطأ ذلك، إلا أن المؤرخ "العبدرى" كان له رأى مخالف، وابن تاويت الطنجى يميل إلى رأيه.

(٣) رحلة ابن خلدون، م. س، ص. ٦١.

(٤) انظر الصفحات ١٠٥-١٠٣- ١٧٩.

(٥) - انظر الفصل الخاص من هذه الأطروحة الذى يحمل عنوان: من السيرة الذاتية إلى التخييل الذاتى.

(٦) إسماعيل كادريه: لا أدب دون أحلام، أسبوعية "أخبار الأدب"، العدد: ٥٣٩، ٩ نوفمبر ٢٠٠٣، ص. ١١.

والتخييل وإضاءة الذاكرة بالأحلام ليس عيبًا، فعيوب الذاكرة التى ينبغى أن يتلافاها كاتب السيرة الذاتية، هى كما حددها "بول ريكور" ثلاثة، وينبغى تلافيها: أولاً - عيب الذاكرة الموجهة بواسطة الأيديولوجيات ومناسبات إحياء الذكرى واستحضار الذكريات بصورة مفروضة، ثم عيب الذاكرة المعوقة التى تعيقها المقومات، وأخيرًا عيب الذاكرة المفروضة: فأنت تتذكر هذا الأمر دون ذلك[1]"، إذن ينبغى حماية الذاكرة من هذه العيوب عن طريق التوجيه الدقيق لها، وعن طريق الاستعمالات الأدبية، التخييلية والحالمة التى تجعل أحيانًا من البياض شيئًا أدبيًا تأسيسًا لإشارية النص، غير أن بعض التناقضات التى تشوب معطيات معينة قد تعتبر عيبًا من عيوب الذاكرة، وأمثلتها كثيرة فى "التعريف"، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أن ابن خلدون يكتب أن السلطان "أبا سالم" استوزر، بمدينة القصر الكبير، مسعود بن رحو بن ماساى "نائبًا للحسن بن يوسف بن على بن محمد الورتاجى السابق إلى وزارته، لقيه بسبتة[2]، وقد غر به منصور بن سليمان إلى الأندلس، فاستوزره واستكفاه[3].

وقد قال ابن خلدون فى التشوق قصيدة طويلة من نحو مائتى بيت، لكنه لم يسجل منها فى "التعريف" سوى بيتين فيما ذهب الباقى عن حفظه، لكن ابن الأحمر فى "نثير الجمان" (١١٧-١٢٣) يذكر هذه القصيدة عند تعريفه بابن خلدون، ويقول إن أبياتها جاءت فى ١٠٧ أبيات، ويلاحظ المحقق ابن تاويت الطنجى أن من "الظاهر من أسلوب ابن الأحمر أنه أورد القصيدة كلها، فهل نسى ابن خلدون عدد أبيات قصيدته، أو أن الأحمر اختار منها بعض أبياتها وترك الباقى؟[4]!.

---

(١) المسيرة الفلسفية، م. س. ص. ٦٢

(٢) يلاحظ ابن تاويت الطنجى أنه جاء فى العبر ٧/٣٠٥ أنه لقيه بطنجة. انظر: ص. ١١١.

(٣) رحلة ابن خلدون، ص. ١١١. ويدعى محرر "الرحلة" أن طبعة أبى ظبى خالية من الأخطاء المطبعية، وهذا مجرد ادعاء إذ هناك مجموعة من الأخطاء المرتكبة فى الطبعة الثانية ولا وجود لها فى الطبعة المصرية الأولى من مثل: "منصور ابن سليمان" (ص. ١١١) والصحيح هو: منصور بن سليمان كما فى الصفحة. ٧٠ من الطبعة الأولى.

(٤) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ١٠٩.

إننا دوماً نتوهم أن البياضات وأنواع النسيان والتخييل فى السيرة الذاتية، كيفما كان طموحها، يجب أن تملأ بـ"حقائق" معينة، ولا يدخر جهداً القارئ، إن استطاع إلى ذلك سبيلا، فى القيام بتنبيهات لذاكرة كاتب السيرة الذاتية، فالتقطع وعدم الترابط سمة من سمات النصوص الذاتية[1]، فرغم أن السيرة الذاتية، تستقبل على أنها نقيض للخيال، فإن نصوصها تكون مجبرة، فى الكثير من الأحيان، على إحداث قطيعة مع الواقع كقوة مرجعية، وبذلك يكون من المشروع جدا طرح سؤال: هل كل ما تقوله الـ "أنا" هو صحيح وحقيقى؟.

٦- الميثاق المرجعى:

تقع السيرة الذاتية تحت سلطة قوة "المرجع" وليس قوة "الواقع"، فهناك العديد من مثل هذه النصوص التى أحدثت قطيعة مؤكدة مع الواقع، مثل "مذكرات عبقرى" للرسام الإسباني" سالفادور دالى" التى يكمن سحرها فى إثبات أحداث من المستحيل تقديمها على أنها واقعية [2]، ومع ذلك فإن القارئ يجد نفسه مضطراً إلى تصديق حقيقة ما يقدم إليه، فانطلاقًا من نظرية (لوجون) يكون هدف السيرة الذاتية هو صحة ما ترويه وليس احتماليته[3]، وقد قدم لنا هذا الموقف معاكسًا لجنس أدبى آخر هو الرواية التى تعيد إنتاج الواقع عن طريق اللغة، طبقًا لنظرية المحاكاة، وبذلك يعتبر كل خرق لهذا "القانون" الأدبى بمثابة خداع ليس من حق نص له قصد مرجعى أن يمارسه، لكن العديد من النصوص التى يفترض فيها قول الحقيقة والوفاء للمرجع تمارس هذا

---

(١) هذا التقطع وعدم الترابط نجده حتى فى المفكرة اليومية التى تتطلب تصفحها يومًا بيوم، فكيف فى السيرة الذاتية التى لا تعتمد على القواعد المعمول بها فى اليوميات، بل على الذاكرة التى تقوم بوظيفة لها أهمية هى التذكر واسترجاع مسار الذات الفردية.

(٢) الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، م. س. ص. ٢٩.

(٣) نفسه، ص . ٢٩.

الخرق مثل نصوص السفر أو الرحلة، ويقف في مقدمتها رحلة (ابن فضلان)[١]، المعروفة بـ رسالة ابن فضلان، غير أن هذا "الخرق" لم يكن له أى أثر على نصيتها، فكاتب السيرة الذاتية يكون دائمًا عرضة، على مستوى اللا وعى، للتقصيرات الطبيعية فى أثناء إعادة كتابة وقائع ماضية[٢]؛ لذلك نفضل أن نقول عن السيرة الذاتية إنها مرجعية وليست واقعية؛ لأن لفظ "واقعية" يضعنا أمام لفظ آخر هو "التخييل"، ولا بد أن نحسم هنا فى النقاش الذى قد يثار بخصوص هذه المسألة، فلا فرق تقريبًا بين عالم الحقيقة وعالم التخييل فى الأدب، فهما على المستوى الشكلى متساويان، "حيث نجد فيهما الأسماء العلم، الأماكن الواقعية، التواريخ، كل العلامات التى تهدف إلى جعلنا نصدق الكلام، والسيرة الذاتية، مع ذلك، أخضعت هذه العناصر لميثاق مشروع"[٣]، وربما يكون مشروع السيرة الذاتية مرتبطًا، فى جوهره، بتخييل الذات، إضافة إلى الرغبة العميقة فى قول الحقيقة عن هذه الذات، وبدون هذا الالتزام لا تكون نصية السيرة الذاتية، رغم أن ميثاقها ينص على معيارين مهمين: المرجعية وتطابق السارد – المؤلف – الشخصية الرئيسية، فإما التقصير فى قول الحقيقة، أو قولها جزئيًا. والتخييل لا يفقد السيرة الذاتية من تماسكها النوعى، أما قارئ السيرة الذاتية" فيلعب دورًا مهمًا فى تلقى هذه النصوص، فله الحق، مع ذلك، فى الشك فى الحقيقة المروية، فإن قارئ السيرة الذاتية قارئ مرتاب، "وثقته تدخل فى العلاقة التعاقدية (contrac-tuelle) التى تربطه بالمؤلف"[٤]، وورطته الكبرى أن عليه أن يتقبل كل شىء، حتى الفكرة المشبوهة عليه أن يتقبلها كحقيقة، فالفائدة مما تحكيه السيرة الذاتية هى كونها تحكى "فقط ما يمكن أن يقال لنا" حسب تعبير (لوجون)، والحقيقة هنا يجب أن تفهم بالمعنى الذاتى للكلمة، وهو الفهم الذى يضع فى الاعتبار كل الأشياء الملازمة لهذه

---

(١) ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، بيروت، مكتبة الثقافة العالمية، ط٢، ١٩٨٧، تحقيق سامى الدهان.

(٢) الكتابة الذاتية، م. س. ص. ٣٠.

(٣) نفسه، ص. ٣٠.

(٤) نفسه، ص. ٣٢.

"الحقيقة الذاتية" من تصدعات لا يمكن تجنبها، نقص فى الذاكرة، اللاوعى، الخداع، المراقبة الذاتية والتنميق البلاغى، وهذه كلها فخاخ تقف أمام مشروع الحكى عن الذات، حسب تعبير "توماس كليرك"، والتى يقبلها المؤلفون أنفسهم.

يجب أن نقتنع بأن الحقيقة السير ذاتية "ليست شيئًا آخر غير أثر الخطاب الذى يقوله النص، وحسب المشروع الذى يتبعه المؤلف"[1]، إن النسيان، وباقى التصدعات، يشكل حقيقة النص الذاتى؛ لذلك نلاحظ فى العديد من السير الذاتية أن السارد لا يكف عن التشكيك فى ما يرويه عن طريق ملاحظات تصحيحية، ولا أدل على ذلك من تلك العبارات النمطية : "يبدو لى"، "لا أعرف كم"....إلخ.

٧- التعريف... ليس سالبًا للتخييل:

يحتوى التلفظ السير ذاتى على الحقيقة بالمعنى الذاتى للكلمة، كما أسلفنا، وهذا المعنى للحقيقة والالتزام بها يتخذ أشكالاً عديدة، وقد ساد الاعتقاد لوقت طويل أن السيرة الذاتية لا تقول إلا الحقيقة المرتبطة بالذات، ولا شىء غير هذه الحقيقة، وإذ لم تكن هذه الكتابة الذاتية "سالبة للتخييل"، حسب تعبير ميشيل ليريس (Michel Leris)، فإنها تفقد من تماسها النوعى[2]، لكن يجب التأكيد أن السيرة الذاتية، وباقى الكتابات الذاتية الأخرى، بقدر ما تقول الذات فهى أيضًا تقول الآخرين، أو بتعبير آخر فإن الحديث عن الذات هو أيضًا حديث عن الآخرين، فكاتب حياته يستطيع تسجيل أى شىء، حتى أفكار الناس الآخرين، وهكذا تكون الكتابات الذاتية بمثابة ورشة أو ملف [3].. ومن الناحية اللغوية، تكون هذه الورشة مليئة بالفنية وبالدفقات المرتبة،

(١) نفسه، ص. ٢٣.

(٢) نفسه، ص. ٢٣.

(٣) وليم جاس، كتابة السيرة الذاتية فى عصر النرجسية، م. س، ص. ٩٣.

و"الملاحظات الشعورية العميقة والشعرية"[١]، ومن هنا قد تتخذ السيرة الذاتية الطابع القصصى، ويشكل التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا خير مثال على حبك القص وتأمل المشكلات، وقد كان فيها ابن خلدون يعتمد إستراتيجية خاصة لـ"الأنا" التى تريد التأريخ لأناها، فقد كان ابن خلدون يضع فى حسبانه أن يقرأه أى إنسان آخر؛ لذلك كان يتجنب أن يكون عاريًا ومفضوحًا فى انفعالاته أو مشوشًا فى فكره وأقواله، فما أن يكون للسيرة الذاتية متلقيًا ينتظرها بعد النشر فإنها، وبشكل افتراضى، تكون أقل عريًا، وربما يبدأ كاتب سيرته الذاتية فى إقحام موضوعات، وإعادة ترتيب الصفحات، وتحريف القصص، وحبك تأثيرات صغيرة، والمراجعة، والكذب وكيف يظهر فى شكل جيد[٢]، عندئذ تكون الكتابة الذاتية قد استعدت لمواجهة العالم، وأبقت ما يجعل الكاتب متفردًا، كونيًا وفى خدمة سمعته؛ "لأن السيرة الذاتية يجب أن تعتمد على ما هو غير ممكن وغير متذكر، بدرجة اعتمادها على ما يكون[٣]، وهذا لا يعنى أن السيرة الذاتية تتحول إلى عمل قصصى، وأن كاتب حياته سعيد فى علاقته بنفسه، فهذا غباء كبير، بل المقصود هو أن الخيال والتخييل يتسللان إلى طقوس قول الحقيقة والواقع بشكل يتعذر منعه، وكل ذلك بأهداف تكون دائمًا لصالح الموضوعية، ويبقى من حقنا نحن القراء أن نطرح هذا السؤال: "ماذا تكون الحقيقة؟".

فى وعينا أن أى كاتب يقول حقيقته بعرى فاضح تنتهى هذه الحقيقة إلى الابتذال؛ لأنها فاقدة إلى التدفق الشعورى والشعرى، وعلينا أن نعترف بلا جدال أن " القص لا يصبح سيرة ذاتية لمجرد أن بعض عناصره تنتمى للسيرة الذاتية ليست بالتأكيد ذات قالب قصصى، لاحتوائها على بعض المقاطع مخلوطة أو مضللة أو مجازية، مثلها فى ذلك مثل أى شئ يدعى بـ "الفلسفى" فقد يبدو فلسفيًا دون الحاجة إلى علامة"[٤].

(١) نفسه، ص. ٩٣.
(٢) نفسه، ص. ٩٤.
(٣) نفسه، ص. ٩٥.
(٤) نفسه، ص. ٩٥.

يحتوى التعريف على لحظة درامية هى اللحظة التى كان فيها ابن خلدون ينتظر وصول أسرته من تونس، بعد قبول السلطان أبى العباس الحفصى شفاعة السلطان المملوكى برقوق فى ذلك، وكان ابن خلدون يشتغل منصب قاضى قضاة المالكية، إلا أن أسرته فنيت فى غرق السفينة المبحرة نحو مرفأ الإسكندرية، وأمام فظاعة وقوة الحدث المأساوى لم يقل ابن خلدون سوى كلمات مقتضبة: "فكثر الشغب عليَّ من كل جانب، وأظلم الجو بينى وبين أهل الدولة، ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد[1]، وصلوا من المغرب فى السفينة، فأصابها قاصف من الريح فغرقت، فذهب الموجود والسكن والمولود، فعظم الجزع ورجح الزهد"[2]، لم يصدر عن ابن خلدون إلا هذه الكلمات أمام الموت، وهذا موقف آخر قرر فيه صاحب التعريف التخفى، وهو مقطع له دلالة قصوى رغم أنه يبدو فى امتداد السيرة الذاتية واتساعها مجرد زائدة صغيرة، وإذا ما طلبنا النصيحة من "فرويد" **(Freud)** فإنه يقول إن ما يصاحب السلوك المقصود من زوائد صغيرة مثل: الزلات، الأخطاء، الهفوات السخيفة....تكون جديرة بالدرس والتأمل؛ لأن الذات الداخلية هى التى حددتها.

بعد هذا الحادث الأليم ينطلق ابن خلدون فى سرد القصص، فيقول لنا إنه اعتزم اعتزال منصب قاضى القضاة، لكنه تخلى عن هذه الفكرة خوفًا من سخط السلطان، فبقى على "صراط الرجاء واليأس"، ويضيف "وعن قريب تداركنى اللطف الربانى، وشملتنى نعمة السلطان – أيده الله – فى النظر بعين الرحمة، وتخلية سبيلى من هذه العهدة التى لم أطق حملها (.....) فردها إلى صاحبها الأول[3]، وأنشطنى من عقالها، فأطلقت حميد الأثر، مشيعًا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء، تلحظنى العيون بالرحمة، وتتناجى الآمال فى العودة، ورتعت فيما كنت راتعًا

---

(١) من الدارسين من يقول بأن زوجة ابن خلدون كانت مصحوبة بكل أبناء ابن خلدون وليس بولد واحد.

(٢) رحلة ابن خلدون، م. س، ص. ٢٩٥.

(٣) يقصد جمال الدين عبدالرحمان بن خير.

فيه من مراعى نعمته وظل رضاه وعنايته، قانعًا بالعافية التى سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه، عاكفًا على تدريس علم، أو قراءة كتاب، أو إعمال قلم فى تدوين أو تأليف، مؤملاً من الله قطع صبابة العمر فى العبادة، ومحو عوائق السعادة بفضل الله ونعمته[١].

تجنب ابن خلدون ذكر آثار موت أهله، فاكتفى بالإشارة إلى أنه اعتزل القضاء، وليس بطلب منه، خوفًا من إثارة سخط السلطان عليه، بل بمبادرة من السلطان نفسه، ويعد اعتزاله تفرغ للتأليف والكتابة، إنه اعتراف ملىء بالبياض، وهو مكتوب كما أنه يتحرى التخفى وإخفاء ضعف الإنسان أمام هول الموت، وماذا يتبقى من السيرة الذاتية إذ ما اتبعت إستراتيجية الكتمان؟ فى حين أنها معنية بمحاولات الإفشاء، فالكتمان فى السيرة الذاتية سرعان ما يفتضح،"فكلما كان الكاتب لماحًا، كانت مناطق الإفشاء أقل بكثير"[٢].

يبحث ابن خلدون عن ذاته ويعرف بها، ويتذكر حياته التى يتذكرها وليست الحياة التى كانت، ونحن مدعوون لتأمل الحوار الذى دار بينه وبين تيمورلنك حول مسألة رجوعه إلى مصر بعدما رجع سلطان مصر إلى ملكه لحماية عرشه، فيما تخلف ابن خلدون رفقة الكثير من أمراء السلطان وقضاته فى دمشق: "ثم دخلت عليه (تيمورلنك) يومًا آخر فقال لى: أتسافر إلى مصر؟ فقلت أيدك الله، رغبتى إنما هى أنت، وأنت قد آويت وكفلت، فإن كان السفر إلى مصر فى خدمتك فنعم، وإلا فلا بغية لى فيه، فقال لا، بل تسافر إلى عيالك وأهلك"[٣].

أورد ابن تاويت الطنجى قصة أخرى لهذه الواقعة من تاريخ ابن قاضى شهبة: "..... وفى مستهل شعبان؟، وصل إلى القاهرة وملى الدين ابن خلدون

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٢٩٠.

(٢) وليم جابس، كتابة السيرة الذاتية فى مصر النرجسية، م. س. ص. ٩٥.

(٣) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ص. ٤١٢ – ٤١٣.

المالكى، والقاضى صدر الدين بن العجمى كاتب الدست، والقاضى سعد الدين بن القاضى شرف الدين الحنبلى أيضًا، وكانوا من جملة المنقطعين بالشام، وكان القاضى ابن خلدون قد خرج مع القضاة من دمشق إلى تيمورلنك، ولما عرفه عظمه كثيرًا، وسأله أن يكتب له مدن المغرب، والمفاوز بها (كذا)، وأسماء قبائل العرب بها (كذا)، فلما قُرئت عليه بالأعجمى أعجبته وقال: صنفت أخبار المغرب فقط؟ فقال لـ، أخبار الشرق، والغرب، وأسماء الملوك، وقد كتبت ترجمتك، وأريد أن أقرأها (كذا) عليك، فما كان منها صحيحًا تركته، وما كان غير صحيح أصلحته، فأذن له فقرأ نسبه فقال: سألت عنه التجار الثقاة الواردين، ثم قرأ فتوحاته وأحواله، وابتداء أمره، ومنام (كذا) رآه والده، فأعجبه ذلك كثيرًا فقال: تهيأ حتى تذهب معى إلى بلادى، فقال له: فى مصر من يحبنى وأحبه، ولا بد لك من قصد مصر فى هذه المرة أو فى غيرها، وأنا أذهب وأهيء أمرى، وأذهب فى خدمتك، فأذن له فى الذهاب إلى مصر، وأن يصتحب معه من يشاء، هكذا حكى لى ذلك القاضى شهاب الدين بن العز، وأنه كان حاضرًا لبعض ذلك، "وفيه كما ترى – مخالفة لما يقصده ابن خلدون عن نفسه"(١).

بإمكاننا أن نقابل مجموعة من الاعترافات والتفاصيل والمعطيات فى التعريف .. بحقائق أخرى نقيضة لها مبثوثة فى هذا الكتاب أو ذاك لكن المهم الاقتناع بأن ابن خلدون وهو يكتب عن حياته وعن الآخرين كان يخلق عالمًا قصصيًا، وهذا الخلق يتخيله نوع من المراقبة للذات الحاضرة التى تدعى "كاتب السيرة الذاتية"، ولعل ذلك أكبر دليل على أن الذات فى السيرة الذاتية تنقسم إلى: ذات مسجلة، وذات مستحسنة، وذات مذنبة، وذات حالمة.." وكل ذلك فى "ذات" متجسدة، بمثابة "وعى" للفرد ضمن كل هذه الأذهان(٢).

---

(١) نفسه، ص. ٤١٣.

(٢) كتابة السيرة الذاتية فى عصر النرجسية، م. س، ص. ٩٦.

إن قول الحقيقة بحذافيرها، وتحقيق الصدق كهدف محض مسألتان تحول دونهما عدة عوائق، تقف في مقدمتها تمجيد الأنا[1]، والاختلاف والحياء والنسيان، وباقي نقائض الذاكرة، فـ" الأنا" الراهن عندما يعود إلى "الأنا" الماضي قصد التأمل والاستحضار يجد صعوبات كثيرة.

هذا، إضافة إلى أن كاتب السيرة الذاتية عندما يقول: "أنا رأيت" "فهو ينوي أن يعدل من "أناه" "بتقرير من جهاز استقباله"[2].

(١) هذا التمجيد حاضر بقوة في سيرة ابن خلدون الذاتية لكونها نصاً ذاتياً من أقوى دوافع كتابته التبريرية والدفاع عن النفس.

(٢) كتابة الذات في عصر النرجسية، م. س. ص. ٩٢.

الفصل الثانى

سيرة ذاتية من غير طفولة

١- محكى الطفولـــة:

يجب أن نقرأ هذا العنوان كما نقرأ السؤال: هل هناك سيرة ذاتية من غير حديث عن مرحلة عمرية مهمة هى الطفولة؟ أو ماذا يبقى من السيرة الذاتية إذا حذفت الطفولة منها؟ فالطفولة تمثل لحظات نموذجية فى حياة كل كتاب السيرة الذاتية، الجنس الأدبى الأقرب إلى رواية التعلم (Roman d' apprentissage)، التى تتأسس على مراحل تكون الفرد واندماجه فى العالم(١)، الطفولة، ومراحل التكون عموماً، هى البلاغة النموذجية التى تكشف عنها السيرة الذاتية، إلى درجة أن كتابة السيرة الذاتية هى التزام بالإجابة بتفصيل عن مجموعة من الأسئلة، الوجودية والحميمية، يتردد المقبل على هذا المشروع فى الخوض فيها(٢)، ويطرح كاتب سيرته الذاتية نفسه كما لو أنه يقف إرادياً أمام محكمة تحقق معه وتريد أن تسمع قصة حياته منذ البداية: أى طفل كانَه؟ كيف كان يتفاعل مع محيطه؟ كيف كان يتصور المستقبل؟ ما الاضطرابات التى كان يشعر بها وهو فى السن العاشرة مثلاً؟ وماذا بعد هذا العمر؟ كيف بدأ يتعاطى الكتابة؟ ما اعتزازاته وغروره كطفل؟ ما أنواع فضوله؟ ما الأشياء التى كان يتلقنها(٣)؟ فهذه الأسئلة تلح على الأهمية القصوى للحظة السرد الأولى، محكى الطفولة.

الذات التى تكتب السيرة الذاتية محرجة، أكثر من أى ذات أخرى، فى أثناء إطلالتها على مراحل التكون الأولى، فكتابة النص الذاتى ليست مونولوغاً، بل هى حوار الذات مع آخرها، فـ "أنا" هنا يتكلم باسم من يكتب السيرة الذاتية،

---

(١) Damien Zazone, l' autobiographie, ed. Ellipses,1994, p. 44.

(٢) Ibid. p. 44.

(٣) أسئلة طرحها الروائى الفرنسى "روجى مارتان دى غار" (Roger Martin du Gard) على صديقه الروائى الفرنسى "أندرى جيد" André Gide فى إحدى رسائله، انظر:

Correspondances, ed, Gallimard, 1968, t. 1, p. 158.

"ويستخدم إمضاءه"[1]، واستخدام الإمضاء ينطوى على المسؤولية، ومن هنا منشأ التردد الذى أشرنا إليه.

السيرة الذاتية لا تكتب بأى معنى شمولى، إذ إنه لا يتعين عليها أن تقدم وصفًا تامًّا لحياة المرء الخاصة، يسرد (جان بول سارتر)، مثلاً، فى سيرته الذاتية الكلمات[2]، السنوات الاثنتا عشرة الأولى من حياته، و(إدوارد سعيد) فى "خارج المكان" تناول طفولته وصباه، وبالمقابل هناك سير ذاتية تجاوزت هذه المرحلة، وبحثت فى مراحل النضج والعمل والتفكير، ومع ذلك تعتبر هذه النصوص مؤهلة للسرد السير ذاتى الذى يقدم وصفًا عن هوية الكاتب الذاتية.

ويمكن القول من زاوية أنثروبولوجية، إن "روسو" (Rousseau) أدرك أهمية الطفولة فى تكوين الشخصية، بحوالى قرن من الزمن قبل "فرويد : (Freud)، فخصها بمكانة مهمة فى الاعترافات، وضمن النوع بصفة عامة [3].

إن بناء قصة هو فى الحقيقة خضوع لمنطق السببية، وتتبع المذكرات التاريخية، مثلاً، الشخصية ابتداء من دخولها حلبة العالم، ومن هنا تعمل على بناء شهرتها، وتفرض الطفولة نفسها، فى عملية تصوير الفرد فى القرن الثامن عشر، كأول شاخص (jalon) ضمن تاريخ الشخصية، إن غياب محكى الطفولة وحده كاف لعدم قبول نص معين ضمن خانة جنس السيرة الذاتية [4]، ليتم إدخاله ضمن المذكرات أو الذكريات، وبالمقابل هناك العديد من السير الذاتية التى وضعت نفسها ضمن محكى الطفولة، مثل نصوص: غوته، ستاندال، جيد وآخرين الذين لم يذهبوا أبعد من مرحلة المراهقة.

---

(١) (ج. هيوسلفرمان)، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، م. س، ص. ١٥٦.

(٢) Jean-Paul Sartre, les Mots, op. cit.

(٣) Damien Zazone, l' autobiographie, op. cit. p. 44.

(٤) Ibid. p. 45.

ومثل السيرة الذاتية، يتضمن محكى الطفولة عدة عناصر متواترة تتكرر فى هذا النص أو ذاك، حسب سلسلة نموذجية لخصها "برينو فيرسيى" (Bruno Vercier) كالآتى: "ولدت، والدى ووالدتى، البيت، باقى أفراد العائلة، الذكرى الأولى، اللغة، العلم الخارجى، الحيوانات، الموت، الكتب، الموهبة، المدرسة، الجنس، نهاية الطفولة"[١]، إن غياب أى عنصر من هذه العناصر ينبغى أن يثير الانتباه، بل ويتطلب شرحًا، عندما كتب (مالرو) (Marlaux) فى مستهل مذكرات مضادة (Antimémoires) كل الكتاب الذين أعرفهم يحبون طفولتهم، أما أنا فأكره طفولتى"، كان بذلك قد وضع نفسه، عمدًا، خارج جنس السيرة الذاتية، وفى مقابل ذلك فإن "جورج بيريك"(Georges Perec) عندما أعلن فى بداية سيرته الذاتية [٢]: "ليست لى ذكريات طفولة"، فإن هذا الإعلان الاستهلالى الذى يخالف عنوان السيرة الذاتية، يفتح عملية التذكر التى يعتمد فيها المؤلف، للعثور على ماضيه، على اتفاقات محكى الطفولة، مع التسليم أنه يعرف جيدًا بعض العناصر النموذجية التى تجتمع حولها كل الطفولات[٣]، والكاتب فى هذه الحالة يحتاج إلى الذكرى الأولى التى تساعده فعليًا على الانطلاق فى سرده، وبالطبع، لكل فرد ذكرى معينة تكون هى الأولى ضمن شريط ذكرياته، لكن التقاليد السير ذاتية تتطلب عزل هذه الذكرى وإضفاء نوع من القداسة عليها، وإثقالها بدلالة كلية ومهيمنة[٤].

٢- محكى التعلم:

يمكن القول دون تردد، واستنادًا على مجموعة من العناصر النصية، إن سيرة ابن خلدون الذاتية، هى نص بدون طفولة، ففى الجزء الذى خصصه ابن خلدون لنشأته

(١) Ibid. p. 45.

(٢) Damien Zazone, l' autobiographie, op. cit. p. 45.

(٣) Georges Perec, W ou le souvenir d'enfance, op. cit. p. 13.

(٤) Ibid. p. 46.

ومشايخه وحاله، يبدأ بالإشارة إلى مكان الولادة: "أما نشأتي فإني ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على يد الأستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصاري"(١).

إن خيط السرد حول الطفولة بدأ بنسبه ومكان ميلاده، لينتقل مباشرة إلى اليفاعة وحفظ القرآن العظيم، وهذا شبيه باعتراف "روسو": "أجهل ما كنت أقوم به إلى حدود سنى الخامسة (...) لا أعرف كيف تعلمت القراءة، لا أتذكر سوى قراءاتي الأولى وأثرها علي"(٢).

الحديث عن التعلم والقراءة والكتابة لحظة مفضلة عند العديد من كتاب السيرة الذاتية(٣)، وهنا نجد أن ابن خلدون يشكل نموذجًا مناسبًا للسيرة الذاتية العربية التي تخصص صفحاتها الأولى لسيرة التعلم: "وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظي، قرأته عليه (ابن سعد بن برال) بالقراءات السبع المشهورة إفرادًا وجمعًا في إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها في ختمة واحدة أخرى، ثم قرأت برواية يعقوب(٤)، ختمة واحدة جمعًا بين الروايتين عنه، وعرضت عليه رحمه الله قصيدتي الشاطبي؛ اللامية في القراءات، والرائية في الرسم، وأخبرني بهما عن الأستاذ أبي العباس البطراني وغيره من شيوخه؛ وعرضت عليه كتاب التقصي لأحاديث الموطأ لابن عبد البر، حذا به حذو كتابه التمهيد على الموطأ، مقتصرًا على الأحاديث فقط، ودارست عليه كتبًا جمة، مثل كتاب التسهيل لـ (ابن مالك)(٥)، ومختصر(ابن

---

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٦١.

(٢) J. J. Rousseau, les confessions, op. cit. p. 8.

(٣) Damien Zazone, l' autobiographie, op. cit. p. 46.

(٤) يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله الحضرمي البصري (١١٧-٢٠٥هـ) أحد القراء العشرة.

(٥) كتاب عني فيه ابن مالك بأعلام النحو قراءة وشرحًا وإقراء.

الحاجب)[1]، فى الفقه، ولم أكملها بالحفظ، وفى خلال ذلك تعلمت صناعة العربية عن والدى (...)"[2].

وللانتقال من تاريخ ومكان الولادة إلى سيرة التعلم والحفظ على يد مشيخة من العلماء والفقهاء له دلالة قصوى، فابن خلدون كان يقصد الحديث عن نضجه ويفاعته متجاهلاً هشاشته فى السنين الأولى، وما ذكر ذلك العدد الهائل من الشيوخ والعلماء والفقهاء الذين أخذ عنهم ابن خلدون العلم والمعرفة إلا لتقديم صورة عن شغفه المبكر بالعلم والمعرفة، وبتكون شخصيته المبكر، الشىء الذى جعل الطفولة تغيب غياباً قد يكون مقصوداً؛ لذلك نجد ابن خلدون ينتقل مباشرة من تاريخ الميلاد، إلى التكون العلمى إلى ولاية العلامة بتونس ثم الرحلة بعدها إلى المغرب، والكتابة عن السلطان أبى عنان، ويمكن رسم ذلك كالآتى:

ـ الولادة (بياض ← الطفولة) – التعلم – ولاية العلامة

يتحدث ابن خلدون، بما يكفى، عن علاقته بوالده، باستثناء قوله إنه تعلم عنه صناعة العربية (ص. ٦٣)، حديثه عن العلاقة التى تجمع بين هذا الوالد وعبدالمهيمن أحد الشيوخ الكبار فى عصره (ص. ٧٤)، كما أنه لم يتحدث عن أى فرد آخر من أسرته، باستثناء أخيه محمد: "وكنت فى خلال ذلك أنتاب مجلس شيخنا الإمام، قاضى الجماعة أبى عبد الله، محمد بن عبدالسلام، مع أخى محمد رحمة الله عليهما[3]؛ " وبذلك تكون سيرة ابن خلدون الذاتية فقيرة فقراً شديداً على مستوى التعريف بعائلته، باستثناء المدخل الاستهلالى الذى تحدث فيه عن أسلافه؛ ولذلك، طبعاً، وظيفة

---

(١) يسمى الكتاب المختصر الفقهى، وهو فى الفقه المالكى.

(٢) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ص. ٦١ – ٦٢.

(٣) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٦٥.

إثبات وإبراز النسب الشريف الذى ينحدر منه، يعود غياب الاهتمام بمرحلة الطفولة لدى القدماء إلى كون الاهتمام بمحكى الطفولة ضمن محكى الحياة بصفة عامة هو اهتمام حديث(١)، فالعديد من كتاب السيرة الذاتية القدماء لم يذكروا من طفولتهم سوى مسألة التعلم والتكون، بل منهم من لم يتحدث حتى عن أمه(٢)، ولم يهتم الكتاب فى الغرب مثلاً، بطفولتهم، اللهم ذكر بعض العلامات التى تشير إلى موهبتهم ومستقبلهم الزاهر.

فى بداية القرن العشرين بدأ محكى الطفولة يفرض نفسه تدريجيًّا على أفق الانتظار الذى تخلقه سيرة ذاتية منشورة، وهناك من الكتاب من كانوا يكرهون طفولتهم، فاختاروا سرد حياتهم انطلاقًا من مراحل نضجهم.

من جهة أخرى هناك من أبعد سنوات الطفولة من سرده نظرًا إلى ضعف ارتباطها بسنوات النضج، السبب الذى دفع (فيليب لوجون) إلى إبعاد العديد من محكيات الطفولة من متن السيرة الذاتية، معللاً ذلك أيضًا بضعف أدبية هذه المحكيات(٣).

إذن، لقد أبعد ابن خلدون طفولته من سيرته الذاتية، لكونه كان يفضل الحديث عن مراحل نضجه الأولى، ولكون الوعى بالاهتمام بإدراج لبنة الطفولة فى جدار السيرة الذاتية هو وعى متأخر، ويمكن القول إن هذا الوعى حديث نسبيًّا، فقبل سيرة (جان جاك روسو) الذاتية "الاعترافات" لم يكن الكُتَّاب يعطون أهمية إلى مرحلة الطفولة.

---

(١) J. Lecarme- Tabone, l' autobiographie, op. cit. p. 29.

(٢) Ibid. p. 29.

(٣) Ph. Lejeune, l' autobiographie en France, op. cit. p. 21.

٣ ـ مشيخته :

لم يهتم ابن خلدون بذكر علاقاته الطفولية، سواء بأفراد عائلته أو بأترابه، بقدر اهتمامه بشيوخه من العلماء والفقهاء، وهو بذلك يهدف إلى الإخبار عن مكابداته الذهنية التى مهدت إلى مقامه كعالم ومؤرخ، وكأن هذا الجزء من السيرة الذاتية قريب من الفهرسة، التى هى من حيث الاصطلاح واللغة ذلك "الكتاب الذى يذكر فيه المؤلف شيوخه وما قرأ عليهم من كتب وأسانيد في تلك الكتب"(١).

ولم يكتف ابن خلدون بذكر شيوخه فقط، بل أخبر عنهم أيضًا إثباتًا لجدارتهم العلمية، وبأسلوب يقترب كثيرًا من أسلوب التراجم والسير، وهذا عمل لا يخلو من صعوبة، فأهمية الـ"أنا" لا تكتمل دون التفصيل فى سنوات التحصيل العلمى وفى النسب الذى هو إلى جانب كونه شجرة سلالة، فهو مرتبط بتأكيد المنبت الرفيع(٢)، إن هؤلاء الشيوخ الذين أعطاهم ابن خلدون حيزًا مهمًا فى سيرته الذاتية هم الذين حولوا ذاته إلى اسم علم، صحيح أن نشأته كانت فى أسرة مثقفة، لكن تربيته العلمية كانت على يد أكابر علماء تونس وفاس، الذين أكسبوه "سعة اطلاع ومرونة فكرية ونباهة"(٣)، ونلاحظ أن ذكر النسب الشريف فى السيرة الذاتية بما هو إشارة إلى الرفعة بين القوم، يكون مقرونًا بالرفعة العلمية، إذ إن هذا النسب بدون علم لا يمكن أن يستقر فى سيرة ذاتية، كما أن العلم بدون نسب شريف يعد رتبة غير محققة(٤)، وكل ذلك بهدف اقتفاء أثر تطورات الكينونة الفردية، والبحث عن هذه التطورات أورده الناقد "عبدالقادر الشاوى" فى أربع صيغ ممكنة، "ذكر تاريخ الميلاد أو الأصل

---

(١) عبد الله الترغى، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة، مرقون: ١٩٨٢ / ١٩٨٣م.

(٢) عبدالقادر الشاوى، الكتابة والوجود، م. س. ص. ٤٦ .

(٣) محمد عزيز الحبابى، ابن خلدون معاصراً، ترجمة: فاطمة الجامعى الحبابى، دار الحداثة، بيروت ١٩٨٤، ص. ٨٥.

(٤) المتكلم فى النص، م. س، ص. ٩.

أو النسب (وهو ما أسميه الوجود)، ذكر مراحل التعليم والشيوخ (وأعنى به نظام المعرفة)، ذكر الممارسة الاجتماعية المرتبطة بالتدريس (وأقصد العلاقات العامة والمحيط)، والإعلان عن المقصدية (أى) لماذا أكتب السيرة الذاتية، ولمن؟)، وغالبًا ما تتبنى هذه على الرتبة والاسم العلم"[1].

إذا كان النسب يدل على الرتبة الاجتماعية، فإن التعلم يشير إلى الرتبة العلمية، كما ستدل مغامراته السياسية على الرتبة التاريخية وعلى الأدوار التى قام بها وسط العواصف والتقلبات، وهنا لا يجب الاكتفاء بهذه المعطيات وتحكيمها كليًا فى تكوين صورة عن قيمة ابن خلدون ونضجه الفكرى، مادام النص يتوفر على عناصر أخرى كان لها الأثر الكبير فى تكوينه وإنضاجه.

تربى ابن خلدون فى حجر والده، وعندما أيفع قرأ القرآن على الأستاذ المكتب عبدالله محمد بن سعد بن برال الأنصارى، ولتبيان المكانة العلمية لهذا الأستاذ أكد ابن خلدون أن "أصله من جالية الأندلس من أعمال بلنسية، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها، وكان إمامًا فى القراءات، لا يلحق شأوه، وكان من أشهر شيوخه فى القراءات السبع أبو العباس أحمد بن محمد البطرانى، ومشيخته فيها، وأسانيده معروفة، وبعد أن استظهرت القرآن الكريم من حفظى، قرأته عليه بالقراءات السبع المشهورة إفرادًا وجمعًا فى إحدى وعشرين ختمة، ثم جمعتها فى ختمة واحدة أخرى، ثم قرأت برواية يعقوب ختمة واحدة جمعًا بين الروايتين عنه[2]، وعرضت عليه رحمه الله قصيدتَى[3] الشاطبى (...)[4]".

---

(١) نفسه، ص. ١٠.

(٢) يعقوب بن إسحاق أحد القراء العشرة، وله قراءة مشهورة عنه، رويت عنه، من طريقتين: الأولى رواية محمد بن المتوكل، والثانية عن روح عبدالمؤمن الهذلى، وإلى ذلك يشير ابن خلدون بقوله "جمعًا بين روايتين" (انظر: رحلة ابن خلدون)، ص. ٦٢.

(٣) قصيدة "اللامية" التى عرفت بالشاطبية، وبحرز الأمانى، و"الرائية" التى تعرف بالعقلية، انظر رحلة ابن خلدون، هامش. ٦٢، ص. ٦٢.

(٤) رحلة ابن خلدون، ص. ٦٢.

درس ابن خلدون على يد معلمه الأول سعد بن برال الأنصارى العديد من الكتب: كتاب التسهيل لابن مالك، وهو كتاب فى النحو، ومختصر ابن الحاجب، وهو كتاب فى الفقه المالكى، وبذلك فابن برال هو الأب الفكرى لابن خلدون مادام أنه اختار الحديث عنه بهذه الصيغة الدالة "ربيت فى حجر والدى رحمه الله إلى أن أيفعت وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبى عبدالله محمد بن سعد بن برال الأنصارى"(١).

أما صناعة العربية فقد تعلمها على والده، وعلى الشيخ التونسى أبى عبدالله بن العربى الحصارى، وهو إمام فى النحو، وعلى أبى عبد الله محمد بن الشواش الزرزالى، وأبى العباس أحمد بن القصار الذى يقول عنه إنه "كان ممتعًا فى صناعة النحو، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة فى مدح الجناب النبوى"(٢)، كما لازم مجلس إمام العربية والأدب بتونس، أبا عبدالله محمد بن بحر الذى كان "بحرًا زاخرًا فى علوم اللسان"(٣)، وهو الذى أشار عليه بحفظ الشعر، فحفظ ابن خلدون كتاب الأشعار الستة، والحماسة لـ (يوسف بن سليمان بن عيسى النحوى الشنتمرى) المعروف بالأعلم، وشعر حبيب بن أوس بن الحارث الطائى أبى تمام، وطائفة من شعر المتنبى، وجزءًا من أشعار كتاب "الأغانى".

وسمع كتاب مسلم بن الحجاج على شمس الدين أبى عبدالله محمد بن جابر بن سلطان القيسى الوادياشى، كما سمع عليه كتاب الموطأ من أوله إلى آخره.

أما الفقه فقد أخذه عن جماعة من العلماء، منهم أبو عبدالله محمد بن عبدالله الجيانى، وأبو القاسم محمد القصير، الذى قرأ عليه كتاب التهذيب لـ (أبى سعيد البرادعى، كما أنه فى الفترة نفسها كان ينتاب مجلس الشيخ الإمام قاضى الجماعة

---

(١) نفسه، ص. ٦١.

(٢) نفسه، ص. ٦٤.

(٣) نفسه، ص. ٦٤.

أبى عبدالله محمد بن عبدالسلام، وقد سمع عليه أيضاً كتاب الموطأ، ويذكر ابن خلدون أن هؤلاء العلماء "درجوا كلهم فى الطاعون الجارف"(١).

وأخص أساتذة ابن خلدون "شيخ العلوم العقلية"، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم الآبلى، وكغيره من الشيوخ ذكر ابن خلدون شيوخ الآبلى الذين أخذ عليهم "الكثير من المعقول والمنقول"، وعندما جاء من تونس إلى تلمسان جاء بعلم كثير، قبل أن يخرج تلمسان هارباً إلى المغرب من سلطانها يومئذٍ أبو حمو من ولد يغمراسن بن زيان "الذى كان يكرهه على التصرف فى أعماله، وضبط الجباية بحسبانه، ففر إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء الشهير الذكر، فحصل عنه سائر العلوم العقلية..."(٢).

يلاحظ، إذن، أن سيرة ابن خلدون تحتوى على عدد هائل من الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن خلدون العلوم النقلية والعقلية، وهو أمر يثير الانتباه، فهو "يخصص ترجمة لكل أستاذ، وفى كل ترجمة يبرز الترتيب السلمى من جديد: هل يعرف الأستاذ الفلانى أكثر أو أقل من غيره؟ ما الدرجة التى وصل إليها فى العلم ؟"(٣).

يرى "عبدالفتاح كيليطو" أن "التصور الذى يكمن وراء لائحة الشيوخ الطويلة التى يذكرها ابن خلدون هو أن العلم شعلة تنتقل من أستاذ إلى تلميذ عبر الأجيال، وهنا تطالعنا مرة أخرى فكرة النسب العلمى بعد النسب العائلى، المبدأ القائم فى التعريف على النسب العائلى هو: قل لى من هم أجدادك أقول لك من أنت، خصوصاً أن أساتذة ابن خلدون منحوه الإجازة، أى الشهادة التى تثبت أنه مؤهل لتدريس العلم الذى أفاده منهم"(٤).

---

(١) نفسه، ص. ٦٦.

(٢) نفسه، ص. ص. ٦٧– ٦٨.

(٣) عبدالفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دراسات فى السرد العربى، م. س، ص. ٧٨.

(٤) نفسه، ص. ٧٨.

يقول "فرانز روزنتال" فى هذا السياق، إن النقطة الرئيسية فى كل السير الذاتية العربية[١]، هى "وصول الشخص إلى الإيمان بمذهب من المذاهب أو دين ما من الأديان"[٢]، وهو تعميم يفيد أن كُتَّاب السيرة الذاتية يعطون عناية خاصة لتشكلهم العقائدى والفكرى، على حساب الجانب الوجدانى لشخصياتهم، "ويحاولون التأكيد على الجانب الاعتبارى لتكونهم الذاتى، متبعين الأساليب المباشرة فى التعبير كـ (ابن سينا) و(الغزالى) و(ابن خلدون) حيناً، والإيماء والرمز والتلميح كـ (ابن طفيل)، حيناً آخر"[٣].

إن الجانب الوجدانى هو شىء عرضى طارئ، وقيمة السيرة الذاتية، ولتكن السيرة الذاتية لـ (الغزالى) أو لـ (ابن خلدون)، ليست فى ذاتها، بوصفها وثيقة لحياة الغزالى أو (ابن خلدون) الروحية، إنما فى تحقيق أغراض أخرى منها إثبات "الأنا" التى تنتسب إلى العلم والتحصيل المعرفى، ومن هنا نجد الفرق بين هذه السير الذاتية والاعترافات للقديس (أوغسطين) التى تقدم صورة مفصلة عن "شخصية القديس الواضحة والقوية، بينما شخصية (الغزالى) تبدو من خلال المنقذ من الضلال شاحبة اللون باهتة"[٤]، وصفة الشحوب لا تصدق كليًا على (ابن خلدون)؛ لأن سيرته الذاتية تقدم تفكيكات عميمة لشخصيته ومزاجه وروحه، فهو بعد أن يتحدث عن شيوخه الذين درس عليهم الحديث والفقه والعربية والعلوم النقلية والعقلية، ينتقل للحديث عن هلاك والديه واتصاله بالسلطان أبى عنان، ورحلته إلى الأندلس وبجاية، وعلاقته بـ (ابن الخطيب)،

---

(١) كتب روزنتال تاريخ السير الذاتية العربية متحدثًا عن أشهرها ولخصه ووقف عند خصائصه، وقد تناول هذا التاريخ قرنًا فقرنًا ابتداء من القرن الثالث الهجرى حتى القرن العاشر الهجرى، وقد وقف عند هذا التاريخ؛ لأنه رأى فى هذه الفترة الكفاية؛ ولأن القرون التالية، فى رأيه، لم "يأت شيئًا مهمًا ذا قيمة خاصة. انظر – "الموت والعبقرية" لـ (عبدالرحمان بدوى). ط. ٢، م. س، ص. ١١٦.

(٢) عبدالرحمان بدوى، الموت والعبقرية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢، ص. ١٢٠.

(٣) عبدالله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافى العربى، ١٩٩٢، ص. ١٣٢.

(٤) الموت والعبقرية، م. س. ص. ١٢١.

ورحلته إلى مصر، وهلاك زوجته وابنه، وحجه ولقائه تيمورلنك، وهى مراحل تتضمن الكثير من المادة النفسية، لقد اعتنى ابن خلدون، كما فى معظم السير الذاتية العربية، عناية خاصة بمرحلة التكون المعرفى فى جميع وجوهه"، وبالوقوف المفصل على النتاج الفكرى الذى خلفه، وذكر الأحداث التى لها علاقة بهذا الجانب دون غيره، والمؤكد أن السيرة الذاتية العربية التى تنحو هذا المنحى، تستدعى أحداث الطفولة على عجل، ذلك أن عنايتها الأساسية تتجه ناحية الموقع الاعتبارى، علميًا ودينيًا، الذى صار عليه صاحب السيرة زمن تدوينها"[1].

ويستخلص (عبدالفتاح كيليطو) الخلاصة نفسها، فليس "لمرحلة الطفولة" ذكر فى التعريف، هذا شىء لا يبعث كثيرًا على الاستغراب؛ لأن الطفولة مسكوت عنها فى كتب التراجم، بل فى الأدب الكلاسيكى بصفة عامة، لا يكاد يرد ذكر الطفل إلا فى الرثاء، عندما يفقد شاعر ولده (ابن الرومى)، أو عند الاستعطاف (الحطيئة)"[2].

تهمل الطفولة فى السير الذاتية العربية القديمة؛ لأن الشخصية التى يجوز تقديمها هى "الشخصية العاقلة" والمسؤولة شرعًا، لا يذكر "التعريف" من الطفولة إلا شيئًا واحدًا: حفظ القرآن؛ لأن هذا الحفظ يؤهل الطفل للانتقال إلى مرحلة الرجولة، بفضل الاطلاع على كتاب الله، يتأدب الطفل، أى ينتقل من حالة شبه حيوانية إلى حالة إنسانية"[3].

---

(١) السردية العربية، م. س. ص. ١٣٤، وأكبر مثال على هذا اللون المنقذ من الضلال لـ (لغزالى)، التى انصرف فيها صاحبها إلى المرحلة الأخيرة من مراحل تكونه الفكرى، ولعل قوله: "أحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين أضراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق ..." خير دليل على اهتمام جُل كتاب السيرة الذاتية العرب بمسالة التكون والنضج الفكرى. انظر: ـ الغزالى، المنقذ من الضلال، م. س.

(٢) الحكاية والتأويل، دراسات فى السردالعربى، م. س. ص. ٧٨.

(٣) نفسه، ص. ٧٧.

٤ ـ نسبه وأسرته:

يلح ابن خلدون كثيراً على أسلافه وأجداده، وذلك يوحى بأن صاحب "التعريف" ينظر إلى أسلافه كمرآة لنفسه[١]، فهو يبدأ سيرته الذاتية بسرد تاريخ عائلته [٢]، فيسرد تاريخ هذه الأسرة بدءاً من النسب الشريف، إلى سلفه بالأندلس، ثم إفريقيا، لنجد أنفسنا أمام أسرة عريقة تعود إلى زمن بعيد، تعود إلى وائل بن حجر، و"وائل" هذا "من أقيال العرب" ومعروف وله صحبة"[٣]، أى له صحبة بالرسول، وفد عليه "فبسط له رداءه، وأجلسه عليه، وقال: "اللهم بارك فى وائل بن حجر وولده وولد ولده إلى يوم القيامة"[٤]، إن هذا الدعاء "تثبيت وتأكيد لنباهة الأسرة التى ينتمى إليها ابن خلدون"[٥]، كما أنه يشير إشارة قوية إلى أن أسرة آل خلدون نالت بفضل هذا الدعاء حظاً وافراً من المجد على مر الأجيال، و"صحة هذا الحديث لا تظهر فقط بالإسناد ولكن كذلك بكون الدعاء الذى يتضمنه قد تحقق ونال الاستجابة"[٦]، فدعاء الرسول حدد ووجه مصير أجداده، وحياته لن تختلف عن حياة أجداده من هذه الناحية، فهى خاضعة لا لمبدأ الاتصال والاستمرار لا لمبدأ الاختلاف، وهنا يركز ابن خلدون على مبدأ الترتيب السلمى، أى القيمة التى بلغتها الأسرة على مر الأجيال[٧].

---

(١) نفسه، ص. ٧٧.

(٢) رحلة ابن خلدون، م. س، ص، ص. ٤٩ -٦١.

(٣) نفسه، ص. ٥٠.

(٤) نفسه، ص. ٥١.

(٥) الحكاية والتأويل، دراسات فى السرد العربى، م. س، ص. ٧٧.

(٦) نفسه، ص. ٧٧.

(٧) نفسه، ص. ٧٧.

ويذكرنا ابن خلدون أيضًا بسلسلة نسب بنى خلدون كما رواها أبو محمد بن حزم فى كتابه "الجمهرة"، وأنهم دخلوا الأندلس قادمين من حضرموت، فأقاموا بداية بـ"قرمونة" Carmona، ثم انتقلوا إلى إشبيلية، "وكانوا فى جند اليمن"[1]، وليطلعنا على الدور المهم الذى اضطلع به بنو خلدون فى تاريخ إشبيلية يرجع ابن خلدون إلى المؤرخ المتخصص فى تاريخ الأندلس هو ابن حيان، وخصوصًا إلى حادثة محاولة الاستيلاء على إشبيلية[2]، فى نهاية العهد الأموى، الشىء الذى أدى إلى الاضطرابات التى انتهت بقيام ملوك الطوائف، وقد كان رئيس بيت آل خلدون، آنذاك، هو "كريب" ويردفه أخوه خالد، وفشل محاولة الاستيلاء على إشبيلية نتج عنه أن أصبح بنو خلدون وزراء لابن عباد الإشبيلى بعد أن "علا كعبه" و"استبد على أهلها، استوزر من بنى خلدون هؤلاء، واستعملهم فى رتب دولته، وحضروا معه وقعة الزلاقة"[3]، لكن عصبية بنى خلدون، مثلها مثل جميع العصائب العربية بالأندلس، انتهت بالضعف والفشل وبفقدان التأثير السياسى: "لم يزل بيت بنى خلدون بإشبلية - كما ذكره ابن حيان وابن حزم وغيرهما، سائر أيام بنى أمية إلى أزمان الطوائف، وانمحت عنهم الإمارة بما ذهب لهم من الشوكة"[4]، وهذه عبارة لها دلالة قوية يختم بها ابن خلدون حديثة عن تاريخ أسرته فى الأندلس[5]، هذه تكتسب النهاية أهمية خاصة بالنسبة إلى ابن خلدون؛ "لأنها ترتبط" بتاريخه الخاص وبتاريخ أسرته، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس، والتى تسجل تغييرًا جذريًا فى الوضعية السياسية للأسر

---

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٥٢.

(٢) نفسه، ص. ٥٣.

(٣) نفسه، ص. ٥٥.

(٤) نفسه، ص. ٥٥.

(٥) وهى فترة انتقالية خطيرة فى تاريخ العرب فى الأندلس، فترة عصر ملوك الطوائف الذى ابتدأ بنهاية الخلافة الأموية، وانتهى بغلبة يوسف بن تاشفين المرابطى عليهم واستيلائه على الأندلس: "ثم تغلب يوسف بن تاشفين والمرابطون على الأندلس، واضمحلت دولة العرب، وفنيت قبائلهم"(ص. ٥٦).

العربية، هى مرحلة انتهاء المجد السياسى لـ (بنى خلدون)، ذلك المجد الذى تحدث عنه كل من ابن حزم وابن حيان"[1].

خضعت أسرة ابن خلدون لتحولات جذرية، هى ترجمة لتحولات سياسية على حلبة الواقع، فعهد المرابطين هو زمن أفول المجد السياسى لهذه الأسرة "ولا يقول ابن خلدون عن ذلك شيئًا"[2]، فالتجأت إلى دولة بنى حفص فى تونس بسبب العلائق الحسنة التى كانت تربط الأسرة بالموحدين، والحفصيون ينتسبون إلى الموحدين، فعادت الأسرة الخلدونية إلى لعب بعض الأدوار التقنية فى الدولة الحفصية على عهد الأمير أبى إسحاق الذى دفع جد ابن خلدون "أبا بكر محمد" إلى عمل الأشغال فى الدولة، على سنن عظماء الموحدين بتلك الرتبة، ثم عقد السلطان أبو إسحاق لابنه محمد، وهو جدنا الأقرب، على حجابة ولى عهده ابنه أبى فارس أيام أقصاه إلى بجاية"[3].

وبعد مد وجزر طبع الحياة السياسية، حدث تحول جذرى فى مصير الأسرة، إذ إنها تركت السياسية إلى العلم والتصوف، طرأ هذا التحول على حياة جد ابن خلدون الذى عندما "انقرضت دولة ابن اللحيانى خرج إلى المشرق، وقضى فرضه سنة ثمان عشرة، وأظهر التوبة والإقلاع، وعاود الحج متنقلاً سنة ثلاث وعشرين، ولزم كسر بيته، وأبقى السلطان أبو يحيى عليه نعمته فى كثير مما كان بيده من الإقطاع والجراية، ودعاه إلى حجابته مرارًا، فامتنع"[4]، وقد ربى والد ابن خلدون على النهج نفسه: "وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من تونس يستعمل جدنا محمد عليها، وثوقا بنظره واستنامة إليه، لما أن هلك سنة سبع وثلاثين، ونزع ابنه وهو والدى محمد أبوبكر، عن طريقة السيف والخدمة، إلى الطريقة العلم والرباط، لما نشأ عليها

(١) على أومليل، الخطاب التاريخى، دراسة لمنهجية ابن خلدون، معهد الإنماء العربى، بيروت، ب. ت. ص. ٧٨.

(٢) نفسه، ص. ٧٨.

(٣) رحلة ابن خلدون، م. س، ص. ٥٩.

(٤) نفسه، ص. ٦٠.

في حجر أبي عبدالله الزبيدى الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده، في العلم والفتيا، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبيه حسين وعمه حسن، الوليين الشهيرين، وكان جدنا رحمه الله قد لزمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه، وهو والدى رحمه الله فقرأ وتفقه، وكان مقدمًا في صناعة العربية..."(١).

إذن، فتحول أسرة ابن خلدون من السياسية إلى العلم والتصوف كان بسبب تأثير الزبيدى الفقيه التونسى الشهير، وهو التأثر أى مس والد ابن خلدون الذى لم يهتم قط بالسياسة، وفى ذلك إمارة عن فترة تتجه فأكثر نحو التصوف والطرقية اللذين سيشرطان طوال قرون تاريخ المجتمعات المغربية وسيحددان سياستها(٢). فالقرن الذى عاش فيه ابن خلدون كان مطبوعًا بتيار قوى من الصوفية والطرقية "مما جعل العلماء يتحولون نحو التصوف" وقد اهتم ابن خلدون نفسه بالمسألة الصوفية وأولاها عنايته، فبالإضافة إلى الفصل المهم الذى كتبه عن التصوف فى المقدمة، خصص إحدى مقدماته الست عن العمران "لأصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة"(٣)، ومع ذلك فالتيار الصوفى للقرن الثامن الهجرى فى بلدان المغرب العربى لم ينعكس على نظرية التاريخ عند ابن خلدون رغم تأثيره على أسرته تأثيراً كبيراً(٤)، علمًا أن ابن خلدون انخرط فى عدة نقاشات حول التصوف، وله فى ذلك مؤلفه "شفاء السائل".

لكن لماذا فشلت أسرة ابن خلدون فى السياسة؟ وهل هذا الفشل هو ما دفع بنى خلدون إلى التصوف؟ إن الفقدان النهائى للسلطة التى كانت للأسرة فى الأندلس، والتجربة السياسية لـ (ابن خلدون) نفسه، تدفعنا بقوة إلى اعتماد فرضية أن هامشية

---

(١) نفسه، ص. ٦١ .

(٢) الخطاب التاريخى، دراسة لمنهجية ابن خلدون، م. س، ص. ٧٩.

(٣) نفسه، ص. ٧٩.

(٤) نفسه، ص. ٧٩.

أسرة ابن خلدون فى دول المغرب هى ما دفعتهم إلى التصوف، وهذه الفرضية تدعمها أيضًا بعض الأطروحات الخلدونية، فهذا الفشل السياسى يمكن تفسيره وتأويله بالتاريخ[1]، فمن خلال المناصب التى كانت لـ (آل خلدون) فى الأندلس، وتلك التى تقلدوها فى بلدان المغرب يمكن تأويل فقدان المجد السياسى، حيث إن "قوانين السياسة" هى جزء من "قوانين العمران"، فرغم "المناصب ذات النفوذ التى تقلدها ابن خلدون وأجداده فى مختلف دول المغرب، فإنهم قد ظلوا دائمًا هامشيين سياسيًا فى هذه الأقطار[2]، فالسياسة فى بلدان المغرب العربى تحددها بنيته القبلية بخلاف السياسة فى الأندلس، فالمغرب كما جاء فى المقدمة هو بلاد "قبائل وعصبيات"[3]، "وكل عمل سياسى لا بد وأن يمر عبر اللعبة القبلية، ولا يمكن أن يمارسه إلا من كانوا مرتبطين ارتباطًا طبيعيًا بإحدى القبائل، ومنتسبين لإحدى العصبيات، لكن أسرة ابن خلدون، مثلها مثل الأسر الأندلسية الكبيرة الملتجئة إلى المغرب، فقدت عصبيتها حتى من قبل أن تصل إلى موطن هجرتها؛ بسبب انزلاقها فى الترف والحضارة، ومن ثم فإن عصائب أخرى أكثر قوة، هى عصائب البربر، قد انتزعت منهم السلطة داخل بلادهم (الأندلس)"[4].

٥ - المرحلة المغاربية:

تعتبر المرحلة المغاربية من أصعب المراحل فى حياة ابن خلدون علميًا وسياسيًا، فى ظل حكم الملوك المرينيين الذين استردوا الجزء الأكبر من الإمارة التى كانت تحت

(١) يرى الدكتور على أومليل فى أطروحته حول ابن خلدون وخطابه التاريخى أنه من الممكن تفسير ذلك بقوانين التاريخ، ذلك أن تاريخ الشخص وتاريخ عائلته يندمجان فى التاريخ العام، وهنا يجد أومليل أن هناك رابطة وثيقة بين السيرة الذاتية لـ (ابن خلدون)، كتابه المقدمة، فهناك تطابق ضمنى بين الكتابين (ص. ٨٠).

(٢) الخطاب التاريخى، م. س. ص. ٨٠.

(٣) عبدالرحمان بن خلدون، المقدمة، تحقيق على عبد الواحد وافى، نشر لجنة البيان العربى، القاهرة، ١٩٦٥ ص. ١١٢، ج . II.

(٤) على أومليل، الخطاب التاريخى، دراسة لمنهجيه ابن خلدون، م. س. ص. ٨١.

سلطة الموحدين، بفضل السلطان المرينى أبى الحسن الذى وحّد أقطار المغرب، بعد استيلائه على تلمسان، وقضائه على دولة بنى عبد الواد، واستيلائه على بجاية التى كانت خاضعة لحكم الحفصيين، ونقل أمير بجاية إلى تلمسان، وفرض عليه الإقامة هناك، واستولى على قسطنطينة ثم تونس.

لكن الأمراء الحفصيين ظلوا يتطلعون إلى استعادة ملكهم، فكانوا يؤلبون القبائل على الثورة، تلك القبائل التى كانت لا تتعاون سوى مع السلطان الأقوى، وعندما يضعف يثورون عليه ويتعاونون مع منافسيه[١]، أما بلاد الأندلس فقد كانت تعيش مرحلة انحطاط خطير بسبب الانقسام والتمزق.

كان ابن خلدون فى تونس، منذ نشأ، "منكبًا على تحصيل العلم، حريصًا على اقتناء الفضائل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان، والصدور، وجميع المشيخة وهلك أبواى، رحمهما الله"[٢]، وهى المرحلة التى كان فيها ابن خلدون ملازمًا لمجلس شيخه المفضل أبى عبد الله الآبلى، إلى أن استدعاه السلطان أبو عنان فارتحل إليه، وفى الوقت نفسه استدعى الوزير أبو محمد ابن تافراكين بتونس ابن خلدون لكتابة العلامة عند السلطان أبى إسحاق، مكان صاحب العلامة أبى عبد الله بن عمر الذى عزله السلطان.

قامت فى تلك الفترة بالضبط الحرب بين أبى زيد الحفصى المطالب بعرش تونس "بن" تافراكين، وذلك سنة (٧٥٣)هـ، وذهاب الآبلى إلى المغرب جعل ابن خلدون يحس بالوحشة والفراغ، وعندما عاد بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب اعتزم اللحاق بشيوخه،

---

(١) محمد فاروق النبهان، الفكر الخلدونى من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨، ص. ٤٠.

(٢) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٩٩.

إلا أن شقيقه وكبيره محمد صده عن ذلك، وعندما دعى إلى هذه الوظيفة أجاب بالقبول قصد الالتحاق بالمغرب، فخرج من تونس، ونزل بلاد هوارة: "وزحفت العساكر بعضها إلى بعض، بفحص مرجانة، وانهزم صفنا ونجوت أنا إلى "أبة"، فأقمت عند الشيخ عبد الرحمان الوشتاتى، من كبراء المرابطين، ثم تحولت إلى "تبسة"، ونزلت بها على محمد بن عبدون ..."(١)، فى تلك الفترة سيطر السلطان أبو عنان ملك المغرب على تلمسان وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمان، وأخاه ثابت، وملك بجاية من يد صاحبها، الأمير أبى عبدالله وولى عليها عمر بن على شيخ بنى وطاس، عندئذ ارتحل ابن خلدون إلى تلمسان: "وارتحلت أنا من بسكرة، وافداً على السلطان أبى عنان بتلمسان، فلقيت ابن أبى عمرو بالبطحاء، وتلقانى من الكرامة بما لم أحتسبه، وردنى معه إلى بجاية، فشهدت الفتح، وتساتلت وفود إفريقيا إليه، فلما رجع السلطان، وفدت معهم، فنالنى من كرامته وإحسانه ما لم أحتسبه، إذ كنت شاباً لم يطر شاربى."(٢).

ولما عاد السلطان أبو عنان إلى فاس لحق به ابن خلدون: "وعاد السلطان أبو عنان إلى فاس، وجمع أهل العلم للتحليق بمجلسه، وجرى ذكرى عنده، وهو ينتقى طلبة العلم للمذاكرة فى ذلك المجلس، فأخبره الذين لقيتهم بتونس عنى، ووصفونى له، فكتب إلى الحاجب يستقدمنى، فقدمت عليه، سنة خمس وخمسين، ونظمنى فى أهل مجلسه العلمى، وألزمنى شهود الصلوات معه، ثم استعملنى فى كتابته، والتوقيع بين يديه، على كره منى، إذ كنت لم أعهد مثله لسلفى، وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة، من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس الوافدين فى غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية"(٣)، وقد كان ذلك سنة (٧٥٥)هـ.

---

(١) نفسه، ص. ص. ٩٩ - ١٠٠.

(٢) نفسه، ص. ١٠٢.

(٣) نفسه، ص. ١٠٢.

يتبين، إذن، أن الدافع الأساسى، وربما الوحيد، الذى دفع ابن خلدون إلى قبول منصب كتابة العلامة لسلطان تونس عام (٧٥٣) هـ، هو التمكن من اللحاق بأساتذته الذين رحلوا إلى فاس، وما أن وصل إلى فاس، بعد بضعة أشهر قضاها فى التنقل بين قبائل المغرب الأوسط فى حماية زعمائها، حتى انكب على الدراسة والتحصيل، لكن فاس فى عهد أبى عنان لم تكن مدينة علم فقط، "ولم تكن حاشية هذا السلطان تضم رجال الفقه والحديث والأدب فحسب، بل كانت المدينة عاصمة سياسية، تضم رجالاً سياسيين محترفين وغير محترفين، داخل حاشية السلطان وخارجها، كان من بين هؤلاء من المغرب الأوسط والأدنى، كان منهم الحر الطليق، واللاجئ المستجير، والمحجوز السجين، وكان من الطبيعى أن يتصل ابن خلدون، وهو الشاب المرموق، بهؤلاء وأولئك ويحتك بهم ويشاركهم أحاديثهم، بل ومؤامراتهم"(١).

وعلى رأس الذين تعرف عليهم ابن خلدون من رجال السياسة المحيطين بالسلطان، أبى عبدالله محمد بن أبى زكرياء الحفصى، أمير بجاية، وهى واحدة من عواصم المغرب الأوسط (تلمسان وقسنطينة)، وقد نَزَلَ أبو عبدالله مكرها عن ثغر بجاية للسلطان أبى عنان بعد أن انتهت حرب هذا الأخير مع بنى عبدالواد بتلمسان، ويحدثنا ابن خلدون عن علاقته بهذا الأمير الذى احتجزه السلطان قائلاً:

"... ولما قدمت على السلطان أبى عنان آخر خمس وخمسين واستخلصنى، نبضت عروق السوابق بين سلفى وسلف الأمير أبى عبدالله، واستدعانى للصحابة فأسرعت، وكان السلطان أبو عنان شديد الغيرة من مثل ذلك، ثم كثر المنافسون ورفعوا إلى السلطان، وقد طرقه مرض أرجف له الناس فرفعوا له، أن الأمير أبا عبدالله اعتزم على الفرار إلى بجاية وأنى ساعدته على ذلك، على أن يولنى حجابته، فانبعث لها

---

(١) محمد عابد الجابرى، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، دار النشر المغربية، ١٩٨٢.

السلطان، وسط بنا، واعتقلني نحواً من سنتين إلى أن هلك، وجاء السلطان أبو سالم، واستولى على المغرب، ووليت كتابة سره ...[1].

لقد كانت هذه أول نكبة يتعرض لها ابن خلدون، وعندما أطلق سراح الأمير المعتقل، بقي هو في السجن مدة سنتين من (٧٥٨) إلى (٧٥٩) هـ، ولم يعده السلطان بالإفراج عنه إلا عندما رفع إليه ابن خلدون قصيدة يستعطفه فيها[2]، لكن وفاة أبي عنان كانت سنة (٧٥٩) هـ وابن خلدون مازال في السجن: "وكان بتلمسان فوعد بالإفراج عني عند حلوله بفاس، ولخمس ليال من حلوله طرقه الوجع، وهلك لخمس عشرة ليلة، في رابع وعشرين ذي الحجة خاتم تسع وخمسين، وبادر القائم بالدولة، الوزير الحسن (بن عمر) إلى إطلاق جماعة من المعتقلين، كنت فيهم، فخلع علي، وحملني، وأعادني إلى ما كنت عليه وطلبت منه الانصراف إلى بلدي، فأبى علي، وعاملني بوجوه كرامته، ومذاهب إحسانه، إلى أن اضطرب أمره، وانتقص عليه بنومرين...[3]".

عندما ثار زعماء بني مرين على الحسن بن عمر وسلطانه السعيد بن أبي عنان، ولُّوا منصور بن سليمان، وهو بني مرين، فدخل ابن خلدون في خدمته، إلى أن جاء أبو سالم، شقيق أبي عنان، من الأندلس، حيث نفاه أبو عنان، وطالب بملكه بمساعدة وزيره الخطيب بن مرزوق بفاس، الذي استعان بدوره بابن خلدون الذي أقنع شيوخ بني مرين نظراً لما كان بينهم من محبة وائتلاف: "ولما جاز السلطان أبو سالم من الأندلس لطلب ملكه، ونزل بجبل الصفيحة من بلاد غمارة، وكان الخطيب بن مرزوق بفاس، فبث دعوته سرّاً، واستعان بي على أمره، بما كان بيني وبين أشياخ بني مرين من المحبة والائتلاف، فحملت الكثير منهم على ذلك، وأجابوني إليه، وأنا يومئذ أكتب

---

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ١٤٠.

(٢) انظر الصفحة: ١٠٩ من سيرته الذاتية، وهي قصيدة طويلة، نحو مائتي بيت، لكن ابن خلدون أورد منها أبياتًا معدودة ؛"لأنها ذهبت عن حفظه"، كما يقول.

(٣) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ص. ١١٠-١٠٩.

عن القائم بأمر بنى مرين، منصور بن سليمان بن منصور بن عبدالواحد بن يعقوب ابن عبدالحق، وقد نصبوه للملك، وحاصروا الوزير الحسن بن عمر، وسلطانه السعيد ابن أبى عنان، بالبلد الجديد، فقصدنى ابن مرزوق فى ذلك، وأوصل إلى كتاب السلطان أبا سالم، بالحض على ذلك، وإجمال الوعد فيه، وألقى على حمله، فنهضت به، وتقدمت إلى شيوخ بنى مرين، وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك، حتى أجابوا، وبعث ابن مرزوق إلى الحسن بن عمر، يدعو إلى طاعة السلطان أبى سالم، وقد ضجر من الحصار، فبادر إلى الإجابة"[1]، وبعد ذلك أسند إليه منصب "خطة المظالم" وهو منصب قضائى رفيع.

وعندما استقر أبو سالم على العرش، فرعى لـ (ابن خلدون) ماقام به من مسانده، واستعمله فى كتابة سره: "ولما اجتمعت العساكر عنده بالقصر، صعد إلى فاس، ولقيه الحسن بن عمر بظاهرها، فأعطاه طاعته، ودخل إلى دار ملكه وأنا فى ركابه، لخمس عشرة ليلة من نزوعى إليه، منتصف شعبان ستين وسبعمائة، فرعى لى السابقة، واستعملنى فى كتابة سره، والترسيل عنه، والإنشاء لمخاطبته، وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل"[2].

ولسوء حظ ابن خلدون فإن عهد السلطان أبى سالم لم يدم إلا سنتين (٧٦٠-٧٦٢ هـ)، بعد أن استبد عليه وزيره ابن مرزوق، فثار ضده شيوخ المرينيين بقيادة عمر بن عبد الله، الذى قتل السلطان أبا سالم، "وثار الوزير عمر بن عبدالله بدار الملك فصار إليه الناس، ونبذوا السلطان وبيعته، وكان فى ذلك هلاكه[3].

تعود العلاقة التى تجمع ابن خلدون بالوزير عمر إلى عهد أبى عنان، وهى علاقة جيدة أقر الوزير عمر فيها ابن خلدون فى وظائفه: "ولما قام الوزير عمر بالأمر، أقرنى

(١) نفسه، ص. ص. ١١٠-١١١.

(٢) نفسه، ص. ١١١.

(٣) نفسه، ص. ١٢١.

على ما كنت عليه، ووفر إقطاعى، وزاد فى جرايتى، وكنت أسمو، بطغيان الشباب، إلى أرفع مما كنت فيه، وأدل فى ذلك بسابق مودة معه، منذ أيام السلطان أبى عنان"[1]، غير أن ابن خلدون كان دائمًا يفكر فى الرجوع إلى بلده إفريقيا، وعندما طلب ذلك من الوزير لم يقبل أول الأمر خوفًا من دخول ابن خلدون فى خدمة بنى عبدالواد بتلمسان، ولم يوافق الوزير عمر عن رحيله إلا بعد وساطات قام بها صديقه الوزير مسعود بن رحو بن ماساى، فدخل عليه ابن خلدون يوم الفطر، سنة (٧٦٣)هـ، فأنشده قصيدة هذا مطلعها:

هنيئًا بصوم لاعداه قبول وبشرى بعيد أنت فيه منيل

وهنَّأْتُهَا من عزة وسعادة تتابع أعوام بها وفصول[1].

فأذن له فى الانطلاق "شريطة العدول عن تلمسان، فى أى مذهب أردت، فاخترت الأندلس، وصرفت ولدى وأمهم إلى أخوالهم، أولاد القائد محمد بن الحكيم بقسنطينة، فاتح أربع وستين، وجعلت أنا طريقى على الأندلس، وكان سلطانها أبو عبد الله المخلوع، حين وفد على السلطان أبى سالم بفاس، وأقام عنده، حصلت لى معه سابقة وصلة ووسيلة خدمة من جهة وزيره أبى عبدالله بن الخطيب"[2].

٦- المرحلة الأندلسية:

ما أن نزل ابن خلدون عند زميله سلطان غرناطة من بنى الأحمر، ووزيره الشهير لسان الدين بن الخطيب، حتى شرع فى القيام بمهامه السياسية، منها أنه قام فى سنة (٧٦٥) هـ بمهمة للسلطان[3]، ابن الأحمر لدى الطاغية ملك قشتالة الإسبانى لعقد الصلح

(١) نفسه، ص. ١٢١.

(٢) نفسه، ص. ١٢١.

(٣) نفسه، ص. ١٢٨.

بينهما فكللت مهمته بالنجاح، الشيء الذى زاد فى حظوته لدى السلطان ابن الأحمر، يصف ابن خلدون هذه المهمة قائلاً: "وسفرت عنه سنة خمس وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذ، بطره بن الحصنشة ابن أذفونش، لإتمام عقد الصلح ما بينه وبين ملوك العدوة، بهدية فاخرة، من ثياب الحرير، والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيل، فلقيت الطاغية بإشبيلية، وعاينت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمكاني، وعلم أولية سلفنا بإشبيلية (...) ولم يزل على اغتباطه إلى أن انصرفت عنه، فزودني وحملني، واختصني ببغلة فارهة، بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان..."، ونجاح ابن خلدون فى ربط علاقة قوية مع سلطان غرناطة دعاه إلى استدعاء عائلته عازمًا على الاستقرار هناك، فالتحق به أهله من قسنطينة: "وكثر الحنين إلى الأهل والتذكار، أمر (السلطان) باستقدام أهلي من مطرح اغترابهم بقسنطينة، فبعث عنهم من جاء بهم إلى تلمسان، وأمر قائد الأسطول بالمرية، فسار لإجازتهم فى أسطوله، واحتلوا بالمرية، واستأذنت السلطان فى تلقيهم، وقدمت بهم على الحضرة، بعد أن هيأت لهم المنزل والبستان، ودمنة الفلح، وسائر ضرورات المعاش"(١).

لقد اختار ابن خلدون الانتقال إلى الأندلس هربًا من العواصف التى عانى منها فى المغرب الأقصى(٢)، لقد شهدت قصور المرينيين العديد من الثورات والانقلابات بسبب المستبد ابن مرزوق، فاختار ابن خلدون الأندلس؛ لأنه كان قد تعرف فى فاس على سلطان غرناطة أبى عبد الله محمد بن يوسف، ووزيره ابن الخطيب عندما كانا لاجئين فى فاس فى عهد السلطان المرينى أبى سعيد.

---

(١) نفسه، ص. ١٣٦.

(٢) يصف الدكتور محمد عزيز الحبابى ابن خلدون بـ "رجل فى ملتقى العواصف" - انظر كتابه: - "ابن خلدون معاصراً"، م. س. ص. ٨٤.

وكتب ابن خلدون رسالة إلى السلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب يعلمهما فيها بقدومه، فوصله كتاب من ابن الخطيب يهنئه فيها بالقدوم:

حللت حلول الغيث بالبلد المحل — على الطائر الميمون والرحب والسهل
يمينًا بمن تعلو الوجوه لوجهه — من الشيخ والطفل المهدأ والكهل
لقد نشأت عندى للقيال غبطة — تنسى اغتباطى بالشبية والأهل
وودى لا يحتاج فيه لشاهد — تقريرى المعلوم ضرب من الجهل[1]

٧- علاقة ابن خلدون بابن الخطيب:

لم تبق سماء الصداقة بين ابن خلدون وابن الخطيب خالية من الغيوم، والسبب فى ذلك هم الأعداء، كما يصفهم ابن خلدون: "ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستى للسلطان، واشتماله على، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر، وشممت منه رائحة الانقباض، مع استبداده بالدولة، وتحكمه فى سائر أحوالها"[2]، لقد خاف ابن خلدون من بطش ابن الخطيب، وعقد العزم على مغادرة الأندلس إلى "بجاية" بعد أن وصله كتاب من السلطان أبى عبدالله يخبره فيه أنه استعاد إمارته، وطلب منه العودة لتولى منصب الحجابة الذى سبق أن وعده به: "وجاء ثانى كتب السلطان أبى عبدالله صاحب بجاية، بأنه استولى عليها فى رمضان خمس وستين، واستدعانى إليه، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر فى الارتحال إليه، وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته، فارتضى لذلك، ولم يسعه إلا الإسعاف، فودع وزود، وكتب لى مرسوم تشييع من إملاء الوزير ابن الخطيب"[3].

---

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ١٢٦.

(٢) نفسه، ص. ص. ١٣٦ – ١٣٧.

(٣) نفسه، ص. ١٣٧.

جاءت دعوة صاحب بجاية فى وقتها المناسب فمكنت ابن خلدون من مغادرة الأندلس بسلام ومزوداً بمرسوم التشييع الذى أملاه ابن الخطيب نفسه: "هذا ظهير كريم، تضمن تشييعًا وترفيعًا، وإكراماً وإعظامًا، وكان لعمل الصنيعة ختامًا، وعلى الذى أحسن تماماً، وأشاد للمعتمد به بالاغتباط الذى راق قساماً وتوفر أقساماً، وأعلن له بالقبول إن نوى بعد النوى رجوعًا أو آثر على الظعن المزمع مقاماً"(١).

وبذلك غادر ابن خلدون الأندلس التى قضى فيها سنتين ونصف من عام (٧٦٤) هـ إلى منتصف عام (٧٦٦) هـ، بعد أن اعتقد أن الأندلس ستحتضن غربته، وزاد من هذا الوهم أنها بلاد أجداده آل خلدون الذين نزحوا عنها إلى تونس.

٨- مرحلة بجاية وبسكرة:

قصد ابن خلدون بجاية لتولى منصب الحجابة عن أميرها سنة (٧٦٦)هـ، فـ (ابن خلدون) إلى حدود هذه المرحلة، "رجل تستهويه المناصب الرفيعة، ويستبد به طموح سياسى واضح"(٢)، كما يؤكد محمد عابد الجابرى، كانت بجاية هذه ثغراً لإفريقيا فى دولة بنى حفص التابعين لدولة الموحدين، فاستقلت فيما بعد، وأصبحت دولة قائمة الذات فى تونس.

جاء ابن خلدون إلى بجاية هرباً من العواصف والأحقاد: "وركبت البحر من ساحل المرية، منتصف ستة وستين، ونزلت بجاية لخامسة من الأقلاع فاحتفل السلطان صاحب بجاية بقدومى وأركب أهل دولته للقائى، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافى، ويقبلون يدى، وكان يومًا مشهوداً، ثم وصلت إلى السلطان فحيا

---

(١) نفسه، ص. ١٣٧.

(٢) محمد عابد الجابرى، العصبية والدولة، م. س. ص. ٦٤.

وفدي، وخلع وحمل، وأصبحت من الغد، وقد أمر السلطان أهل الدولة بمباكرة بابى، واستقللت بحمل ملكه، واستفرغت جهدى فى سياسة أموره وتدبير سلطانه، وقدمنى للخطابة بجامع القصبة، وأنا مع ذلك، عاكف - بعد انصرافى من تدبير الملك غدوة - إلى تدريس العلم فى أثناء النهار بجامع القصبة لا أنفك عن ذلك"(١).

لكن ابن خلدون كان واهمًا عندما ظن أن "بجاية" ستكون محطته الأخيرة، هو الذى ضحى فى سبيل أميرها كل التضحية، إذ استطاع جيش السلطان أبى العباس صاحب قسنطينة أن يهزم جيش بجاية وأن يقتل سلطانها واستولى على بجاية دون مقاومة.

ورغم إكرام السلطان أبى العباس لـ (ابن خلدون)، إلا أن هذا الأخير طلب الإذن بمغادرة بجاية فى اتجاه بسكرة: وهى إحدى مدن المغرب الأوسط، وهذه الوجهة الجديدة غيرت اتجاه حياة ابن خلدون، فقد قرر فى تلك الفترة أن يودع العمل السياسى فى بلاد المغرب التى كانت تعرف تقلبات خطيرة وعواصم قاسية وقوية، فالقبائل الكبيرة تكثر من تحالفاتها مع السلاطين، الشىء الذى ساعد على شيوع الفوضى، والتهافت على المناصب والسُّلَط، فلم توفر هذه الحياة لـ (ابن خلدون) الأمن والاستقرار الذى ظل يبحث عنهما، ورغم ذلك ظل يمارس السياسة ويلعب الأدوار الكبرى والحاسمة فى سياسة دول المغرب العربى، وإن بطريقة جديدة بعيدًا عن القصور، يؤكد فى هذا السياق ساطع الحصرى: "ولكنه مع ذلك، لم ينقطع عن الأعمال السياسية بتاتًا، بل استمر على مزاولتها، وظل يلعب دورًا مهمًا فى سياسة الدولة المغربية، بطريقة جديدة، وأسلوب خاص، صار يخدم هذا السلطان أو ذلك عن طريق استئلاف القبائل واستتباعها، دون أن يتولى منصبًا رسميًا، ودون أن ينتسب إلى حكومة من الحكومات"(٢).

---

(١) رحلة ابن خلدون، ص. ١٤٢.

(٢) ساطع الحصرى، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مكتبة الخانجى، مصر، ١٩٦١، ص. ٨١.

كانت لـ (ابن خلدون) سيطرة معنوية على العشائر، وقد أفادته فى هذا المجال إقامته فى بسكرة، حيث ازدادت خبرته بالعشائر، وتضاعفت سيطرته المعنوية عليها، لقد كان "يوجه العشائر إلى خدمة السلاطين الذين يشايعهم"(١).

لذلك كان السلاطين يرغبون فيه ويسعون إليه بهدف توسيع حدود مملكتهم، تضيق أنفاس ابن خلدون من جديد، فيغادر بسكرة إلى تلمسان، وهو فى الطريق بلغه نبأ وفاة السلطان عبد العزيز، سنة (٧٧٤)هـ، فقرر التوجه إلى فاس، فاستقبله الوزير ابن غازى، وأكرمه: "وارتحلت من بسكرة بالأهل والولد، فى يوم المولد الكريم، سنة أربع وسبعين، متوجهًا إلى السلطان، وقد كان طرقه المرض، فما هو إلا أن وصلت مليانة من أعمال المغرب الأوسط، فلقينى هنالك خبر وفاته، وأن ابنه أبا بكر السعيد نصب بعده للأمر، فى كفالة الوزير أبى بكر بن غازى (...) ثم سرنا إلى فاس، ووفدت على الوزير أبى بكر، وابن عمه محمد بن عثمان بفاس، فى جمادى من السنة، وكان لى معه قديم صحبة واختصاص، منذ نزع معى إلى السلطان أبى سالم بجبل الصفيحة، عند إجازته من الأندلس، لطلب ملكه، كما مر فى غير موضع من الكتاب، فلقينى من بر الوزير وكرامته: وتوفير جرايته وإقطاعه، فوق ما أحتسب، وأقمت بمكانى من دولتهم أثير المحل، نابه الرتبة، عريض الجاه، منوه المجلس"(٢).

وفجأة برز الأميران أحمد بن السلطان أبى سالم، وعبد الرحمن المرينى، يطالبان بعرش المغرب. فالأول كان معتقلاً فى طنجة، والثانى أطلقه سلطان بنى الأحمر فى غرناطة، وأرسله لمطاردة نفوذ الوزير المستبد ابن غازى، فاستطاعا الانتصار بجيوشهما التى زحفت إلى فاس، وعندئذ أصبح السلطان أحمد أبو العباس هو ملك المغرب سنة (٧٧٦)هـ، ومن جديد وجد ابن خلدون نفسه وسط العواصف، بين فك الأحداث المتلاحقة، فأدرك أن المغرب لم يعد موطنًا يمكن الاحتماء فيه، وقد لاحقه فى

(١) نفسه، ص. ٨١.
(٢) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٢٥٦.

ذلك تاريخه السياسى، إذ إنه كان سريع التنقل من قصر إلى قصر، ومن أمير إلى آخر، يعطى الولاء ثم ينقضه، الشيء الذى دفع الملك الجديد إلى الارتياب منه، عندئذ قرر العودة إلى الأندلس، مرهقًا من السياسة وأثقالها.

٩- قلعة ابن سلامة:

"فى حقب التفسخ التاريخى، حين نطرد من المكان، يتكون الشوق البنيوى لذاته كسعر تجريبى ونزعة تنميطية كاسحة".(جاك دريدا: "الكتابة والاختلاف")، بعد أن تعب ابن خلدون من السياسة، وبعد أن خفت نار الطموح داخله، اختار العزلة فى تلك القلعة النائية، قلعة ابن سلامة، وتسمى قلعة تاوغزوت، وتقع فى مقاطعة وهران بالجزائر، وتنسب إلى سلامة بن على بن نصر بن سلطان رئيس إحدى القبائل البدوية التى حكمت المنطقة، وقد كانت من قبل رباطًا لبعض العرب المنقطعين من سويد[١].

عندما وصل ابن خلدون إلى قلعة ابن سلامة كان قد بلغ من العمر الرابعة والأربعين، أى سنة (٧٧٦)هـ الموافق (١٣٧٤)م، فمولده كان سنة (٧٣٢)هـ، وغايته من الإقامة بتلك القلعة كانت هى الاعتزال، اعتزال السياسة التى كان نصيبه منها المحن والدسائس والوشايات والحسد والضغينة والسجن. يقول فى هذا الصدد: "ولما نزلت بقلعة ابن سلامة بين أحياء أولاد عريف، وسكنت منها بقصر أبى بكر عريف الذى اختطه بها، وكان من أحفل المساكن وأوثقها، ثم طال مقامى هنالك، وأنا مستوحش من دولة المغرب وتلمسان، وعاكف على تأليف هذا الكتاب، وقد فرغت من مقدمته إلى أخبار العرب والبربر وزناتة، وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التى لا توجد إلا بالأمصار، بعد أن أمليت الكثير من حفظى، وأردت التنقيح والتصحيح..."[٢].

---

(١) انظر الهامش رقم (١٢٥٢) من رحلة ابن خلدون، ص. ٢٦٥.

(٢) نفسه، ص. ٢٦٦.

لم يذكر ابن خلدون، طيلة سيرته، تفرغه للعلم والتأليف؛ لأنه كان مشغولاً بالسياسة، لكن عزلته بالقلعة مكنته من تأليف كتابه الشهير المقدمة، وهى كما يدل عنوانها على ذلك، مقدمة لمشروعه الضخم كتاب العبر.

بقى ابن خلدون بالقلعة مدة أربع سنوات متفرغًا للتأليف، إلا أنه احتاج إلى العديد من الوثائق والمعلومات والمصادر، وذلك ظاهر فى تعبيره "وتشوفت إلى مطالعة الكتب والدواوين التى لا توجد إلا بالأمصار"؛ لأن ما كان متوفراً لديه فى القلعة لا يفى بالغرض، فارتأى الرحيل إلى بلد تتوفر فيه المراجع، وذلك المكان لن يكون المغرب الأقصى أو الأوسط خوفًا من إغراءات العودة إلى السياسة، فعاد إلى بلده تونس بعد غياب ما يفوق عن سبع وعشرين سنة، يقول: "فحدث عندى ميل إلى مراجعة السلطان أبى العباس، والرحلة إلى تونس، حيث قرار آبائى ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم، فبادرت إلى خطاب السلطان بالفيئة إلى طاعته والمراجعة، وانتظرت، فما كان غير بعيد، وإذا بخطابه وعهوده بالأمان، والاستحثاث للقدوم، فكان الخفوف للرحلة، فظعنت عن أولاد عريف مع عرب الأخضر من بادية رياح، كانوا هنالك ينتجعون الميرة بميداس، وارتحلنا فى رجب سنة ثمانين"(١).

لقى ابن خلدون من السلطان أبى العباس كل الترحيب والكرم والإحسان، الذى اعتبر فيئته إليه بمثابة ظل ظليل: "وأويت إلى ظل ظليل من عناية السلطان وحرمته، وبعثت عن الأهل والولد، وجمعت شملهم فى مرعى تلك النعمة"(٢).

ها قد عاد ابن خلدون مجدداً إلى ظلال السلاطين، بعد عزلة عن الناس فى القلعة دامت أربع سنوات، عزلة لا تؤنسها سوى التآليف والمراجعات، لكن ألن يتكرر سيناريو محن المغرب الأقصى والأندلس؟

(١) نفسه، ص. ٢٦٦.

(٢) نفسه، ص. ٢٦٧.

اتسعت فى تونس شهرة ابن خلدون العلمية، وبدأت من جديد الأحقاد والدسائس بقيادة شيخ الفتيا محمد بن عرفة، إذ إن السلطان بدأ يطلبه لمجالسته فى خلوته: "واستدنانى لمجالسته، والنجى فى خلوته، فغص بطانته بذلك، وأفاضوا فى السعايات عند السلطان فلم تنجح: وكانوا يعكفون على إمام الجامع، وشيخ الفتيا، محمد بن عرفة، وكانت فى قلبه نكتة من الغيرة من لدن اجتماعنا فى المربى بمجالس الشيوخ، فكثيراً ماكان يظهر شغوفى عليه، وإن كان أسن منى، فاسودت تلك النكتة فى قلبه، ولم تفارقه"(١).

تذكرنا حملة محمد بن عرفة بحملة ابن الخطيب، مع فارق أن السلطان أبا العباس كان معرضًا عن البطانة الحاقدة الحاسدة، فكلف ابن خلدون بالانكباب على تأليف كتاب العبر "لتشوفه إلى المعارف والأخبار واقتناء الفضائل، فأكملت منه أخبار البربر، وزناتة، وكتبت من أخبار الدولتين وما قبل الإسلام ما وصل إلى منها، وأكملت منه نسخة رفعتها إلى خزانته"(٢).

عندما قدم ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه إلى السلطان أنشده قصيدة طويلة هذا مطلعها:

هل غير بابك للغريب مؤمل   أو عن جنابك للأمانى معدل
هى همة بثت إليك على النوى   عزمًا كما شحذ الحسام الصيقل

كلما اشتدت العلاقة بين ابن خلدون والسلطان الذى لم يكن يلتفت لتلك الحملة المغرضة بقيادة ابن عرفة، شعر ابن خلدون بضرورة الرحيل عن تونس، خصوصاً وأن ابن خلدون قد تعب من المؤامرات والدسائس، واختار الابتعاد عن حياة القصور

(١) نفسه، ص. ٢٦٨.

(٢) نفسه، ص. ٢٦٩.

إلى التأليف والدرس الذى يحتاج إلى هامش ظليل يساعد على التأمل والتفكير، وقد فطن خصومه إلى ذلك، فدفعوا السلطان إلى اصطحابه معه فى رحلاته وحروبه، واستدعاه فعلاً السلطان إلى مصاحبته فى إحدى حملاته لإعادة الأمن إلى بعض ثغوره، فقبل ابن خلدون الخروج معه.

طلب ابن خلدون مباشرة بعد العودة الظافرة إلى تونس من السلطان أن يدعه يسافر، فكانت وجهته إلى مصر، يقول:" ثم كثرت سعاية البطانة بكل نوع من أنواع السعايات، وابن عرفة يزيد فى إغرائهم متى اجتمعوا إليه، إلى أن أغروا السلطان بسفرى معه، ولقنوا النائب بتونس القائد فارح من موالى السلطان أن يتفادى من مقامتى معه (...) ثم بعث إلى (السلطان) وأمرنى بالسفر معه، فسارعت إلى الامتثال، وقد شق ذلك على، إلا أنى لم أجد مَحيطًا عنه، فخرجت معه، (...) ولما كان شهر شعبان من سنة أربع وثمانين، أجمع السلطان الحركة إلى الزاب (...) فخشيت أن يعود فى شأنى ما كان فى السفرة قبلها، وكانت بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمتعتهم وعروضهم، وهى مقلعة إلى الإسكندرية، فتطارحت على السلطان، وتوسلت إليه فى تخلية سبيلى لقضاء فرضى، فأذن لى فى ذلك، وخرجت إلى المرسى، والناس متسايلون على أثرى من أعيان الدولة والبلد وطلبة العلم، فودعتهم، وركبت البحر منتصف شعبان من السنة، وقوضت عنهم بحيث كانت الخيرة من الله سبحانه، وتفرغت لتجديد ماكان عندى من آثار العلم، والله ولى الأمور سبحانه"[1].

١٠ - طواف فى عمق زمنية المغارب:

كان ضرورياً، فى الفقرات السالفة، أن نتتبع الوضع الاجتماعى والسياسى والنفسى والذهنى لـ (ابن خلدون) طيلة السنوات التى انتقل فيها بين الأندلس والقطر

(١) نفسه، ص. ص. ٢٨٣ – ٢٨٤.

المغاربى الذى كان بمثابة مختبر[1]، إذ فى ذلك القطر تكون "وعى ابن خلدون بأزمة التغيرات السياسية والمجتمعية فى مغارب العهد الوسيط المتأخر"[2]، فتجواله الكثير فى تلك الأقطار، ومعرفته بحياة القصور وبأمور السلاطين والأمراء والوزراء، وباقترابه من شعوب المنطقة دعم أهم تركيبات كتابته التاريخية، الشىء الذى طبع كتاباته سواء فى المقدمة أو كتاب العبر بالدقة التى يفتقدها فى معالجة شئون الشرق؛ لذلك فقد كان هو نفسه "يحيل القراء الطالبين للعلم الأوفر على الكتاب والمؤلفين الشرقيين"[3]، لقد نصب ابن خلدون نفسه مختصًا فى زمنية المغارب، هذه الزمنية التى شكلت مشروعه التاريخى البدئى.

قام ابن خلدون، وهو ينتقل بين الأندلس وبلدان المغرب، برحلة "فى المكان والزمان تختلف من حيث الطبيعة والدرجة عن سواها عند أسلافه ومعاصريه، فهى ليست تجوالاً على وجه البسيطة أو العهود التاريخية قصد جمع الحكايات وتسجيل الوقائع والصور الغريبة العجيبة، بل إنها، مادة وشكلاً، طواف فى العمق وشرح لأرض محددة قائمة، مغايرة من دون أن تكون متوحشة، وجد إنسانية من دون أن تكون عادية"[4]، وهنالك من بحث عن أوجه الشبه بين ابن خلدون وميكافيللى، رغم ظهور الأول قبل الثانى بأكثر من قرن من الزمان، ووجه الشبه أن كلا منهما أتقن اللعبة السياسية المعقدة، ولم توصل هذه اللعبة أيا منهما إلى مقصده"[5].

---

(١) د. بنسالم حميش، الخلدونية فى ضوء فلسفة التاريخ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٨. ص. ٥٠.

(٢) نفسه، ص. ٥١.

(٣) نفسه، ص. ٥١.

(٤) نفسه، ص. ٥٣، لم يقم ابن خلدون بما قام به معاصره ابن بطوطة فى رحلته الشهيرة، حيث نجده يتحدث عن موطنه الأصلى كما لو أنه فضاء عتبة للعبور إلى أماكنه المطلوبة.

(٥) مصطفى نبيل، سير ذاتية عربية، كتاب دار الهلال، ١٩٩٢، ص. ١٥٧.

كان ابن خلدون، من الناحية السياسية، "رجلاً تستهويه المناصب الرفيعة، ويستبد به طموح سياسي واضح"[1]، فنجده يقبل منصب "الكتابة والتوقيع" للسلطان أبى عنان على كره منه، فسلفه لم يكونوا يتقلدون مثل تلك المناصب، وترقى فى عهد السلطان أبى سالم إلى منصب " كتابة السر"، وتخلى عنه فى عهد الوزير عمر الذى استبد بأمر الدولة بعد مقتل أبى سالم، ويرجع بعض الباحثين عدم اقتناع ابن خلدون بهذه المناصب إلى كونه كان يطمح فى أن تكون له إمارة خاصة به، وذلك لا يتجاوز كونه تخميناً يفتقد الوقائع الملموسة [2].

يرى الدكتور محمد عابد الجابرى "أن أهم منصب كان يسمو إليه ابن خلدون (...) هو منصب الحجابة، وهو من الناحية العملية أهم بكثير، فى بعض الأحوال، من الإمارة والملك؛ لأن الحاجب يستبد بالأمر، ولكن تحت حماية السلطان أو الأمير، فهو منصب مهم ولكنه أقل خطراً عند تقلب الأحوال، من منصب الإمارة"[3]، وقد تولى، ابن خلدون فعلاً منصب الحجابة لدى أمير بجاية الذى عندما انقلبت الأحوال ضده، وعرض " أهل الحل والعقد" على ابن خلدون أن يعتلى كرسى إمارة بجاية رفض العرض، ويعود هذا الرفض، فى تقديرنا، إلى كون ابن خلدون كان ماهراً وخبيراً فى خفايا اللعبة السياسية فى بلاد المغرب، ففى أقطار المغرب المتدهورة فى ذلك الزمان، حيث كان الملوك والأمراء يتبدلون بسرعة فائقة، تصبح المؤامرات هى فن الفنون ولعبة الألعاب، إضافة إلى أن ابن خلدون كان يعى تمام الوعى أن الطموح السياسى الذى لا يكون مستنداً على عصبية، يكون مصيره الفشل؛ لذلك لم ينخرط مطولاً فى السياسة التى انتهى به المآل إلى الإقلاع عنها، يؤكد فى هذا الإطار الدكتور على أومليل: "... إلا أن الطموح عليه أن يواجه، ليس فقط بلاداً غارقة فى الاضطراب والقلاقل، بل

---

(١) محمد عابد الجابرى، فكر ابن خلدون، العصبية والدولة، م. س. ص. ٦٤.

(٢) نفسه، ص. ٦٤.

(٣) نفسه، ص. ٦٤.

وأيضًا واقعًا سياسيًا له قوانينه الصارمة، من ثم فإن المغامرة لم تمتد طويلاً، وانتهت بقرار الإقلاع عن ممارسة السياسة"[1]،وهذه نقطة أخرى من نقط الشبه بين ابن خلدون وابن الخطيب المعاصر له، الذى أخذ بدوره قرار التخلى عن السياسة بعد استخراج العبر من منفاه بفاس، وهو الآخر رفض عرضًا قدمه له السلطان المرينى، عبارة عن منصب يدخل فى إطار وظائف القلم، ويؤكد فى كتابه نفاضة الجراب: " فآثرت ما أنا بسببيله من الراحة والفرار من هفوات الغير والانكماش على الخدمة"[2]، لكن ابن الخطيب سرعان ما عاد إلى غرناطة ليتقلد مهامه كوزير، ثم التجأ إلى فاس ثانية محتميًا بالسلطان عبدالعزيز، ودخل لعبة التآمر معه على "بنى الأحمر" الذين طلبوا تسليمه لكن السلطان المرينى رفض طلبهم، وعندئذ اختاروا مرشحًا للسلطة هو أبو العباس وساندوه على غزو فاس، وبمجرد استيلائه على الحكم، ألقى بابن الخطيب فى السجن ولم يلبث أن أمر بقتله خنقًا"[3].

تذكرنا هذه الحالة، فى إطار المقارنة بين الرجلين، بالموقف الذى وجد ابن خلدون نفسه فيه، فمعلوم أنه اتهم بالتوسط لإطلاق سراح ابن الخطيب حين كان موجوداً بغرناطة وأرغم على مغادرة الأندلس، فطلب الحماية من قبيلة أولاد عريف، وعندئذ توجه إلى قلعة ابن سلامة، وبذلك كان انسحابه من السياسة، وتفرغه إلى التأليف.

١١- تفسير التاريخ بالفشل الذاتى:

ما يحملنا على الاعتقاد بأن ابن خلدون قد اتخذ قرار الانسحاب والالتجاء بالقلعة اتعاظًا من مقتل صديقه ابن الخطيب، هو حديثه عن هذه المأساة فى سيرته

---

(١) على أومليل، الخطاب التاريخى، دراسة لمنهجية ابن خلدون، م. س، ص. ٨٥.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم: ٢٥٦، ورقة ٣٣، عن على أومليل، م. س، ص. ٨٥.

(٣) على أومليل، الخطاب التاريخى، دراسة لمنهجية ابن خلدون، م. س، ص. ٨٦ .

الذاتية[1]، حيث يصف خوفه من تهديدات بلاطات فاس وتلمسان وغرناطة، فقد تأكد ابن خلدون "من العبث أن يبحث المرء عن المجد السياسى فى بلد ذى هيكل قبلى عندما لا يتوفر على عصبية، من ثم فإنه عكف فى القلعة على صياغة نظرية نظرية مدارها علاقة العصبية بالسياسة، إلا أنها، وكما نلمس ذلك، نظرية تتبلور من خلال فشله السياسى، لأجل ذلك بدأ ابن خلدون بكتابة "المقدمة"، أى بكتابة تأويله للتاريخ المرتبط بمغامرة شخصية وبتاريخ عائلى: فالأمر يتعلق بتفسير الفشل بالتاريخ"[2].

دفع الفشل السياسى ابن خلدون إلى الاهتمام بتاريخ بلاد المغرب، وهو تاريخ محدد متصل بتجربته الشخصية، وما قراره بالانصراف فى قلعة ابن سلامة إلا دليلاً على ذلك، وقد أكد العديد من دارسى ابن خلدون وشارحيه الرابطة الوثيقة بين التاريخ الشخصى فى سيرته الذاتية، والتاريخ فى كتاب العبر، وتنظير هذا التاريخ فى المقدمة، كما أن ابن خلدون لم يظهر فى البدء أى اهتمام خاص بالتاريخ، فقبل مرحلة قلعة ابن سلامة لم يكن صاحبنا مؤرخًا، بل فيلسوفًا، وتأكيدًا لهذه الخلاصة يستشهد الدكتور على أومليل برسالة بعثها ابن الخطيب إلى ابن خلدون ليهنئه بمولود جديد: "وقد استعمل ابن الخطيب تاريخ ولادة المولود ليستعرض معلوماته الفلكية؛ لأنه كان يعرف أنه يخاطب شخصًا يهتم بعلوم الفلسفة"[3].

١٢- التأريخ للسلوك الخارجى:

يبدو واضحًا أن ابن خلدون لم يؤرخ لتطور سيرته الفكرية، كما فعل بخصوص تطوره السياسى والحياتى، عرف ابن خلدون من الناحية الفكرية تطورًا كبيرًا، ففى

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٢٢٧.

(٢) على أومليل، الخطاب التاريخى، دراسة لمنهجية ابن خلدون، م. م. ص. ٨٧.

(٣) نفسه، ص. ٨٧.

أثناء مقامه بفاس فى رعاية السلطان أبى عنان، درس العلوم النقلية والعقلية، لكنه أغفل الحديث عن العديد من المؤلفات التى ألفت فى عصره، وهى مؤلفات سياسية وفلسفية، مثل كتاب الشهب اللامعة فى السياسة النافعة لـ (ابن رضوان)، وهو كتاب وضع تحت طلب من السلطان أبى سالم، وتحدث فيه صاحبه عن سير الملوك، وعن مجلسهم وجلسائهم وسيرتهم، وعن الوزراء والكتاب، وتنظيم بيت المال والعطاء ... إلخ، وهناك كتاب مماثل ألفه أبو حمو الزيانى ملك تلمسان على شكل وصايا لولى عهده، تحت عنوان واسطة السلوك فى سياسة الملوك[1]؛ ولأن ابن رضوان كان صديقًا لابن خلدون فإننا لا نشك فى كونه اطلع على مؤلفه، لكنه أغفل ذكره، ويذكر الجابرى العديد من الكتب التى أغفل ابن خلدون الحديث عنها فى سيرته الذاتية، رغم ذكره لها فى كتابه المقدمة، مثل كتاب سراج الملوك للطرطوشى، وكتاب السياسة فى تدبير الرئاسة المنسوب لأرسطو؛ ذلك لأن الوظائف التى تقلدها كانت تتطلب منه الاطلاع على ما يسمى بآداب الملوك، أو الآداب السلطانية، اطلاعًا نظريًا وعمليًا معًا[2].

لم يغفل ابن خلدون ذكر مؤلفات وتصنيفات غيره، بل غفل حتى عن ذكر كتب أخرى ألفها، فعندما وضع ابن الخطيب ترجمة لابن خلدون فى نفح الطيب للمقرى أشار إلى عدة تآليف وتقييدات، إذ إنه "شرح البردة شرحًا بديعًا دل به على انفساح ذرعه وتفنن إدراكه وغزارة حفظه، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييداً مفيداً فى المنطق، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازى وألف كتابًا فى الحساب، وشرع فى شرح الرجز الصادر عنه فى أصول الفقه بشىء لا غاية له فى الكمال"[3].

---

(١) محمد عابد الجابرى، العصبية والدولة، م . س، ص، ص، ٦٤ – ٦٥.

(٢) نفسه، ص. ٦٦.

(٣) عبدالله عنان، ابن خلدون: حياته وتراثه الفكرى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٥٣، ص. ٢١٥.

تثيرنا هنا عبارة "... وعلق السلطان أيام نظره فى العقليات..." إذ تؤكد أن ابن خلدون كف عن النظر فى العقليات، ومنها الفلسفة، فلماذا انصرف ابن خلدون عن النظر فى الفلسفة؟

للإجابة عن هذا السؤال الصعب، نجدنا نميل إلى الإجابة التى قدمها الدكتور الجابرى إذ يقول: "إن الجو الذى ارتمى فيه بمدينة فاس لم يكن جو فلسفة، بل كان بالدرجة الأولى جو فقه وسياسة، نعم لم تكن هناك، فيما نعتقد، محاربة واضحة للفلسفة من جانب الفقهاء أو الحكام، ولكن هذا لا يعنى أن المناخ السائد فى فاس يومئذ كان مناخًا فلسفيًا أو مشجعًا على الدراسات الفلسفية، لقد استقر فى الأذهان، منذ حملة "الغزالى" على الفلاسفة وما تبعها من فتاوى الفقهاء المتزمتين، أن الفلسفة "علم" غير مرغوب فيه من الوجهة الدينية، بل إن تهمة الاشتغال بالفلسفة، وبالتالى "الكفر والإلحاد"، كانت سيفًا مسلطًا يهدد الرقاب باستمرار، خصوصًا رقاب أولئك الذين كانوا يتمتعون بمراكز سياسية تجعلهم دومًا هدفًا لسعايات المنافسين ولطعن الطاغين، ولما كان ابن خلدون من أصحاب الوظائف والنفوذ، فقد كان عليه، إذا ما أراد الاحتفاظ بمركزه السياسى، وتجنب التعرض لمثل تلك التهم الخطيرة، أن يساير الركب فينقطع عن العقليات جملة، والفلسفة منها على وجه الخصوص، وينصرف إلى العلوم الدينية وفى مقدمتها الفقه، إن التمكن فى هذه العلوم، كان وحده "جواز المرور" إلى حياة النخبة يومئذ"[1]؛ ولأنه كان شخصية بارزة فى الفقه فإن ابن خلدون تولى ولاية خطة المظالم سنة (٧٦٢) هـ أيام أبى سالم، وعمره لم يتجاوز ثلاثين سنة.

١٢- محاسن الانعزال:

عندما خرج ابن خلدون من باب السياسة، والخروج من هذا الباب أصعب من الدخول فيه، معتزلاً هذا الحقل الذى أرهقه بفضاضاته ومؤامراته أيما إرهاق، ظهرت

---

(١) محمد عابد الجابرى، العصبية والدولة، م. س. ص. ص. ٧٠-٦٩.

نزعة جديدة فى فكره هى نزعة التصوف. يقول مخاطبًا زميله ابن الخطيب: "... فحمدت الله لكم على الخلاص من ورطة الدول على أحسن الوجوه، وأجمل المخارج الحميدة العواقب فى الدنيا والدين العائدة بحسن الآمال... وهنيئًا فقد نالت نفسكم التواقة أبعد أمانيها، ثم تاقت إلى ما عند الله، وأشهد لما ألهمتم للإعراض عن الدنيا ونزع اليد من حطامها..."(١).

وينصح ابن خلدون صديقه ابن الخطيب بالتوجه إلى الله: " حتى يأخذ بيدكم إلى قضاء المجاهدة ويستوى بكم على وجودى الرياضة، والله يهدى للتى هى أقوم..."(٢).

والفترة التى توجه فيها ابن خلدون إلى التصوف هى نفسها التى انشغل فيها بالتدريس "عاكفًا على قراءة العلم(٣)، وتدريسه"، ثم انتقل إلى الأندلس بقصد العكوف على قراءة العلم، وكان ذلك سنة (٧٧٦) هـ، قبل أن ينتقل إلى تلمسان ليعمل أيضًا فى تدريس العلم، وعندما طلب منه "أبو حمو" القيام بمهمة السفارة إلى قبائل الدواودة للتأثير عليها واستمالتها إلى جانبه، تظاهر ابن خلدون بقبول المهمة، فغادر تلمسان لينتهى به الأمر فى قلعة ابن سلامة سنة (٧٧٦) هـ، وهى المكان الذى ألف فيه مقدمته الشهيرة(٤)، ودام ذلك التأليف خمسة أشهر، أى من منتصف سنة (٧٧٩) هـ إلى (٧٨٠) هـ، أما مقامه بالقلعة فكان سنة (٧٧٦) هـ(٥)، وعندما انتهى من تأليف المقدمة شرع فى كتابة تاريخ العرب والبربر وزناتة، بتكليف من سلطان تونس أبو العباس، الذى أهداه ابن خلدون النسخة الأصلية من كتاب العبر يقول: "وقد كلفنى أبو العباس

---

(١) رحلة ابن خلدون، م. س، ص. ١٤٤.

(٢) نفسه، ص. ١٤٥.

(٣) نفسه، ص. ٢٤٤.

(٤) نفسه، ص. ٢٢٦.

(٥) نفسه، ص. ص. ٢٢٨ – ٢٢٩.

بالانكباب على تأليف هذا الكتاب لتشوقه على المعارف والأخبار واقتناء الفضائل، فأكملت منه أخبار البربر وزناتة، وكتبت من أخبار الدولتين[1]، وما قبل الإسلام ما وصل إلى منها، وأكملت منه نسخة رفعتها إلى خزانته"[2].

ليس صحيحًا أن مقام ابن خلدون بقلعة ابن سلامة يؤرخ لفترة انعزاله وعزوفه عن السياسة والانقطاع للعلم، بل إن انعزاله بدأ قبل هذا التاريخ بعشر سنوات، أى منذ نكبة أمير بجاية سنة (٧٦٧) هـ[3].

لاحظنا كيف كان ابن خلدون، منذ قدومه على أبى عنان، يركض وراء المناصب السياسية ركضًا، لكنه الآن، وكما أثبت ذلك فى رسالته الموجهة إلى ابن الخطيب، يتجنب "الخوض فى أحوال الملوك"، فبعد تجربة الاعتقال، وتفتيش بيته، ومصادرة أمواله، وتنكر ابن الخطيب له، ومغادرته الأندلس خوفًا من أى مقلب... توجه بعد هذه النكبات، كحلقة أولى من مسلسل الهروب، إلى البادية، مغادراً "العمران الحضارى" إلى "العمران البدوى"، وبين هذه الإقدامات والإدبارات، التى أنهاها فى القلعة، نجد أن ابن خلدون "كان سياسيًا ذكيًا، يشم الأزمات قبل وقوعها، ويعمل جاهداً وبمختلف الوسائل للإفلات منها حتى ولو أدركته، وهذا الذكاء السياسى الذى كان يفلته من قبضة الحكام والخصوم، لا يستبعد أن يدفعه للعمل من أجل الإفلات من السياسة جملة؛ لأن أحوال الحكم والسياسة تسير وفق مخطط – أو طبائع – لا يمكن التحكم فيه"[4].

---

(١) الدولة الأموية والدولة العباسية.

(٢) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٢٣٣.

(٣) محمد عابد الجابرى، العصبية والدولة، م. س، ص. ٧٧.

(٤) نفسه، ص. ٧٩.

١٤ - الفترة المصرية: بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية:

تشكل مصر مرحلة مهمة من حياة ابن خلدون، بل إنها تشكل الجناح الثانى لسيرته الذاتية، بعد الجناح الأول المغاربى والأندلسى، انتقل ابن خلدون إلى مصر سنة (٧٨٤) هـ - (١٣٨٢) م، وقضى فيها ما تبقى من حياته.

وبينا فى الفقرات السابقة كيف أن عالم العمران أصبح ينفر السياسة، وبدأ يتطلع إلى التفرغ للعلم والتأليف والتدريس، لكنه، مثل صديقه ابن الخطيب، لم يستطع الصمود فى وجه إغراءات المناصب، فهل هجر السياسة فعلاً وهو فى مصر؟

لم يستطع ابن خلدون، كما تبين سيرته الذاتية، الإفلات من قوتين متضادتين: "ولعه بالدرس والعلم من جانب، وحبه للمنصب والجاه من جانب آخر، بدأ حياته دارساً ثم انتقل إلى السياسة، ووصل إلى أعلى المناصب، ولم يستطع التخلى عن العلم، فكان يعمل فى تدبير الملك صباحاً ويلقى محاضراته عندما يأتى المساء، ولا نجده يذكر فى سيرته الذاتية انهماكه فى شئون الحكم إلا ويعقبها بذكر حنينه إلى الاعتزال وطلب العلم، حتى أنه كرر ذلك سبع مرات وهو يروى سيرته الذاتية...!"[١].

عندما أقام ابن خلدون فى قلعة ابن سلامة ألف المقدمة، وبعد رحيله إلى مصر أضاف إليها بعض الفصول، وذلك واضح فى كونه يتحدث أحياناً عن المشرق بالغائب: "ويبلغنا عن المشرق..."، وأحياناً أخرى يتحدث عنه بالحاضر: "وقد وقفنا فى المشرق"، "مما يدل دلالة لا مجال للشك فيها على أن بعض فقرات "المقدمة" كتبت فعلاً "فى مصر"[٢]، إضافة إلى أن فى المقدمة بعض الفقرات والفصول تتسم بالطابع

---

(١) مصطفى نبيل، سير ذاتية عربية، م . س، ص. ١٦٠.

(٢) محمد عابد الجابرى، العصبية والدولة، م. س، ص. ص. ٨٤ - ٨٥.

اللا عقلانى، وهذه النزعة "اللا عقلانية" دخيلة على تفكير ابن خلدون، وأنها بالتالى كانت نتيجة تأثره بالفكر الصوفى والجو الخرافى السائد فى مصر خلال إقامته فيها"[1].

يرى "الجابرى" أن عملية التهذيب والتنقيح "التى قام بها ابن خلدون بعد مغادرته تونس لم تتناول القضايا الأساسية فى المقدمة (...)، بل كانت فقط عبارة عن تصحيحات وتعديلات وإضافات لم تمس جوهر الموضوع بقدر ما كانت مكملة وشارحة"[2].

كان ابن خلدون، وهو فى القاهرة، فى قلب الحياة الثقافية والعلمية، إضافة إلى أن اهتمام السلطان برقوق به كان يدفعه إلى الاطمئنان، يقول فى ذلك: "ثم كان الاتصال بالسلطان، فأبر اللقاء، وأنس الغربة، ووفر الجراية من صدقاته، شأنه فى أهل العلم"[3]، وقد كان السلطان قد تولى السلطة قبل وصول ابن خلدون بعشرة أيام فقط، فعينه مدرسًا للمذهب المالكى بـ "المدرسة القمحية"، هذا إضافة إلى أن سمعته كانت قد سبقته إلى هناك، يقول: "ولما دخلتها، أقمت أيامًا، وانثال على طلبة العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعنى عذرًا، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها"[4].

يوم جلوس ابن خلدون للتدريس فى المدرسة القمحية، حضرت مجموعة من أكابر العلماء تنويها بمكانته العلمية [5]، وبعد أن فصل السلطان قاضى المالكية آنذاك

---

(١) نفسه، ص. ٨٥.

(٢) نفسه، ص. ٨٥.

(٣) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٢٣٦.

(٤) نفسه، ص. ٢٨٦.

(٥) عين ابن خلدون أيضًا مدرسًا فى المدرسة الظاهرية فى بين القصرين بحى الجمالية، وبعد عودته من الحج عين شيخًا بالحديث فى مدرسة صرغتمش، لكن دروسه وأفكاره أثارت الجدل فتم فصله.

عبدالرحمن بن سليمان بن خير المالكى، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب، وكان ذلك سنة (٧٨٦) هـ، اختصه السلطان بهذه الولاية يقول: "تأهيلاً لمكانى، وتنويها لذكرى، وشافهته بالتفادى من ذلك، فأبى إلا إمضاءه، وخلع على بإيوانه، وبعث من كبار الخاصة من أقعدنى بمجلس الحكم بالمدرسة الصالحية بين القصرين، فقمت بما دفع إلى من ذلك المقام المحمود ورفيت جهدى بما أمننى عليه من أحكام الله، لا تأخذنى فى الحق لومة، ولا يزعنى عنه جاه ولا سطوة، مسويًا فى ذلك بين الخصمين، آخذًا بحق الضعيف من الحكمين[1]، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين، جانحًا إلى التثبت فى سماع البينات، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات..."[2].

يروى ابن حجر العسقلانى فى كتابه "رفع الإصر عن قضاة مصر" قصة توليه القضاء بقوله: "لما دخل الديار المصرية، تلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتودد له والتردد إليه، فلما ولى المنصب تنكر لهم، وفتك فى كثير من أعيان الموقعين، والشهود، ... فقد لازم "أبطغنا الجوبانى" (أحد أمراء المماليك) فاعتنى به، إلى أن قرره الملك الظاهر برقوق فى قضاء المالكية، فباشره مباشرة صعبة، وقلب للناس ظهر الجن، وصار يغرر بالصفع ويسميه "الزج" فإذا غضب على إنسان قال "زجوه" فيدفع حتى تحمر رقبته"، ويضيق: "لم يغير زيه المغربى ولم يلبس زى قضاء قضاة هذه البلاد، وكان يحب المخالفة فى كل شىء"[3].

وعلى العكس من أبى حجر العسقلانى يؤكد "أبو المحاسن بن تغرى بردى" أن "ابن خلدون عمل على تحقيق العدل، وواجه الكبير قبل الصغير... وكان صارمًا للغاية، وقد أنكر تدخل الشخصيات المهمة، ورفض الرشوة، فشهروا به عند السلطان فعزله..."[4].

---

(١) المقصود "المحتكمين".

(٢) رحلة ابن خلدون، ص. ص. ٢٩١ – ٢٩٢.

(٣) ذكره مصطفى نبيل، سير ذاتية، م. م. ص. ١٧٠.

(٤) نفسه، ص. ص. ١٧٠ – ١٧١ .

لقد بينت السيرة الذاتية أن ابن خلدون له ولع خاص بالمناصب العليا، فها هو بعد عامين على وجوده في القاهرة يتولى منصب قاضي قضاة المالكية، وهو منصب مهم جداً، "فإذا كان منصب القاضي في عصر فصل السلطات لا صلة له بالسياسة، فإنه في عصر ابن خلدون أحد المناصب السياسية المهمة، فالقضاة يفتون في القضايا المهمة، ويستشيرهم السلطان في أمور الحكم، ويتمتع القاضي بنفوذ كبير، لا يقل عن الأمراء المتنازعين في ظل الوضع القبلي في المغرب"[1]؛ لذلك يمكن فهم الصراع الذي يمكن أن يدور حول منصب كهذا، بل إنه قد يكون من أشد وأشرس الصراعات السياسية، وخير دليل أن ابن خلدون تقلد هذا المنصب وفصل عنه ست مرات، وتوفي بعد ولايته السادسة بأيام قليلة، أي يوم السادس والعشرين من شهر رمضان من سنة (٨٠٨) هـ، الموافق ١٦ مارس (١٤٠٦) م.

عاش ابن خلدون في مصر عدة محن، كان أولها عندما طلب من السلطان برقوق أن يخاطب سلطان تونس لكي يسمح بأسرته أن تلحق به في مصر، وكان سلطان تونس قد احتجزهم ومنعهم من السفر إلى أن يعود ابن خلدون، ويطلب من سلطان مصر سمح لهم سلطان تونس بالمغادرة والسفر إلى الديار المصرية، إلا أن السفينة التي حملتهم من تونس أصابها قاصف من الريح فغرقت، وذهب الموجود والسكن والمولود[2]، وبعد هذه المحنة توالت عليه المحن والمؤامرات والمآزق، كان أخطرها المؤامرة التي قادها "يبلغا الناصري" في (٥ جمادى الثاني عام ٧٩١هـ – ١٣٨٩م) ضد السلطان برقوق الذي تخلى عن السلطة ونفي إلى قلعة في دمشق، وما هي إلا مدة حتى عاد السلطان برقوق إلى القاهرة لاسترداد عرشه وحوله الأنصار، فقامت الاستعدادات لمواجهته، وقرر "الأتابكي منطاش" الخروج لمقاتلته، فجمع هذا الأخير مجلساً يضم الخليفة والقضاة الأربعة وعدداً من العلماء بينهم ابن خلدون، قصد

(١) مصطفى نبيل، سير ذاتية عربية، م. س، ص . ١٦٩.

(٢) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٣٢٠.

إصدار فتوى تقر شرعية مقاتلة برقوق، فوقع ابن خلدون على الفتوى رغم العلاقات الجيدة التى كانت تربطه بالسلطان، ولم يمتنع عن توقيع الفتوى سوى القاضى شمس الدين محمد الركراكى، فأودع سجن القلعة، وتقع الحرب وينتصر جيش السلطان برقوق على جيش منطاش، ويعود برقوق إلى عرشه وسلطته، ويعين الركراكى قاضيًا لقضاة المالكية ويعزل ابن خلدون، رغم محاولة ابن خلدون الاعتذار، ويصف قاض قضاة المالكية رجوع السلطان الظاهر إلى مصر منتصرًا مستعيدًا عرشه: "ودخل منتصف صفر من سنة إحدى وتسعين، وولى (داوداره)، وبعث عن الأمراء المحبوسين بالإسكندرية، وأعتبهم، وأعادهم إلى مراتبهم، وبعث الجوبانى إلى دمشق، والناصرى إلى حلب كما كانا، وعادت الدولة إلى ما كانت عليه، وولى (سودون) على نيابته، وكان ناظرًا بالخانقاه التى كنت فيها، وكان ينقم على أحوالاً من معاصاته فيما يريد من الأحكام فى القضاء أزمات كنت عليه، ومن تصرفات (دواداره) بالخانقاه، وكان يستتيبه عليها؛ فوغر صدره من ذلك، وكان الظاهر ينقم علينا معشر الفقهاء فتاوى استدعاها منا منطاش، وأكرهنا على كتابتها، فكتبناها، وورينا فيها بما قدرنا عليه، ولم يقبل السلطان ذلك، وعتب عليه، وخصوصًا على، فصادف (سودون) منه إجابة فى إخراج الخانقاه عنى، فولى فيها غيرى وعزلنى عنها، وكتبت إلى الجوبانى بأبيات اعتذر عن ذلك ليطالعه بها، فتغافل عنها، وأعرض عنى مدة، ثم عاد إلى ما أعرف من رضاه وإحسانه، ونص الأبيات:

سيدى والظنون فيك جميلة ... وأياديك بالأمانى كفيلةْ
لا تحل عن جميل رأيك إنى ... مالى اليوم غير رأيك حيلةْ
واصطنعنى كما اصطنعت بإسدا ... ءِ يدٌ من شفاعة أو وسيلةْ
لا تضعنى فلست منك مضيعًا ... ذمة الحب، والأيادى الجميلةْ

وأجـــــرنـى فـــالخطب عض بِنَــا بيَــهِ وأجـرى إلى حـمـاى خـيـولـه
...."[1].

ويرضى سلطان مصر من جديد عن ابن خلدون، ويوليه القضاء ثانية سنة (٨٠١) هـ، ليعزله منه سنة (٨٠٣) هـ بعد عزله فى المرة الأولى سنة (٧٨٧) هـ، وقد كان يراه السلطان دائمًا أهلاً لذلك المنصب "لولا وجود الذين انقرضوا"[2]، واستمرت عمليات تنصيب ابن خلدون قاض للقضاة وعزله منها ست مرات، بسبب المؤامرات وشغب حاشية الملك، حتى توفى بضيعته فى الفيوم، وهى الضيعة التى عكف فيها على تأليف سيرته الذاتية "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا".

١٤- لقاء العالم والغازى:

لم يقدم الغازى المندفع من سهول آسيا تيمورلنك، الملقب بالأعرج، على خطوة الاستيلاء على الشام، إلا بعد موت سلطان مصر الظاهر برقوق، وهو الموت الذى أسعد تيمور لنك كثيراً، ويذكر ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة...: "بلغ تيمور موت الملك الظاهر برقوق صاحب مصر، فكاد يطير بموته فرحًا"، ويذكر السخاوى فى الضوء اللامع: "لما بلغ تيمور موت الظاهر برقوق، فرح وأعطى من بشّره خمسة عشر ألف دينار، وتهيأ للسير إلى بلاد الشام"[3].

كان الملك فرج بن برقوق فى ذلك الوقت يترقب زحف تيمور بحذر شديد، وحين وصل إلى حلب، تحركت قوات المماليك بقيادة السلطان فرج، وكانت عادة ذلك الزمان

---

(١) نفسه، ص. ص. ٣٦٢ – ٣٦٣.

(٢) نفسه، ص. ص. ٣٨١ – ٣٨٢.

(٣) مصطفى نبيل، سير ذاتية عربية، م. س. ص. ١٧٧.

أن يصحب السلطان خليفته والعلماء والقضاة[١]، وقد كان من بينهم عالم العمران ابن خلدون المعزول حينذاك عن منصب قاضى القضاة، وقد حاول ابن خلدون فى البداية التهرب من تلك الرحلة، إلا أن الأمير "يشبك الشعبانى" أقنعه بالسفر.

يصف ابن خلدون ذلك بقوله: "لما وصل الخبر إلى مصر بأن الأمير تمر ملك بلاد الروم، وخرب سيواس، ورجع إلى الشام، جمع السلطان عساكره، وفتح ديوان العطاء، ونادى فى الجند بالرحيل إلى الشام، وكنت أنا يومئذ معزولاً عن الوظيفة، فاستدعانى دواداره يشبك، وأرادنى على السفر معه فى ركاب السلطان، فتجافيت عن ذلك، ثم أظهر العزم علىّ بلين القول، وجزيل الإنعام فأصغيت، وسافرت معهم منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث، فوصلنا إلى غزة، فأرحنا بها أياماً نترقب الأخبار، ثم وصلنا إلى الشام مسابقين الططر إلى أن نزلنا شقحب، وأسرينا فصبحنا دمشق، والأمير تمر فى عساكره قد رحل من بعلبك قاصداً دمشق، فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قبة يلبغا، ويئس الأمير تمر من مهاجمة البلد، فأقام بمرقب على قبة يلبغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر"[٢].

توجه السلطان فرج إلى دمشق فى رفقة عساكره لمحاربة تيمور لنك القادم من بعلبك وصده، وليس بغرض الصلح، كما ادعى محمود عبدالمولى فى كتابه ابن خلدون وعلوم المجتمع، يقول: "كان تيمور لنك، الملقب بالأعرج، مشهوراً بقوة بطشه، ولما غزا الديار الشامية، وهدد بغزو مصر، أرسل السلطان فرج إلى البلاد الشامية وفدا برئاسة ابن خلدون للقيام بالسفارة بينه وبين تيمورلنك[٣]، وذلك لعقد الصلح بينهما.

---

(١) "الخليفة هو المتوكل على الله، والقضاة الثلاثة هم: صدر الدين المناوى الشافعى، والقاضى نور الدين على ابن الخلال المالكى، والقاضى موفق الدين بن الحنبلى، وأما القاضى جمال الدين الملطى الحنفى فإنه مارافقهم لكونه ضعيفاً، والقاضى الرابع هو ولى الدين بن خلدون المالكى، وكان معزولاً" انظر هامش: ١٨١٧ من ص. ٤٠١.

(٢) رحلة ابن خلدون، م، س، ص. ص. ٤٠١ – ٤٠٢.

(٣) محمود عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٨، ص. ٣٤.

ولما حاول ذلك، وقع هو ومن رافقه في الأسر من طرف جند تيمور لنك"، وهذا خلط ظاهر **للاعتبارات الآتية:**

١- إن قول ابن خلدون واضح، فمن يجهز عساكره لا ينوى الصلح.

٢- لم يرسل السلطان فرج وفداً، بل كان على رأس جنده.

٣ - إنهم كانوا يسابقون تيمور لنك قبل أن يصل إلى دمشق مما يدل على العزم على محاربته: "فضرب السلطان خيامه وأبنيته بساحة قبة يبلغا، ويئس الأمير تمر من مهاجمة البلاد، فأقام بمرقب على قبة يبلغا يراقبنا ونراقبه أكثر من شهر"(١).

٤ - لم يترأس ابن خلدون الوفد، فكيف يترأس الوفد وهو القاضي المعزول، بل إن رئيس الوفد هو القاضي برهان الدين الذى قابل تيمور لنك قبل ابن خلدون(٢).

عندما كانت الجيوش تمارس مناوراتها، بلغ السلطان فرج أن بعض الأمراء يحاولون الهرب إلى مصر للاستيلاء على السلطة وتولية أمير آخر، فعاد إلى مصر لحماية عرشه، وترك دمشق لأطماع تيمور لنك، يقول ابن خلدون: "ثم نمى الخبر إلى السلطان وأكابر أمرائه، أن بعض الأمراء المنغمسين فى الفتنة يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها، فأجمع رأيهم للرجوع إلى مصر خشية من انتفاض الناس وراءهم، واختلال الدولة بذلك، فأسروا ليلة الجمعة من شهر (...)(٣)، وركبوا جبل الصالحية، ثم انحطوا فى شعابه، وساروا على حافة البحر إلى غزة، وركب الناس ليلاً يعتقدون أن السلطان سار على الطريق الأعظم إلى مصر، فساروا عصيّاً وجماعات على شقحب إلى أن وصلوا إلى مصر، وأصبح أهل دمشق متحيرين قد عميت عليهم الأنباء"(٤).

---

(١) رحلة ابن خلدون، م. س. ص. ٤٠٢.

(٢) نفسه، ص. ٤٠٣.

(٣) يشير المحقق محمد بن تاويت الطنجى أن هذا البياض موجود فى الأصل، ويرجح أنه يريد "شهر جمادى الآخرة، انظر الهامش رقم: ١٨٢١، من الصفحة. ٤٠٢ .

(٤) نفسه، ص. ٤٠٢.

ولما التبس الأمر وسادت الحيرة اجتمع القضاة والفقهاء بمدرسة العادلية، فاتفقوا على طلب الأمان من تيمور لنك على بيوتهم وحرمهم، إلا أن نائب القلعة أنكر عليهم ذلك، فخرج القاضى برهان الدين بن مفلح الحنبلى ومعه شيخ الفقراء فأجابهم تيمور لنك إلى التأمين، وطلب منهم استدعاء القضاة، فخرجوا متدلين من السور، "فأحسن لقاءهم وكتب إليهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال، واتفقوا معه على فتح المدينة من الغد"(١).

وبعد اللقاء أخبر القاضى برهان الدين ابن خلدون أن تيمور لنك سأل عنه، وهل سافر إلى مصر أو بقى بالمدينة؟ يقول: "وأخبرنى القاضى برهان الدين أنه سأل عنى، وهل سافرت مع عساكر مصر أو أقمت بالمدينة؟ فأخبره بمقامى بالمدرسة حيث كنت، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج إليه، فحدث بين بعض الناس تشاجر فى المسجد الجامع، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة إلى القول، وبلغنى الخبر من جوف الليل، فخشيت البادرة على نفسى، وبكرت سحراً إلى جماعة القضاة عند الباب، وطلبت الخروج أو التدلى من السور، لما حدث عندى من توهمات ذلك الخبر، فأبوا على أولاً، ثم أصغوا لى ودلونى من السور، فوجدت بطانته عند الباب (...) فحييتهم وحيونى، وفديت وفدونى، وقدم لى شاه ملك مركوباً، وبعث معى من بطانة السلطان من أوصلنى إليه، فلما وقفت بالباب خرج الإذن بإجلاسى فى خيمة هنالك تجاور خيمة جلوسه، ثم زيد فى التعريف باسمى أنى القاضى المالكى المغربى، فاستدعانى، ودخلت عليه بخيمة جلوسه، متكئًا على مرفقه، وصحاف الطعام تمر بين يديه (...) فلما دخلت عليه فاتحته بالسلام، أومأت إيماءة الخضوع، فرفع رأسه، ومد إلى يده فقبلتها، وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبدالجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم، فأقعده يترجم ما بيننا"(٢).

---

(١) نفسه، ص. ص. ٤٠٢ – ٤٠٣.

(٢) نفسه، ص. ص. ص. ٤٠٢ – ٤٠٣ – ٤٠٤.

دار حوار بين العالم والغازى الذى أراد معرفة ظروف مجىء ابن خلدون من المغرب إلى مصر، وكيفية توليه القضاء، وسأله أيضًا عن طنجة وفاس، وهذا نص الحوار: "وسألني من أين جئت من المغرب؟ ولما جئت؟ فقلت: جئت من بلادى لقضاء الفرض، ركبت إليها البحر، ووافيت مرسى الإسكندرية يوم الفطر سنة (أربع وثمانين) من هذه المائة الثامنة، والمفرحات بأسوارهم لجلوس الظاهر على تخت الملك لتلك العشرة أيام بعددها، فقال لى: وما فعل معك؟ قلت كل خير، بر مقدمى، وأرغد قراى، وزودنى للحج، ولما رجعت وفر جرايتى، وأقمت فى ظله ونعمته، رحمه الله وجزاه، فقال: وكيف كانت توليته إياك القضاء؟ فقلت: مات قاضى المالكية قبل موته بشهر، وكان يظن بى المقام المحمود فى القيام بالوظيفة مكانه، وتحرى المعادلة والحق، والإعراض عن الجاه، فولانى مكانه، ومات بعدها بشهر، فلم يرض أهل الدولة بمكانى، فأدلونى منها جزاهم الله. فقال لى: وأين ولدك؟ فقلت: بالمغرب الجوانى كاتب للملك الأعظم هنالك، فقال: وما معنى الجوانى فى وصف المغرب؟ فقلت: هو فى عرف خطابهم معناه الداخلى، أى الأبعد؛ لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامى من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة، وإفريقيا، والمغرب الأوسط: تلمسان وبلاد زناتة، والأقصى: فاس ومراكش، وهو معنى الجوانى، فقال لى: وأين مكان طنجة من ذلك المغرب؟ فقلت: فى الزاوية التى بين البحر المحيط، والخليج المسمى بالزقاق، وهو خليج البحر الشامى، فقال: وسبتة؟ فقلت: على مسافة من طنجة على رأس ساحل الزقاق، ومنها التعدية إلى الأندلس، لقرب مسافته؛ لأنها هناك نحو العشرين ميلاً، فقال: وفاس؟ فقلت: ليست على البحر، وهى فى وسط التلول، وكرسى ملوك المغرب من بنى مرين، فقال: وسجلماسة؟ قلت: فى الحد ما بين الأرياف والرمال من جهة الجنوب، فقال: لا يقنعنى هذا، وأحب أن تكتب لى بلاد المغرب كلها، أقاصيها وأدانيها، وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره، حتى كأنى أشاهده، فقلت: يحصل ذلك بسعادتك، وكتبت إليه بعد انصرافى من المجلس لما طلب منى ذلك، وأوعبت الغرض فيه فى مختصر وجيز يكون قدر اثنتى عشرة من الكراريس المنصفة القطع"[1].

(١) م. س. ن. ص. ص. ٤٠٤ – ٤٠٥.

رغم هذا اللقاء الذى قرب ابن خلدون من الطاغية، إلا أن العالم خشى على نفسه، وخاطبه بكلام يستريح إليه ليتحول من أسير إلى ضيف[1]، فقال له: "أيدك الله إلى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك، فقال لى الترجمان عبدالجبار: وما سبب ذلك؟ فقلت: أمران، الأول أنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك، ولست ممن يقول فى الأمور بالجزاف، فإنى من أهل العلم، وأبين ذلك فأقول: إن الملك إنما يكون بالعصبية، وعلى كثرتها يكون قدر الملك (...) ، وأما الأمر الثانى مما يحملنى على تمنى لقائه، فهو ما كنت أسمعه من أهل الحدثان بالمغرب، والأولياء، وذكرت ما قصصته من ذلك من قبل"، ويقصد ابن خلدون من هذه الجملة الأخيرة أن المنجمون المتكلمون فى قرانات العلويين كانوا "يترقبون القران العاشر فى المثلثة الهوائية، وكان يترقب عام ستة وستين من المائة السابعة، فلقيت ذات يوم من عام أحد وستين بجامع القرويين من فاس، الخطيب أبا على بن باديس خطيب قسنطينة، وكان ماهراً فى ذلك الفن، فسألته عن هذا القران المتوقع، وما آثاره؟ فقال لى: يدل على ثائر عظيم فى الجانب الشمالى الشرقى، من أمة بادية أهل خيام، تتغلب على الممالك، وتقلب الدول، وتستولى على أكثر المعمور، فقلت: ومتى زمنه؟ فقال: عام أربعة وثمانين تنتشر أخباره، وكتب لى بمثل ذلك الطبيب ابن زرزره اليهودى، طبيب ملك الإفرنج ابن أذفونش ومنجمه، وكان شيخى رحمه الله إمام المعقولات محمد بن إبراهيم الآبلى متى فاوضته فى ذلك، أو سايلته عنه يقول: أمره قريب، ولا بد لك إن عشت أن تراه"[2] .

(١) مرة أخرى يجزم محمود عبدالمولى فى كتابه، ابن خلدون وعلوم المجتمع، (ص. ٣٤) أن تيمور لنك أراد قتل ابن خلدون بعد العشاء، وهو كلام لا يستند إلى أى شىء من النص أو خارجه، فإذا كان تيمور لنك يريد قتل ابن خلدون لماذا كلفه بالكتابة عن بلاد المغرب؟

(٢) نفسه، ص. ٤٠٧.

(٣) نفسه، ص. ٤٠٦.

واستمرت المحاورة بين ابن خلدون وتيمور لنك في شئون تاريخية، يبدو من خلالها أن الغازي الكبير كان يمتحن فيها ابن خلدون ومعرفته التاريخية، إلى أن جاء خبر فتح باب المدينة "وخروج القضاة وفاء بما زعموا من الطاعة التي بذل لهم فيها الأمان، فرفع من بين أيدينا، لما في ركبته من الداء، وحمل على فرسه فقبض شكائمه، واستوى في مركبه، وضربت الآلات حفافيه حتى ارتج لها الجو، وسار نحو دمشق"[1].

بعد ذلك توالت الأحداث وحاصر تيمور لنك "ونصب عليها الآلات من المجانيق والنفوط والعرادات والنقب (...) وضاق الحصار بأهل القلعة، وتهدم بناؤها من كل جهة، فطلبوا الأمان"[2]، أما ابن خلدون فقد أقام في بيته مشتغلاً بما طلب منه تيمور لنك في وصف بلاد المغرب، فكتبه في أيام قليلة، يقول: "وانصرفت إلى بيتي داخل المدينة بعد أن استأذنته في ذلك، فأذن فيه، وأقمت في كسر البيت، واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب، فكتبته في أيام قليلة، ورفعته إليه فأخذه من يدي، وأمر موقعه بترجمته إلى اللسان المغلي"[3].

وفيما كان ابن خلدون مقيماً عند السلطان تيمور لنك، خرج إليه من القلعة رجل من أعقاب الخلفاء بمصر، من ذرية الحاكم العباسي الذي نصبه الظاهر بيبرس، فوقف إلى السلطان يسأله النصفة في أمره، وهو في ذلك يطلب منه منصب الخلافة كما كان لسلفه، فأحضر تيمور لنك الفقهاء والقضاة، وكان فيهم ابن خلدون، فقال الرجل إن هذه الخلافة له ولأسلافه، وإن الحديث صح بأن الأمر لبني العباس ما بقيت الدنيا، وإنه أحق من صاحب المنصب في مصر، لكن برهان الدين بن مفلح قال بأن الحديث ليس صحيحاً. وتقدم ابن خلدون بحججه عن مسألة الخلافة وبين عدم أحقية الرجل فيها، فانصرف راشداً.

---

(١) نفسه، ص. ٤٠٨.

(٢) نفسه، ص. ٤٠٨.

(٣) نفسه، ص. ٤٠٨.

ولم تكن المجاملة تنقص ابن خلدون، فدخل في لقاء ثان على الأمير تمر كما يسميه، وفي يده مجموعة من الهدايا هي عبارة عن مصحف رائع حسن، وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيدة البردة للبوصيري في مدح النبي (ص)، وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة، فقدمها له "وهو بالقصر الأبلق جالس في إيوانه، فلما رآني مقبلاً مثل قائماً وأشار إلى عن يمينه، فجلست وأكابر من الجقطية حفافيه، فجلست قليلاً، فوضعتها، واستقبلني، ففتحت المصحف فلما رآه وعرفه، قام مبادراً فوضعه على رأسه، ثم ناولته البردة، فسألني عنها وعن ناظمها، فأخبرته بما وقفت عليه من أمرها. ثم ناولته السجادة، فتناولها وقبلها، ثم وضعت علب الحلوى بين يديه، وتناولت منها حرفاً على العادة في التأنيس بذلك، ثم قسّم هو ما فيها من الحلوى بين الحاضرين في مجلسه، وتقبل ذلك كله، وأشعر بالرضى به"[1].

وعندما اطمئن تيمور لنك إلى ابن خلدون، خاطبه في أمر يخصه: "فقلت أنا غريب بهذه البلاد غربتين، واحدة من المغرب الذي هو وطني ومنشئي، وأخرى من مصر وأهل جيلي بها، وقد حصلت في ظلك، وأنا أرجو رأيك لي فيما يؤنسني في غربتي، فقال: قل الذي تريد أفعله لك، فقلت: حال الغربة أنستني ما أريد، وعساك - أيدك الله - أن تعرف لي ما أريد، فقال: انتقل من المدينة إلى الأردو[2]، وعندي، وأنا إن شاء الله أوفي كنه قصدك، فقلت: يأمر لي بذلك نائبك شاه ملك، فأشار إليه بإمضاء ذلك، فشكرت ودعوت وقلت: وبقيت لي أخرى، فقال: وماهي؟ فقلت: هؤلاء المخلفون عن سلطان مصر، من القراء والموقعين، والدواوين[3]، والعمال، صاروا إلى إيالتك، والملك لا يغفل مثل هؤلاء فسلطانكم كبير، وعمالاتكم متسعة، وحاجة ملككم إلى المتصرفين في صنوف

---

(١) نفسه، ص. ٤١١.

(٢) الأردو باللغة التركية هو "المعسكر".

(٣) يؤكد المحقق ابن تاويت الطنجي أن الصواب هو: "بالدواوين" أو "أصحاب الدواوين".

الخدم أشد من حاجة غيركم، فقال: وما تريد لهم؟ قلت: مكتوب أمان يستنيمون إليه، ويعولون فى أحوالهم عليه، فقال لكاتبه: اكتب لهم بذلك، فشكرت ودعوت"(١).

دخل ابن خلدون فى يوم آخر على تيمور لنك فاستأذنه فى السفر إلى مصر، فسمح له بالسفر إلى عياله وأهله، فعاد ابن خلدون إلى مصر بعد إقامته لدى تيمور لنك دامت خمساً وثلاثين يوماً، فتولى القضاء مرة ثالثة ورابعة وخامسة.

---

(١) نفسه، ص. ص. ٤١١ – ٤١٢.

هذه خاتمة مؤقتة لبحث أعادنا إلى أسئلة أدبية نعتقد أنها قديمة، من جهة، وجعلنا نتعامل بطريقة تركيبية مع مناهج وأدوات نقدية حديثة، من جهة أخرى، وهذا أقصى تعبير عن نسبة المفاهيم والأفكار والإجراءات، وأدمغ دليل على أن جنس الذاتية مختبر لأسئلتنا حول النص الأدبى الحامل دوما للالتباسات، التى لا تزول إلا بالمقارنة الشاملة والتمحيص الدقيق.

درسنا السيرة الذاتية لابن خلدون "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا"، وهو نص ذاتى مهم فى اللغة العربية، واعتبرناه سيرة ذاتية على الرغم من خلوه من أى إشارة رمزية تعاقدية تجنسه، وكانت محاولة تجنيسية ممكنة، وهى عملية لم تكن أمرًا ميسورًا، وفى ذلك منازلة ومعارضة للدراسات والطروحات التى تنفى وجود السيرة الذاتية فى تراثنا الأدبى، فنحن نعلم أن خلو نص ما من هذه العلامة التجنيسية لا يعنى استحالة إدراجه فى خانة معينة من خانات التمييز الأجناسى، فالدلالات التجنيسية اهتمام من اهتمامات الدرس الأدبى الحديث، ويكفى أن نشير مع (فيليب لوجون) أن علامة "رواية" لم تظهر على أغلفة الكتب السردية فى فرنسا إلا فى بداية القرن العشرين، بل إنها ظهرت على أغلفة روايات ليست كذلك.

واعتبرنا "التعريف..." سيرة ذاتية تحترم ميثاقها، الذى هو مجموعة من المميزات النصية الخاصة بجنس السيرة الذاتية وحده، فلم يكن المقصود من الجهد النظرى والتطبيقى استخلاص المميزات الداخلية لنص "التعريف" فقط، بل استخلاص البنى المختلفة، الخاصة بالسيرة الذاتية وبغيرها من الأجناس الأدبية الأخرى، إضافة إلى استخلاص الشروط التى خضع لها ظهور هذا النص الفريد فى سياقات ثقافية وتاريخية وسياسية وجغرافية محددة، وما لذلك من وظائف وتأثيرات على النص وصاحبه.

سعينا، منذ البدء، إلى تبنى تصور شمولى لمفهوم السيرة الذاتية وأثبتنا أنها نسق ذو دلالة إيحائية منفتحة، ووجدنا أن السيرة الذاتية أسْندت لها تعريفات خضعت لتلبية ضرورات منهجية دورها أنها تسعف فى تحديد زوايا ومناطق البحث، أكثر من

كونها صياغة معيارية أو قاعدة للتناول، يضاف إلى ذلك صعوبة العثور على مصدر أصلى قد يشكل بداية منطقية لجنس السيرة الذاتية.

وتطرح السيرة الذاتية نفسها كواحدة من أقدم قضايا الشعرية؛ لذلك يصعب حصر مميزاتها وسماتها، شأنها فى ذلك شأن أى جنس أدبى.

لقد أثارت السيرة الذاتية العديد من الأسئلة والإشكالات، منها ما له طابع أدبى ومنها ما له طابع فلسفى، وقد مكننا ذلك من الاقتراب من أسئلة ثقافية شديدة الخصوصية متعلقة بشروط إنتاج النص الأدبى وتداوله، فالسيرة الذاتية فى الثقافة العربية الإسلامية لم تكن لها منزلة جنسية؛ لأن ذلك يتطلب من الأنا المنتجة لنصها أن تكون واعية بذاتها ومرتكزة على مبدأ الوجود المستقل، وأن تؤكد الاستمرارية الحيوية لهويتها، فالذات تعنى الهوية أولاً وأخيراً، وهى قضايا لم تكن الثقافة العربية الإسلامية فى عصر ابن خلدون، وفى العصور التى سبقته، منشغلة بها؛ لأن الثقافة العربية لم تكن منتجة لأسئلة الذات، فهى أسئلة مدانة من طرفها، دينيًا واجتماعيًا، بل كانت منتجة لأسئلة الجماعة والغير، وعلى الفرد الذاتى أن يتجنب التعبيرات الذاتية التى كان ينظر إليها على أساس أنها تعبيرات انطوائية ونرجسية.

وليس بوسعنا اتهام الثقافة العربية الإسلامية، فى ما نعتبره اليوم قصوراً فكريًا وثقافيًا فقد أثبتنا كيف أن الثقافة الغربية المسيحية، رغم ادعاءات شيوع ثقافة الاعتراف المسيحية، هى الأخرى كانت رافضة للملفوظ الأنا، بل هناك نصوص أتينا على ذكرها فى الأطروحة تدين الملفوظ الذاتى، وتتهمه بالإنطوائية والنرجسية والقبح والشناعة، إضافة إلى أن العديد من الكتاب الغربيين الذين كتبوا سيراً ذاتيًا أنكروا عليها أى قدرة تعبيرية وأى منزلة أدبية بين نصوص الأدب الأخرى.

ولعل أهم مرافعة قامت بها الأطروحة هى لصالح عنصر التخييل فى السيرة الذاتية، التى كثيرًا ما اعتبرت نصًا مرجعيًا، حقيقيًا، وقائعيًا، مرتبطًا بطريقة مرآتية بتاريخ حياة صاحبه، فأكدنا أن المتخيل هو الطريقة المثلى التى توجد بها السيرة

الذاتية من خلال تناول عناصر الحبكة والسرد واللغة والدلالة، والتذكر الحالم، والميثاق المرجعى، والنتيجة هى أن سيرة ابن خلدون الذاتية ليست سالبة للتخييل، فهذا التلفظ الذاتى يحتوى على الحقيقة بالمعنى الذاتى للكلمة، والالتزام بهذا المعنى يتخذ أشكالاً عديدة منها أن حقيقة الذات هى أيضًا حقيقة الآخرين، وبالتالى فإن السيرة الذاتية هى ورشة أو ملف، حسب تعبير "ويليام جاس".

وقد كان لهذه النتائج أثر قوى فى استقبالنا لجميع الكتابات الذاتية: المذكرات، اليوميات، رحلات...إلخ، وهو انشغال ننوى الانكباب عليه فى المشاريع المستقبلية، خصوصًا وأن هذا المجال ما زال بكرًا، بالنظر إلى وفرة الإنتاجات الغربية والعربية المتوفرة فيه.

المصادر والمراجع العربية

– ابن فضلان، رسالة ابن فضلان، بيروت، مكتبة الثقافة العالمية، ط.٢، تحقيق سامى الدهان، ١٩٨٧.

– إبراهيم (عبدالله)، السردية العربية، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء – بيروت، ١٩٩٢.

– أركون (محمد)، نزعة الأنسنة فى الفكر العربى، جيل مسكوية والتوحيدى، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، ١٩٩٧.

– أومليل (على)، الخطاب التاريخى، دراسة لمنهجية ابن خلدون، معهد الإنماء العربى، بيروت، د. ت.

– ابن رمضان (فرج)، الأدب العربى القديم ونظرية الأجناس، دار محمد على الحامى، تونس، ٢٠٠١.

– بدوى (عبدالرحمان)، الموت والعبقرية، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢.

– بوتور(ميشيل)، بحوث فى الرواية الجديدة، ترجمة: فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧١.

– الترغى (عبدالله)، فهارس علماء المغرب منذ النشأة على نهاية القرن الثانى للهجرة، مرقون: ١٩٨٣/٨٢.

– الجابرى (محمد عابد)، فكر ابن خلدون، العصبية، والدولة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٢.

– جاس (وليام)، فن الذات كتابة السيرة الذاتية فى عصر النرجسية، ترجمة: ياسر شعبان، الثقافة البحرينية، العدد: ١٩، يناير-١٩٩٩.

– جاكبسون (رومان)، نظرية المنهج الشكلى، نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب.

– الحصرى (ساطع)، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٦١.

– حلى (عمر)، البوح والكتابة، دراسة فى السيرة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، مجموعة البحث الأكاديمى فى الأدب الشخصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – أكادير، ١٩٩٨ ط٣.

– حليفى (شعيب)، الرحلة فى الأدب العربى، التجنس، آليات الكتابة خطاب المتخيل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.

– حميش (بنسالم)، الخلدونية فى ضوء فلسفة التاريخ، بيروت، دارالطليعة، ١٩٩٨.

– ذاكر(عبد النبى)، عتبات الكتابة، مقاربة الميثاق المحكى، منشورات مجموعة البحث فى الأدب الشخصى، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكادير – ١٩٩٨.

– ريكول (بول)، المسيرة الفلسفية، ترجمة: محمد ميلاد، الحياة الثقافية، العدد: ٥٣٩، ٩ نوفمبر ٢٠٠٣.

– سعيد (إدوارد)، خارج المكان، ترجمة: فواز طرابلسى، بيروت، دار الآداب، ١٩٩٩.

– سلفرمان (هيو)، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، ترجمة: حسن ناظم وعلى حاكم صالح، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٢.

- الشاوى (عبدالقادر)، الكتابة والوجود، السيرة الذاتية فى المغرب، إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، ٢٠٠٠.

- المتكلم فى النص، منشورات الموجة، الرباط، ٢٠٠٣.

- شرف (عبدالعزين)، أدب السيرة الذاتية، مكتبة لبنان، بيروت.

- ضيف (شوقى)، الترجمة الشخصية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ط. ٢.

- العقاد (عباس محمود)، أنا، دار الهلال، القاهرة، د. ت.

- عباس (إحسان)، فن السيرة الذاتية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٦.

- عبدالدايم (إبراهيم)، الترجمة الذاتية فى الأدب العربى الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤.

- عبدالفتاح شاكر (تهانى)، السيرة الذاتية فى الأدب العربى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٢.

- غلوينيس (م)، الأجناس الأدبية، ترجمة: د. محمد مشبال، مجلة الصورة، العدد الرابع، ٢٠٠٢.

- عبد المولى (محمود)، ابن خلدون وعلوم المجتمع، ليبيا، الدارالعربية للكتاب، ١٩٨٨.

- عنان (عبدالله)، ابن خلدون، حياته وتراثه الفكرى، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٣.

- كليرك (توماس)، الكتابة الذاتية، إشكالية المفهوم والتاريخ، ترجمة: محمود عبدالغنى، منشورات الموجة، الرباط، ٢٠٠٣.

- كيليطو (عبدالفتاح)،المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠١.

- الحكاية والتأويل، دراسات فى السرد العربى، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨.

- ماكرى (محمد)، السرد العرفانى، محاولة للتجنيس، ضمن كتاب: مشكلة الجنس الأدبى فى الأدب القديم، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس، ١٩٩٤.

- المبخوت (شكرى)، سيرة الغائب، سيرة الآتى: السيرة الذاتية فى كتاب الأيام لـ (طه حسين)، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢.

- مارتن (ولاس)، نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

- منيستى (دانيا)، كتابة السيرة الذاتية النسائية فى مصر (عبور القضاء بين الخاص والعام)"، مجلة أبواب، بيروت، عدد: ٦، خريف ١٩٩٥.

- النبهان (محمد فاروق)، الفكر الخلدونى من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٨.

- نبيل (مصطفى)، سير ذاتية عربية، دار الهلال، القاهرة. ب. ت.

- هبة (مجدى)، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٤.

المراجع الأجنبية

- Abastado (Claude), «les Récits de vie à deux voix: un prêt - à - porter autobiographique, in: dérives des signes, Paris, Publidix, 1988.

- Akoum (Naom), L' autobiographie dans la littérature arabe contemporaine, genése et forme. Thése de doctorat, université Michel de Montaigne, Bordeaux III, 1996.

- Bakhtine (Mickhaîl):

a-Le principe dialogique, ed. Seuil, 1981.

b-Esthétique de la création verbale, Ed. Gallimard, 1981.

c-Essais critiques, ed.Seuil, coll.Points, 1981.

- Berque (Jacques), Maghreb et Histoire et société, Alger, 1974.

- Benvéniste (Emile), problèmes de linguistique générale Ed.Gallimard, 1966.

- Bruss (Elizabette):

a- L' autobiographie considérée comme acte littéraire, poétique, N°17, Paris, Seuil, 1994.

b-L'autobiographie au cinéma, Poétique, N°56, 1983.

- Burrughs (William), Mon éducation, un livre des rêves, traduit de l' Americain par Sylvre Surastaut, ed. 10/18, 1994.

- Chebel (Malek), le sujet en islam, Ed.Seuil, 2002.

- Chiantaretto (Jean - français), «pour une approche Psychannailytique de l' autobiographie », Revue: Psychanannalyse à l' université, ed. P .U.F, Tome 15, N°60, octobre, 1990.

- Coirault (Yves), «Autobiographie et mémoires (XVII - XVIII siècles), ou existence et naissance de l' autobiographie «, Revue d' histoire littéraire de la France, N* 6, Novembre - Décembre, 1975.

- Clarc (Thomas), les écrits personnels, ed. Hachette, coll. ancrages, 2001.

- Cohin (Dorrit), la transparence intérieure, traduit par : Alain bony, coll. Poétique, Ed.Seuil; 1981.

- Corbin (Henry), La paradoxe du monotheïsme, ed. de l' herne, 1981.

- Daniel (Oster), Autobiographie, Encyclopédie Universalise, 1995.

- De mijolia - mellor (Sophie), «survivre son passé» in : l'autobiographie, VI, rencontres psychannalytiques d' Aix - en - Provence, ed. Les belles lettres, 1987.

- Derrida (Jacque), L' enseignement de Neitshez et la Politique du nom propre, Ed. Galilée, 1984.

- Djait (Hicham), La personnalité et le devenir arabo- islamique, ed.Seuil, 1977.

Doubrovsky (Serge):

a- Fils, ed. Folio Gallimard, Paris, 1977.

b- Autobiographiques, ed. P.U.F, Paris, 1988.

c- Autobiographie de corveille à sartre, ed.P.U.F, 1988.

- Dupos(Jean - Claude), «dire» je «en Anglettere au XVII siècle, in: Individualisme et autobiographie en occident », édition de l'université de Bruxelles, 1983.

- Ducrot (Osward) et Todorov (Tzvetan), Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, ed. Seuil, 1972.

- Foucaults (Michel), Histoire de la sexualité I, ed. Gallimard, 1976.

- Fussillo (Massino), Naissance du roman, ed.Seuil, coll. Poétique, 1991.

- Genette (Gérard):

a- Figures III, ed. Seuil, 1972.

b- Introduction à l' architexte, coll.poétique, ed. Seuil, 1979.

c- Fiction et diction, coll. Poétique, ed. Seuil, 1991.

- Glousky (Michael), «Les genres littéraire», in: théorie littéraire, problémes et perspectives, ed. Seuil, 1989.

Green (Julien), Jounals, ed .Gallimard, coll. bibliothéque de la pleiade, 1985.

Gusdorf (Georges):

a- les Sciences humaines et la pensée occidentale, tomme : II les origines des Sciences humaines, pavot, 1967.

b- Auto - Bio - graphiqie, ed. odile Jacobe, 1991.

c- les écritures du moi, ed. Odile Jacobe, Paris, 1991.

- Hamburger (Kaite), Logique des genres littéraires, traduit: de l' allemand par cadiot, ed. seuil, Paris, 1986.

- Hoc (Léo Huib), La marque du titre, dispositifs, sémiotiques d' une pratique textuelle, ed. Mouton Editeur, 1981.

- Houssay (Martime), Problématique identitaire et vérité singulière, Etudes, des trois autobiographies arabes, thèse de doctorat, université Michel de moutaigne-Bordereaux III, 2001.

- Lacan (Jacque), ecrits, Ed. seuil, 1988.

- Lecarme (Jacques) et Lecarme - Tabone (Eliane), L' autobiographie, Ed. Aarmand, Colin, Paris, 1997.

- Leiris (Michel), l' age d'homme, ed. Gallimard, 1946.

- Le jeune (philipe),

a- La pacte autobiographique, coll. Poétique, Editions du seuil, Paris, 1975.

b- Je et un autre, coll. Poétique, ed. seuil, Paris, 19.

c- Moi aussi, coll. poétique, éditions du seuil, Paris, 1986.

d- le moi des demoiselles, ed. Seuil, 1995.

e- pour l' autobiographie, Magazine littéraire, Paris N* 904, 2002.

- May (Georges), L'autobiographie, ed. P.U.F, Paris, 1984.

- Miraux (Jean - Philipe), L' autobiographie, écriture de soit, sincérité, Ed.nathlan , Paris, 1996.

- Nigon (Paul), Marcher à l'écriture, ed.actes Sud, 1991.

- Perec (Georges), W ou le souvenir d' enfance, ed. Gallimard, 1993.

- Robbe - Grillet (Alain), «je n'ai jamais parlé d'autre chose que de moi», in : l' auteur et le manuscrit, ed. P.U.F 1991.

- Sallenave (danielle), «Fiction et Autobiographie», in: l'auteur et le manuscrit, Ed. P.U.F, 1991.

- Sartre (Jean -Paul), les mots, ed. Gallimard, Paris, 1972.

- Schaeffer (Jean - Marie), «du texte au genre», in théories des genres, ed. Seuil , 1986.

- Signoret (Simone), La nostalgie n'est plus ce qu'elle était, ed. Seuil, 1978.

- Starobinsky (Jean):

a- la relation critique, l' il vivant II, Paris, ed. Gallimard, 1970.

b- «Le style de l' autobiographie », poétique, n*13, Paris, 1970.

- Stempel (Wolf Diete), «Aspects génériques de la réception», in :Théorie des genres, ed. Seuil, 1986.

- Todorow (Tzvetan):

a-La notion de la littérature et autres essais, ed. seuil, coll. points, 1982.

b- Esthétique et théorie du roman, ed. Gallimard, Paris, 1978.

- Von Grunebaun(Gustave), L'islam médiéval, payot, 1962.

- Wellek (René) et Waren (Austin), La théorie littéraire, coll, poétique, ed. Seuil, 1971.

- Witenow (P.R), «Autobiographie et Biographie », in: Autobiographie et Biographie, Paris, 1989.

- Wolf (Nelly), «sur trois manières, de raconter sa vie », Revue des Sciences humaines, Lille III, N° 192, 1983- 1984.

- Zanone (Damien), L'autobiographie, ed. Marketing. S.A, 1996.

المراجعة اللغـوية : **أكرم إبراهيم حمودة .**

الإشراف الفـنى : **راندة عـبد الكـــريم .**

تقدم السيرة الذاتية حالة فردية عن طريق تاريخ مميز للذات ، وعن طريق عقد صلة معينة مع قارئها . فـ "صدقها" و "أصالتها" و "حقيقتها" لا تتأتى أبدا من تشابهها مع العالم الواقعي للقارئ أو تطابقها معه ، إن كينونة النص فى هذه الحالة ، تتأتى من كونه تخييلا ذاتيا مصنوعا من كلمات، ومن تنظيم الفضاء ، والزمن ، ومستوى الحقيقة التى تكونه ، وهذا هو ما أطلقنا عليه "عهد السيرة الذاتية الجديد" الذى تشكلت فيه بوادر جنس أدبى جديد ، إلى درجة أن مصطلح "التخييل الذاتى" أصبح منافسا للمصطلح الأم "سيرة ذاتية".



المجلس الأعلى للثقافة

الغلاف: رانده عبد الكريم